عاشقُ البادية

* الكتاب: عاشقُ البادية (رواية)
* الكاتب:: د. طه علي خليفة
* مراجعة لغوية: عزيز عثمان
* تصميم الغلاف: صابرين عبدالهادي
* إخراج داخلي: سليل الفراعنـة
* رقم الإيداع: 2073 /2022
* الترقيم الدولي: 3-91-6875-977-978

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع



صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع











(روايـــــة)

عاشقُ البادية

د. طه علي خليفة





إهداء

- إلىٰ راعي هذا الوطن... وإلىٰ رعيَّتهِ من شعبنا الأبيّ الكريم.

- إلىٰ كلِ قطْرةِ دمٍ سالتْ دفاعًا عن أرض مصر... وإلىٰ كلِ عينٍ ساهرةٍ من أجل أمنِها.

- إلىٰ أبي... رحمه اللهُ –تعالىٰ– رحمةً واسعةً، وإلىٰ أمي... رزقني اللهُ برِّك.

- إلىٰ قُرَّائي الأعزاء في كل أوطاننا العربيَّة.

إليكم جميعًا أهدي روايتي الثانية







يكـادُ حبـابُ المـاءِ يخـدش جـلدها   إذا اغتسـلت بالمـاء مِـنْ رِقَّـة الجـلدِ

وَلَـوْ لَبِسَـتْ ثَوْبًـا مِـنَ الـوَرْدِ خالصًـا   لخـدَّشَ منهـا جلـدها ورقُ الــوردِ

يُثقلهـــا لُـــبس الحـــريرِ للينهـــا   وتشـكُو إلـىٰ جاراتهـا ثقـلَ العِـــقدِ

وأرْحَـمُ خَـدَّيْها إذ مَـــا لَحَظْتُـــهَا   حـذارًا للحظـي أنْ يـؤثِّرَ في الخـدِّ

قيس بن ذريح





أما قبل:

تغوص أحداثُ هذه الرواية في أعماق التاريخ، وتحديدًا قبل ما يقرب من ألف عامٍ هجري، حيث خلافة الدولة الأموية؛ لتلقي الضوء علىٰ قصةِ عشقٍ، عنيفةٍ وعفيفةٍ وحقيقيةٍ أيضًا، كانتْ بين فتىٰ وفتاةٍ من سكان بادية الحجاز، في بلاد الحرمين الشريفين، وقد أورد لنا الرواةُ والكُتَّابُ قصة هذين العاشقين، وأوردوا لنا أبيات هذا الفتىٰ العاشق في محبوبته، التي هام فيها بكل جوارحه، وكان أبو الفرج الأصفهاني –الأديب المؤرخ- أكثر هؤلاء الرواة والكُتَّاب الذين سجَّلوا أحداث هذه القصة، في نيفٍ وستين صفحة تقريبًا، في كتابه الأغاني المعروف، مشتملةً علىٰ ديوان شعر صغير لهذا الفتىٰ العاشق، ومشتملةً أيضًا علىٰ السند والعنعنة لكل خبر يرويه أبو الفرج الأصفهاني.

فإذا استغنينا عن ديوان الشعر، إلا بعض ما يناسب سياق الرواية، وسير الأحداث، وإذا استغنينا عن العنعنة والسند، فلا حاجة لنا إليهم، وجدنا أن الأحداثَ تقع في بضع صفحات فقط من كتاب الأغاني، بل وفي كل المصادر التراثية التي ذكرت القصة، لا تزيد علىٰ ذلك، والعمل الروائي بحاجة إلىٰ الوصف والتخييل والسرد والحوار، و...، وغير ذلك من العناصر التي لا يستغني عنها العمل الروائي، ولمَّا كانت الأحداث غير وافية لإتمام عمل روائي جاد، كان من الضروري اختلاق شخوص وحوارات وأسماء وأحداث في كثير



من الأحيان؛ حتىٰ يكتمل العمل، ويصير عملا روائيًا ناضجًا، يُقدَّم لقراء أعزاء.

وقد اتكأتُ علىٰ هذه الصفيحات الواردة إلينا من الكتب والمصادر التراثية، وألَّفت منها عملا روائيًا حسنًا - كما قالوا لي- فيمكن أن تسمِّي هذا العمل: رواية تاريخية، أو رواية رومانسية، أو رواية تمزج بين الواقع والخيال، أما أنا فأراه عملا أدبيًا روائيًا، يشمل علىٰ كل ذلك، لكن في النهاية هو خلاصة ما يشعر به أيُ كاتب أو أديب؛ لذا فسمه أنت - أيها القارئ العزيز- ما شئت.

وقد كُتبتْ هذه الرواية أثناء فترة الحظر، الذىٰ فرضته الحكومة المصرية؛ اتقاءً لانتشار فيروس "كورونا"، حيث وقت الفراغ، الذىٰ ما كان يشغل بعضه إلا المحاضرات التي تُقدم للطلاب، عن طريق التدريس عن بعد؛ لذا تم إنجاز هذه الرواية سريعًا، وعلىٰ غير العادة.

وأخيرًا...اللهَ أسألُ أن يرفعَ عنَّا هذا الوباء والبلاء، ويحفظ علينا مصرنا الحبيبة الغالية، ويوفّق رئيس جمهوريتنا المُجدّ، ويسدد خطاه، وكل حكَّام بلادنا العربية.

د. طه علي خليفة

الغردقة في ديسمبر ٢٠٢١م



(١)

مَحيا ومَمات

في نهار يوم صائف من أيام البوادي، أرسلتْ الشمس أشعتها الحارقة على الأرض، وكأن بينها وبين الأرض ثأرًا تليدًا، حيث اشتد القيظُ اشتدادًا لم ير أهلُ البادية مثله، وتوهَّجتْ الرمالُ حتى أوشكتْ أن تخرج لهبًا تحرق به الأقدام، وانحسر الفيء تحت السفوح، موليًا مهزومًا، وكأنه يخشى غضب الشمس، التي تركت أشعتها تصب لهيبها على الأرض صبًّا لا رفقة فيه ولا هوادة، حتى حيوانات البوادي القوية، التصقتْ في ذلك اليوم بسفوح الأودية والجبال، تتقي ذلك الفيح الشديد، وانقطع المارةُ من الطرقات، من شدة الرمضاء، حتى لا تجد دابةً تدب عليها، وانعدمتْ حياة البشر إلا داخل الدور والربوع...

في ذلك الوقت كان الشيخُ ذريح بن سنة بن حذافة الكناني في هذا اليوم أمام داره قلقًا حائرًا، يتحرك يمنةً ويسرةً، ولا يستقر على حالٍ أبدًا، وقد استظل بحائط داره، يرفع كفيه متضرعًا إلى الله، ويتمتم سرًا بكلمات، ثم ينزلهن، ليرفعهن مرة ثانية، ملحًا في تضرعه إلى الله، فحدثٌ مهمٌ فارقٌ كان الشيخ في انتظاره، ولطالما تمنَّاه من الله؛ لذا لم يخش معه ذلك القيظ الشديد، بل لم يأبه به.





أصاب الشيخ الإرهاق والقلق من طول ما انتظر، ومن كثرة ذهابه وإيابه، فجلس مسندًا ظهره علىٰ حائط داره، يستظل بفيئه، وينتظر قادمًا، يحمل خبرًا ما.

طال انتظار الشيخ كثيًرا، حتىٰ قدمت جاريةٌ صغيرة السن، حلوة الملامح، رشيقة، كغزالة من غزلان البراري، تهرول إليه هرولة، ولولا الحياء، لركضتْ إليه ركضًا، تتقي بيديها الصغيرتين الجميلتين، أشعة الشمس الحارقة، وقد علا وجهها حبورٌ، وفرحةٌ شديدة، فلما اقتربتْ من الشيخ، أخذتْ في الصياح بشدة:

- سيدي ذريح...

- سيدي...

- البشارة يا سيدي...

انتصب الشيخ واقفًا، وقد تهلل وجهه؛ لما سمع كلمة البشارة، والتفت إلىٰ الصوت، سائلا:

- نعم يا تَيماء، نعم أيتها الجارية البلهاء.

- سيدي...

- ما الخطب يا حمقاء؟

تنتظر تَيماء حتىٰ تقترب من الشيخ ذريح، ثم تحاول أن تهدأ قليلا؛ لتستقر أنفاسها، لكن الشيخ يبدو قلقًا، ويستحثها علىٰ الكلام منفعلا:

- قلت ما خطبك يا جارية؟

- أبشر سيدي، فقد وُلد لك اليوم غلامٌ، مشرق الوجه...



يشرق وجه الشيخ، ويرفع يديه إلىٰ السماء، ويتمتم بكلمات، ثم ينظر إلىٰ تَيماء، قائلا:

- أومتأكدة يا تَيماء أنه غلام؟

- نعم يا سيدي، وأيم الله إنه كذلك، وقد حملته بنفسي من يد القابلة علىٰ يديّ هاتين، إنه حلو الملامح يا سيدي، حلو وجميل حقًا، إنه يشبهك كثيرًا يا سيد البطحاء.

يهمس الشيخ لنفسه، وقد هدأ اضطرابه:

- الآن لم يعد ذريحٌ أبترًا، فأنا الآن ذو مالٍ وولد، لكم عيرني هؤلاء الحمقىٰ بذلك؟! وإني لأكثرهم مالا وجاهًا ومكانة، ما كان ينقصني سوىٰ الولد، وأيم الله لأكاثرهم بالولد حتىٰ أغلبهم، كما غلبتهم بالمال، ثم يرفع صوته محدثًا تَيماء:

- وكيف حال سيدتك رمسة يا تَيماء؟

- بخير يا سيدي، فمذ علمت أنها أنجبت غلامًا جميل المحيا، وهي مشدودة الظهر، باسمة الوجه، وقد زالتْ عنها كل آلام المخاض.

يبتسم الشيخ في هيبة ووقار، ويواصل الحديث مع تَيماء:

- ألا أبشرك بما يسرك يا تَيماء؟

- خيرك عميم يا سيدي، وفيض عطائك يغمر الجميع، ورؤيتك مسرورًا، هي خير بشرىٰ لي.

- ما أحسن قولك يا تَيماء!

- أحسن الله إليك سيدي.





- أنت منذ اليوم حرَّة، أيتها الفتاة.

- أحقّا ما تقول؟! يواصل الشيخ كلامه:

- إن شئت فاذهبي إلىٰ أي مكان تريدين، فأنت علىٰ عكس ما يوحي به اسمك تمامًا، أليس معنىٰ اسمك: الأرض المقفرة المجدبة، أنت منذ اليوم يا تَيماء: الأرض الخصبة المُعشِبة، ثم يتضاحكان، ويواصل حديثه:

- اذهبي يا بنيتي أنَّىٰ شئت...

تشرد تَيماء بذهنها بعيدًا، وتحاول أن تتذكر شيئًا ما، لا يتأتَّىٰ لها في سهولة، لكنها تقطع ذلك الشرود، وترد علىٰ الشيخ:

- أشكر لك صنيعك معي يا سيدي، لكن لا أهل لي أعلمهم، ولا بلد لي أرحل إليها، فأنتم يا سيدي أهلي، والبادية أرضي.

- لك ما شئت يا تَيماء، لك يا بنيتي ما شئت، ولكن أنت منذ اليوم حرَّة، ولا سيد لك إلا الله.

تقاطعه تَيماء سريعًا، وكأنها لا تريد أن تسمع شيئًا، فهي منذ أن وعتْ عينها الدينا، وهي لا تعرف أحدًا سوىٰ ذريح، وزوجه رمسة، سريعًا تواصل الحديث، وكأن الشيخ لم يقل شيئًا.

- ماذا ستسمي الغلام يا سيدي؟

- سمه أنت يا تَيماء.

تنبسط أسارير تَيماء، بعد انقباض، علىٰ هذه الثقة التي يوليها إليها سيدها، فاليوم يبدو أنه يوم بِشره وسروره.

- ما رأيك يا سيدي في: جسَّار أو جعفر أو قيس؟





يضحك الشيخ حتىٰ تبدو نواجذه، ثم يقول لتَيماء:

- لله درك يا تَيماء، أن اسم قيس كاد أن ينفلت من بين شفتيّ، إنه اسمٌ جميل ورشيق حقّا، ثم راح يجرب نطقه في فِيه: قيس...يا قيـــس، أليس سهل نطقه؟ فأنا منذ اليوم يا تَيماء: أبو قيس، يقول ذلك مفتخرًا، ثم يواصل حديثه:

- اذهبي إلىٰ القابلة واعطها ما تريد، اعطها شاتين حلوبتين، وزبدًا وسمنًا وعسلا، ودنانير كثيرة، اعطها أكثر مما تراودها نفسها.

- طاعة يا سيدي.

تذهب تَيماء، وقد شردت بذهنها بعيدًا، وراحت تفكر: لو أنها تعرف أهلها، ومسقط رأسها لارتحلت إليهم من الفور، لاستغلت سماحة هذا الشيخ، وفرحته بابنه الوليد، وصارت حرة طليقة، وإن كان جوار الشيخ لا يقل عن جوار أهلها، فالشيخ سمح كريم تقي، كثير المال، وذو حسب ونسب، وقد ابتاعها طفلة صغيرة بلهاء، لا تدري شيئًا، ومازال يرعاها حتىٰ صارت جارية ملء السمع والبصر، فهي لم تعرف لها أبا سواه، ولا أمّا سوىٰ رمسة زوجه، وما رأت منهم إلا خيرا، الآن وقد استدار جسدها، وكعب ثديها، والتف فخذاها، تتركهم، وإلىٰ أين؟ لكن المؤكد أنها غدًا ستتزوج، فهي مليحة وجميلة، وقد صارت حرَّة الآن، وقد ترحل مع زوجها أينما رحل، أو قد يقيم بها زوجها قرب دار الشيخ، فتنعم بدفء الزوج، وبجواره الشيخ.





تقترب تَيماء من القابلة، فتزيح عن ذهنها كل تلك الأفكار، وتصيح بها:

– يا أم زكوان...

– يا أم زكوان، أيتها القابلة ذات الحظ السعيد، إن سيدي ذريح، قد أفاض عليك من الخير فيضًا، فقد خصص لك شاتين حلوبتين، وزبدًا وعسلا، وما شئت من الدراهم والدنانير.

ينشرح قلب أم زكوان القابلة، فقد منّت نفسها بمثل هذا العطاء، فالشيخ كريم جواد...تحمل أشياءها، وتسوق شاتيها، وتسير كأنها تحمل بين يديها ثروة عظيمة.

يدخل الشيخ ذريح في سمتٍ ووقار إلىٰ داره سعيدًا، ثم يتجه حيث مخدع زوجه رمسة، يسألها عن حالها، ثم يهنئها بمولودها الجديد، ويحمل الطفل بين يديه، ثم يخاطبها:

– إنه قيس يا رمسة، سميته قيسًا، ما رأيك؟

– الرأي رأيك يا سيد البطحاء.

– هو قيس إذن، فليبارك الله لنا فيه، ثم يصيح مناديًا علىٰ تَيماء:

– يا تَيماء، كم عندنا من الأبل والشياه؟

– مئات منهم، غير صغارها من الأحورة والأحمال، يا سيدي.

– فلنولم إذن بعشرةٍ منها، ما رأيك يا رمسة؟

– أوتحتاج الولائم إلىٰ رأي يا أبا قيس؟ إنهم قومك، أطعمهم وأطعم فقراءهم، وفقراء البادية والحجاز، فأنت مَن أنت!





يدور العبدان والإماء علىٰ دور أهل البادية جميعهم، الأغنياء منهم والفقراء، والأشراف منهم والعبيد؛ يدعونهم إلىٰ عقيقة الشيخ، في اليوم السابع من مولد قيس...

يقبل هذا اليوم، ويقبل معه المدعوون، ولم يتخلّف عن طعام الشيخ أحد، فالشيخ كريم، وطعامه شفاء، يُبذل من نفس طيبة سخيّة، وقد كان يومًا عظيمًا من أيام البادية، دُعي إليه مئات من السادة وغير السادة، حتىٰ لم يبق دار في البادية إلا وأصابه شيء من طعام الشيخ الكريم، فقد صُفّت الموائد، ووضع عليها ما لذ وطاب من أطايب الطعام، خاصة الثريد الذي يحبه أهل البوادي، وعليه من قطع اللحم الدسم الطري الكثير، ودار العبيد والخدم بالصحاف والكؤوس علىٰ الموائد، لإتمام ما نقص منها، حتىٰ شبع الضيفان، وارتووا، والشيخ يدور عليهم، محييًا، ومشجعًا علىٰ الاستمرار في المأكل والمشرب.

وكان الشيخ قد أقبل علىٰ ضيوفه يحييهم، وهو مشرأب العنق، منشرح الصدر، مزهوٌ بنفسه، فقد أنعم الله عليه بالمال والنسب، وأخيرا تم نِعَمه عليه بالولد، فقد جاء قيس، وسيعقبه - إذا أراد الله- بعشرة إخوة متواليين، فالشيخ بعد أن ظن نفسه عقيمًا لعشرة سنين، لا يُنجَب له فيها ولدٌ، قد أنعم الله عليه الآن بقيس.

يستوقفه المهلَّب، وهو ابن عم ذريح، وكان رجلا حقودًا حسودًا جشعًا، يأكل الغلُّ قلبه، ويستكثر علىٰ ذريح ما فيه من نعمة، ويود لو أن الله أزال نعمته من ذريح، وأعطاها إياه، فهو أولىٰ بها، ومعه من الولد الكثير، فيقول لذريح:





- هنيئًا للسيد ذريح، فقد زدنا بذلك سيدًا نفخر به، وسيرث من أبيه وجاهته وكرمه، وماله التليد...

يتعوذ منه ذريح في نفسه، ويرد عليه مضطرًا؛ ليبطل سم نفسه، وما تحمله من حقد:

- لله درك يا مهلَّب، لا تقل ذلك، فلا يدري أحدٌ مَن سيرث مَن، ثم يدعه سريعًا، وينصرف إلىٰ غيره، فيحترق قلب المهلَّب غيظًا، وينظر إلىٰ صديقهما النّضر الذىٰ يجلس بجواره، ويهمس له:

- أترىٰ يا نضر ما فيه هذا اللعين ذريح، أتراه كيف يزهو علينا وينتفخ سحره؟

- من حق الرجل أن يفعل يا مهلَّب، فقد كان أبترًا، وصار الآن من أصحاب الولد.

- وأيم الله إنه مازال يفاخرنا ويكاثرنا، حتىٰ سطع نجمه علينا، ونحن في النسب والحسب كفرسي رهان، وقد سبقنا بالمال، وسبقناه بالولد، أما الآن فقد أُوتي الولد، فسبقنا.

- وما ضيرك في ذلك يا مهلَّب؟ أليس فخره فخرك، وولده ولدك، ألستما أبناء عم؟

- لكنه حاز كل شيء دوننا؟ واستأثر بكل تلك النعم، التي يرفل فيها وحده، وقد كنّا نصبر عليه؛ لأنها كانت ستؤول إلينا في نهاية الأمر، أما الآن فقد انقطع الأمل بهذا الغلام...تبًا له، فهو مَن حرمنا، تبًا له.





- يا رجل، كيف تقول ذلك؟ كيف تتحدث عن شيء ليس من حقك؟ فهذا عطاء الله، يؤتيه مَن يشاء.

- كل ذلك كان سيؤول إلينا يا نضر، لولا هذا اللعين الصغير.

- أرأيت أكرم من الشيخ ذريح، أتنكر أنه أكرمنا وأسخانا؟ أرأيت وليمته؟ مَن منّا يجرؤ علىٰ إتلاف كل هذا المال؟ ألا يشفع كل ذلك للرجل، وتكفيه ما تضمره له من سوء؟

- تبًا لك يا نضر، تبًا لك من رجل سوء...

يخشىٰ منه النّضر فيدعه لحقده، ويذهب عنه بعيدًا، يبقىٰ المهلَّب وحيدًا، ونفسه تغلي كقدر، بل تفور فورانًا كأنها بركان، وقد أضمر في نفسه شيئًا، فقد كان حقودًا حسودًا، قليل المال، سيئ العشرة، غير محبب إلىٰ الناس، وكان يتمنىٰ هلاك الشيخ ذريح دون ولد؛ حتىٰ يرث كل ذلك الخير، أو حتىٰ بعضه، لكن بمجيئ قيس زالت كل أمانيه.

انفض المجلس، وذهب كلٌ إلىٰ غايته، ولم يبق سوىٰ المهلَّب، تكاد نفسه تَميَّز من الغيظ، وقد تركه صديقه النّضر، خشية منه، ومن جرائره، فيذهب المهلَّب هائمًا يتدبر أمره، وقد عزم في نفسه علىٰ أمرٍ جلل، لا يفكر فيه إلا منزوع الإيمان، فقد عزم، ولا رجوع لعزمته.

كان قيسٌ طفلا جميلا قسيمًا، تضنّ به رمسةُ عن كل الناس، فهو وحيدها، ولم تنجبه إلا بعد عشرة سنين، من بعد أن داخل اليأس قلبها، وظنت أنها عقيم، ولا تسمح لأحد بحمله أو ملاعبته إلا تَيماء فقط، فهي مَن يأخذه ويلاطفه، حتىٰ إذا حبا قيس حبْواتٍ، سمحتْ





رمسة لتَيماء أن تخرج به خارج الدار، وتذهب به قريبًا من أطراف البادية، حيث الهواء الطلق، والأجواء الفسيحة، وروائح زهور البراري الجميلة النقية، التي تملأ صدر قيس، فتشفيه من أي علّة قد يعتل بها، وكان ذلك شأن عامة العرب، حتىٰ يشب أطفالهم أصحاء الجسد، أقوياء البِنية، وقيس أولىٰ أبناء العرب بذلك، فأبوه ذريح بن سنة الكناني، ذو الحسب والنسب، وأكثر الناس مالا، وأسخاهم يدًا.

تفرغتْ تَيماء لخدمة قيس الصغير، فهي المسؤولة عن رعايته وتنظيفه ومضاحكته، وعلىٰ الخروج به إلىٰ البريَّة، إذا شاءتْ أمه رمسة، حيث الظل والنسيم العليل بين أشجار العوسج.

ظل المهلَّب يتحسس أخبار قيس وذريح، حتىٰ علم أن تَيماء هي مَن تقوم علىٰ خدمته، وهي مَن تأخذه تحت شجيرات العوسج، تلاعبه كل يوم، فظل مدة يرقب تَيماء، حتىٰ أحكم أمره، ودبّر شأنه، وحدد لنفسه يومًا ينهي فيه كل ذلك الصراع النفسي الذي بداخله، إنه يريد فقط أن يطفئ تلك النار المتقدة في نفسه، ثم بعد ذلك يرث الشيخ، وقد هداه تفكيره المريض، أن يقتل قيسًا في الخفاء، ففي ظنه أنه هو سبب كل ذلك الصراع الذىٰ تأجج في نفسه، وهو مَن سيحجب عنه مال ذريح، وكأنه ضمن أن يطول عمره بعد ذريح، فسهمٌ غَرِب، غير معروف مصدره، في تلك البادية الفسيحة، يخلصه من كل تلك الصراعات، ولا أحد يكتشف أمره، ولا حتىٰ يظن فيه، كيف! وهو ابن عم ذريح؟



وذات يوم يختبئ المهلَّب بين أشجار العوسج، وقلبه مرجل يغلي، من كثرة ما فيه من حقد وحسد وغلّ، وقد سمم رمحه، وحدد هدفه تمامًا، لكنه يتردد كثيرًا قبل إطلاق السهم علىٰ هذا الطفل البريء، فالسهم لا شك سيمزق أحشاءه تمزيقًا، يدور صراع نفسي قاتل داخله، بين أن يطلق سهمه أو لا يطلقه، يظل ممسكًا بالرمح والقوس، يشد الوتر، ثم يرخيه، يفعل ذلك مرارًا وتكرارًا، وتَيماء تعبث مع قيس، وتلاعبه، ولا تكاد تشعر بوجود أحدٍ غيره، يتردد المهلَّب، فيرجع إلىٰ الخلف خطوات، يريد أن يولي مدبرًا، ولا يعقب، لكن يدفعه الشيطان، ونفسه الأمَّارة بالسوء دفعًا؛ لينجز أمره، فيعود أدراجه، ويعزم، ثم يتردد، محاورًا نفسه:

- ستصبح قاتلا من أجل المال، وإن قتلت فمَن أدراك أن هذا الخير سيؤول إليك أو إلىٰ أبنائك.
- ما ذنب هذا الطفل البريء؟
- ما ذنب رسمة أمه؟
- ألم يسعك ذريح بكرمه وجوده؟
- ألم يهب لابنكَ في زواجه عشرين شاة مُنتِجة؟

يوسوسُ له الشيطان، ونفسه الأمَّارة بالسوء والشر، ويدفعانه دفعًا قويًا نحو الشر:

- "ارم سهمك يا رجل، ارمه لترث كل هذا الخير، اقتله، وتب إلىٰ الله بعد ذلك، فالله يغفر الذنوب، حتىٰ وإن لم تستفد أنت بهذا المال، فسيؤول إلىٰ بنيك من بعدك"، يردد في نفسه:



- لا، لا أقوىٰ علىٰ فعل ذلك
- "ارم يا رجل، إنما هي شدةٌ وتر".

وسط هذا التردد، وفقدان التركيز، ينطلق السهمُ المسموم نحو قيس- قيس ذلك الطفل الصغير البريء- حتىٰ لا تكاد عينٌ تراه، حاملا من الحقد والغل والحسد، أكثر من حَمْلهِ الموت.

ما إن انطلق السهم من يد المهلَّب، حتىٰ فر مدبرًا، لا يلوي علىٰ شيء، ولا يدري أين تحمله قدماه، حتىٰ إنه لم يتأكد من قتل قيس، وكأن السهم انطلق من غير إرادته، وتحت شجرة من أشجار البوادي جلس يتصبَّب عرقًا، وترتعش يداه، ولا يقوىٰ علىٰ الحراك، فتمدد علىٰ الأرض يسحب أنفاسه من صدره سحبًا.

يمر الوقت، فتستبطئ رمسة تَيماء، فليس من عادتها أن تتأخر بقيس مثل ذلك، فهي تدري حرص أمه عليه، وأنها لا تأمن عليه أحدًا سواها، فتخاطب ذريحًا:

- يا ذريح إنني استبطأت تَيماء؟
- نعم يا رمسة، وأنا كذلك، فلم نعهد منها ذلك.
- إن قلبي لا يطيق صبرًا يا رجل، اذهب إلىٰ تَيماء عند شجيرات العوسج، واستطلع أمرهما.
- نعم، الآن يا رمسة.

ينطلق الشيخ بصحبة أحد خدمه إلىٰ شجيرات العوسج، والقلق يوشك أن يفتك به، وقلبه من شدة اضطرابه واختلاجه يوشك أن يقفز





خارجًا، ثم يزداد قلقه واضطرابه، عندما يقترب من شجيرات العوسج، وينادي علىٰ تَيماء، التي لم تجبه، فينادي أكثر، وبصوت مرتفع، لم تجبه أيضًا، يستبدّ به القلق، ويكاد يفتك به، يبحث عنهما بين الشجيرات كالمجنون، ويدفع أغصان الشجر بسيفه، ثم فجأة يرتجف من هول ما يرىٰ، ويذهل ذهولا شديدًا، وقد تجمد جسده للحظة...

يفيق الشيخ بعد برهة من الوقت، فيرىٰ تَيماء، وقد تمددت علىٰ الأرض، واستقر سهمٌ غرِب في قلبها فانفثأ، وقد سالت الدماء البريئة علىٰ أوراق الشجر، حتىٰ أوشكت أن تملأ المكان من حولها، وقد امتدت يدها ممسكة بقدم قيس، الذىٰ يبدو ساكنًا لا يتحرك.

يتبلّد الشيخ، ولا تقوىٰ قدماه علىٰ حمل جسده، ثم يسقط جسده كجملٍ هرم، يعينه العبد علىٰ أن يستعيد وعيه، ينتبه، ثم يقترب منهما، يتلّمس قيسًا، فيرىٰ فيه نبضًا منتظمًا، إنه نائم...يحمله، وتَيماء ميتة، يبدو من المنظر أن قيسًا كان يحبو، وقت وجود السهم في قلب تَيماء، فخافتْ عليه، وأمسكتْ بقدمه، وهي تحتضر، قمة الإخلاص من جارية لا تربطها به صلة رحم، ويبدو أيضًا أن قيسًا بكىٰ كثيرًا، حتىٰ أرهقه الجوع والتعب، فنام.

يحمل الشيخ قيسًا علىٰ كتفه، تاركًا جسد تَيماء في حراسة العبد، بعد أن غطَّاه، وزرف عليه دمعًا غزيرًا حارًا، ثم يذهب به إلىٰ رسمة أمه المتلهفة عليه، فيجدها علىٰ باب الدار قلقة، متوترة، لا يخبرها بشيء





البتّة، حتىٰ هي اختطفت منه قيسًا، وضمته إلىٰ صدرها باكية، دون أن تسأله عن شيء، فقد أنساها ابنها كل شيء.

يجمع ذريح العبيد والخدم، ويذهبون جميعًا حيث جسد تَيماء الملقىٰ تحت أشجار العوسج، ينزع السهم من قلب تَيماء، فتفوح منه رائحة السم الممزوجة بالحقد، يلقيه بعيدًا، ثم ينظف الجسد، ويكفنه، ويصلىٰ عليه، ثم يواريه التراب.

يرجع الشيخ بيته مهمومًا مغمومًا، لا يجد تفسيرًا لما حدث، فهو لا يحمل عداءً لأحد، وكرمه وعطاؤه يسع كل أهله، فيسأل نفسه متعجبًا: هل هو سهم غرِبٌ من شخصٍ كان يطارد صيدًا، فطاش سهمه؟ أم هل هو سهمٌ مقصود؟ وإن كان كذلك، فالقاتل أراد مَن: قيسًا أم تَيماء؟ ولماذا أراد أي منهما؟ وكلاهما لا حيلة له، أم أن القاتل قصد أن يقتلني أنا بقتل قيس؟ ولماذا أيضًا؟ يقاوم الشيخ كل ذلك، ويرجِّح أنه سهمٌ طاش، من مُطارد فاشل، لا يحسن الرمي بالنبال.

تسأل رمسة الشيخ بعد عودته عن تَيماء، يتردد في إجابتها، تلحظ رمسة ما يعتلي الشيخ من همٍ وغمٍ، تلح في السؤال، بعد لأيٍ يخبرها، لا تقوىٰ علىٰ سماع ذلك، وتقع مغشيًا عليها.

يتأخر المهلَّبُ عن بنيه الذين يفتقدوه، فيخرج كبيرهم للبحث عنه، وبعد جهدٍ جهيد، يجده تحت إحدىٰ شُجيرات البادية، وقد غلبه النوم، فيوقظه الابن، ويلحظ الإرهاق والاضطراب علىٰ وجه أبيه وجسده، فيطمئن عليه، ويسأله:





- هل أنت بخير ابتاه؟

- أي خير يا بُني؟ وقد أهلكني الشيطان لأجلكم.

- ماذا تقصد؟

- لا شيء، لا شيء، فقط خذني إلىٰ الدار.

يظل المهلَّب محبوسًا في داره، منطويًا علىٰ نفسه، لا يكلم أحدًا، ولا يسمح لأحدٍ أن يكلمه، وقد كتم في نفسه ما حدث، حتىٰ عن زوجه، وقد أوشكت الصراعات النفسية أن تفتك به، صراعاتٌ تمتزج بالندم والحقد والحسد وجلد الذات، و...، والخبر ينتشر رويدًا رويدًا في بادية الحجاز، وتكثر التكهنات والتساؤلات، لكن لا أحد يصل إلىٰ الحقيقة، شخصٌ ما من الممكن أن يمسك بخيط الحقيقة، إنه صديقه النّضر، فقد استطاع أن يربط بين الأحداث وبعضها، ويسترجع ما دار من حوار مع المهلَّب يوم العقيقة، فيزور النّضرُ صديقه مهلَّبًا في بيته، فيأبىٰ أن يقابل المهلَّبُ أحدًا، يقتحم عليه النّضر خلوته، ويبتدره بسؤال مفاجئ:

- أكنت تريد أن تقتل قيسًا يا مهلَّب؟ يرتبك المهلَّب، ويضطرب اضطرابًا واضحًا، بما ينبئ عما ارتكب من جرم في حق نفسه، وفي حق ابن عمه الشيخ الكريم، فيتمالك نفسه، ثم يسأل متعجبًا:

- عمّ تتحدث يا نضر؟ فأنا لا أدري معنىٰ ما تقول؟

- بل تدري يا مهلَّب تمامًا، فأنا أعَرف الناس بك، وبسخائم قلبك، لكن ما لا تدريه أن سهمك اللعين قد أخطأ، فأصاب





تَيماء الجارية في قلبها، فانفثأ، ولم يُصب قيسًا، أتدري أي جرمٍ ارتكبت؟

يمتقع وجهُ المهلَّب، ويضطرب جسده اضطرابًا ملحوظًا، تنقطع معه أنفاسه، حتىٰ لا يكاد يسحبها من صدره، فيلحظ النّضر ذلك جيدًا، ويفطن إلىٰ تلك التغيرات المفاجئة التي ظهرت علىٰ صديقه المهلَّب، حينما علم بعدم مقتل قيس، ويتأكد تمامًا من أن صديقه هو مَن فعل، فيقول له مؤنبًا:

- أنت مَن فعل إذن؟

- عمَّ تتحدث يا صديق الشؤم؟ كيف لك أن تتهمني بجرمٍ لم أرتكبه؟ كيف تجعلني قاتلا قبحك الله من صديقٍ لعين؟ ثم راح يوسع صديقه سبًّا عنيفًا، وقد هاج هياج فحلٍ فُك عقاله، فيصيح:

- اخرج من داري يا غُراب البين، اخرج يا صديق الشؤم، ألا لعنة الله عليكم جميعًا...

يجتمع بنوه فزعين، ويمسك الابن الأكبر بتلابيب النّضر، يريد أن يفتك به، لكن باقي الأخوة يفكّون يده من تلابيب النّضر، ويدركون ما بينه وبين أبيهم من ودٍ قديم، يوجب عليهم تقديره، ويدركون أيضًا أن أباهم قد أصابه شيءٌ ما في عقله، فيسأله أحدهم:

- ماذا حدث يا عمَّاه؟ فأنت أقرب الناس إلىٰ أبينا، ويهمك أمره.



يتردد النّضر في الإجابة، ويود لو أخبرهم، حتىٰ يعينوا أباهم علىٰ أن يطهر نفسه، لكنه يؤثر السلامة، ولا يريد أن يزجّ بنفسه في أمر لا ناقة له فيه ولا جمل، وقد يجرّ عليه، وعلىٰ الجميع عواقب وخيمة، فيتململ، ثم يجيب في هدوء:

- لا شيء يا بُني، لا شيء، إنما هو أمر بيني وبين أبيكم، تنازعناه سويًا، وقُضي شأنه، دعني أخرج في سلام، وسأعاود زيارة أبيكم بعد حين، وارفقوا بأبيكم، فإنه شيخ كبير.

يستحي الأبناء، ويهدأ روعهم، ويأذنون للنّضر في أن يخرج من دارهم في أمنٍ وسلام، لكنهم يدركون أن خطبًا جللا قد حدث مع أبيهم، وأن صديقه النّضر علىٰ علمٍ به.

ضاقتْ الدنيا بأسرها علىٰ المهلَّب، وصراعاته النفسيَّة القاتلة تزداد يومًا بعد يومٍ، فهو من ناحية يخشىٰ افتضاح أمره بين قومه، ومن ناحية أخرىٰ يخشىٰ أن يقتله الوالي بدم تَيماء إن ثبت أنه مَن فعل، وفوق كل ذلك تراوده نفسه الخبيثة بقتل صديقه النّضر، فهو الوحيد الذىٰ قد يصل إلىٰ حقيقة ما حدث، فتزداد الصراعات داخل نفسه، حتىٰ يوشك أن يُصاب بلوثةٍ في عقله.

لم يطل بقاء المهلَّب في داره كثيرًا، فقد ازدحمتْ عليه الأفكار، واختلطت الهواجس في قلبه وعقله، فخرج هائمًا علىٰ وجهه في الفيافي دون أن يُعلم أحدًا، فاختفىٰ، وطال اختفاؤه، ولا أحد يعرف عنه شيئًا، واجتهد بنوه في السؤال عنه، والبحث عن أي أثر له، لكن لا فائدة، والغريب أن أحدًا لم يهتم بأمره كثيرًا سوىٰ بنيه، فلم يكن محبوبًا من



كل أحياء العرب...انتهىٰ أمر المهلَّب إلىٰ الأبد، وانتهتْ معه جريمته، وقُتلتْ تَيماء، بغير ذنبٍ اقترفتْ، ومات معها السرُّ، فقط مَن أدرك سرَّ كل تلك الأحداث هو النّضر، الذىٰ كتمه إلىٰ الأبد؛ وما فعل ذلك إلا اتقاء فتنةٍ قد تلمّ بحيٍ كامل من أحياء العرب.

كان لتلك الأحداث أثرها في نشأة قيس، فقد دخل من بعدها في حضن أمه رمسة، ولم يخرج منه، حتىٰ شبَّ عن الطوق، فقد كانت تخشىٰ عليه من كل شيء، ولا تكاد تثق في أحد يقوم علىٰ رعايته أبدًا، وكلما تذكرت ذلك السهم الذىٰ اخترق قلب تَيماء، انقبض قلبها، ودار في خلدها أن هذا السهم الغرِب كان من الممكن أن ينغرس في قلب قيس، وأنها بدونه الآن، خاصة وأنها لم تنجب غيره، فيزداد تشبّثها بابنها، وتضنَّ به عن كل الخلق إلا عن نفسها، وقد حرصت علىٰ أن ينشأ منعمًا مدللا، ولولا الشيخ ذريح وتداركه الأمر، ما خرج قيس من حضن رمسة إلىٰ الأبد، وما كانت ستراه إلا طفلا صغيرًا...

❊❊❊❊



(٢)

الفتى اليَافِع

كرَّت الأيامُ والسنون، وشبّ قيسٌ عن الطوق، شبَّ فتىً جميلا قسيمًا، تبدو عليه أثر النعمة والترف، فقد نشأ نشأةً حضريةً خالصةً، بعيدًا عن نشأة أهل البادية، وما فيها من شظف العيش وخشونته، وعاش حياةً رغدةً سهلةً لينةً، كفاه فيها الشيخ ذريح قسوة العيش، ومؤنة الحياة، وأفاض عليه المال فيضًا، وجعله تحت قدميه، فعاش ناعمًا مدللا، مفرطًا في كل أمره، ولم يُحرم من شيء، ولم ير في الحياة إلا وجهها الغضّ المشرق، كل ذلك جعله يُقبل علىٰ الحياة يعبّ منها عبًا، ويتمتع بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ فيها، وكان لكل هذا أثره...

كان قيسٌ يرتدي أفخم الثياب، وأجملها، حتىٰ إذا رأيته بثيابه الجميلة، وقد فاحتْ من أردانه روائحُ المسك والعنبر، لا تحسبه إلا فتاة في ليلة العرس، حتىٰ صار حديث رجال أهل البادية وفتيانها، وانقسم الناس إزاءه، ما بين مغتبطٍ بما فيه قيس، ويود لو يحيا حياته، وبين ساخرٍ من هذا الفتىٰ المدلل، الذىٰ كفاه أبوه مؤنة الحياة وكدِّها، وبين حاسدٍ وحاقدٍ علىٰ الحياة التي يحياها، ويود لو أن الله حرمه منها.

كانتْ رمسة تحرص علىٰ رضا الابن المدلل، أكثر من رضا الأب الشيخ، وما كان ذلك يغضب الشيخ أبدا، فهو وحيدهما وأرادا





له حياة لينة بعيدة عن الكدّ والشظف، والنحت في جلاميد الصخر، كما كان يفعل أقرانه، وكان العبدان والجواري يحيطون بقيس، وكلهم طوع أمره، ورهن إشارته، وإذا حدث خلاف ذلك - بغير قصد منهم- نهرتهم رمسة بشدة وغلظة.

أما الشيخُ ذريح فقد تأمل حالَ قيس ابنه، وكان الشيخ قد كبر سنه، وضعفت قوته، وتأمل حال رمسة زوجه أيضًا، وقد أفاضت علىٰ ابنها من ترف الحياة، حتىٰ نشأ مدللا، فأدرك أبوه خطر كل ذلك، وخطر ما فيه ابنه، فكان لزامًا عليه أن يختطفه من حضن أمه بقوة، فالفتىٰ لم يعد صغيرًا، وصار يخطو أولىٰ خطواته في طور الشباب، وأمثاله من الفتيان، يكدّون طوال يومهم؛ ليكفوا أنفسهم مؤنة العيش، وشظف الحياة في البادية، فكان لزامًا علىٰ الشيخ أن يغرس قدرًا من الخشونة والأنفة والعزة والكبرياء في نفس قيس، وهي صفات من طبع أهل البادية، وقد فُطر قيس عليها شأنه شأن معظم أهل البادية، فقط هي مخبوءة في نفسه، وبحاجة إلىٰ أن تظهر علىٰ ملامحه وسلوكه، حتىٰ يصير فتىٰ يافعًا قويًا مُهابًا.

وقد دفعه إلىٰ ذلك أيضًا ما كان يهمس به أهل البادية، في أنديتهم وسمرهم من السخرية من قيس، وأنه مدللٌ كالفتيات الأوانس في خدورهن، ولا يجيد شيئًا مما يجيده فتيان البوادي، من وثبٍ علىٰ الخيل، أو ركضٍ بها، أو طعنٍ برمح، أو ضربٍ بسيف، ولا حتىٰ يستطيع أن يصيد أرنبًا من أرانب الصحاري.



كل ذلك كان يؤذي نفس الشيخ، ويجعله يفكر في الأمر، ولا يعيبه علىٰ أهل البادية، فهم صادقون في قولهم وسخريتهم، وهو في داخله يريد لابنه كل ذلك، يريده فارسًا مغوارًا، إذا جدَّ الجدّ، ويريده رجلا يثمِّر مال أبيه بعد وفاته، ويريده ذا وجاهةٍ وفخامة، يحل محل أبيه الشيخ، في أندية قومه وأسمارهم.

فعزم الشيخ ذريح علىٰ أن يجعل من قيس رجلا وفارسًا، فأخذه إلىٰ أطراف البادية، يعلمه الفروسة، فليس بعد الفروسية من شيء، فهي وحدها التي تخرج كل تلك المكنونات التي جُبل عليها قيس، كما علَّمه الصيد، وهي سمة شائعة لدىٰ أهل البادية، وكان يمارسها سادة القوم، حيث يجدون في الصيد وسيلةً للهو، وطريقًا إلىٰ المتعة، وحب الغلبة والظفر والابتهاج، وقد جاءت علىٰ هوىٰ قيس، حتىٰ صار الصيد متعته الأولىٰ، وصار مُطارِدًا لا يسبقه أحد من فتية البادية، ولا يكاد يغلبه حيوان من حيوانات البوادي، التي يصطادها الناس آنذاك.

ثم علَّمه ذريح التريض بالخيل، ومشاركة الفرسان في ممارسة الرياضة، في حلبات السباق، أو في القفار؛ وذلك كله فيه إفادة لجسمه من ناحية، وإكساب فرسه القوة والمرونة من ناحية أخرىٰ، هذا إلىٰ جانب منافعها للنفس والذهن، واجتهد حتىٰ علمه الطعن بالرمح، والضرب بالسيف، وصد كل ذلك واتقائه، ثم القفز بالخيل، وغير ذلك من تلك الفنون التي كان يتقنها أهل البادية، وقد أخلص ذريح في ذلك وجدَّ، وأتىٰ بالمعلمين والمدربين، وأجزل لهم العطاء، بل صبَّ



عليهم المال صبًّا، وأبدىٰ قيسٌ من جانبه رغبةً في تعلم كل شيء واتقانه.

لم تمر سوىٰ أشهر قليلة علىٰ قيس، حتىٰ أخرج كل ما في نفسه وجسده من قوة وشجاعة وفروسية، وبرع في تعلم كل شيء، دفعه إليه أبوه، حتىٰ صار معروفًا بين الفتية، الذين كانوا يسخرون منه ذات يوم، والأهم من ذلك أن الفتىٰ تحرر من حضن أمه، ومن قبضة العبدان الجواري، التي كانتْ تفرضها رمسةٌ عليه، وصار حرًا طليقًا.

صار قيس فتىٰ معلمًا، يجيد ما يجيده فرسان البادية، بل وسبقهم في بعض الفنون كالصيد، فقد كان الصيد محببا إلىٰ نفسه، وبرع فيه براعة مطلقة، يخرج إلىٰ البادية مبكرًا، ويقضي فيه يومه، من باب التسلية، واللهو والمرح، شأنه شأن أبناء السادة الأغنياء المترفين، وقد كان كل ذلك سببًا في ولادة شيئين في نفس قيس:

ولادة شاعرٍ رقيقٍ عذب، وعاشقٍ ولهان، وهاتان ما عُرف بهما قيس في حياته، بل وبعد مماته، وكانتا سببا شهرته، وسببا مكابدته في الحياة بعد ذلك أيضًا، خاصة بعدما أصابه داءُ العشق، الذي صار مرضه العضال، الذي لا شفاء له، ولعلَّ هذه هي البداية الحقيقية للرواية.

❋❋❋❋





(٣)

الفتى الشَّاعر

كان يومًا مطيرًا رائعًا من أيام فصل الربيع، سرعان ما انجلتْ فيه السحبُ، لتبدي صفحةً للسماء زرقاء صافية، وقد صفتْ الأجواء، ورقَّت النسائم، وغمرتْ الشمس بأشعتها الذهبية رمال البادية الصفراء، وأنبتت الأمطارُ أعوادَ الحزامي والقيصوم، فصار الوادي صفحةً خضراء مُعشِبةً بالحشائش الصغيرة، والنباتات الزاهية البراقة، التي نبتت وسطها زهراتٌ زرقاواتٌ وصفراواتٌ، فاقعاتُ اللون، جميلاتُ الشكل، وتناثرت الأقاحِي في كل مكان، وصنعتْ الأمطارُ الغزيرةُ جداول مياهٍ صغيرة، يترقرق ماؤها، وتتلوىٰ هي يمنة ويسرة، وتنساب كالأفاعي بين التِّلاع، حتىٰ صار المكان كله روضة من الرياض التي تأخذ بالأنفس والألباب، وظل النسيم يداعب تلك الزهرات الجميلات، فيتمايلن في خَفرٍ شديدٍ، ويبتسمن في حياءٍ أشد، والهواء نقي، ينعش الصدر، ويرسم بسمةً علىٰ شفة من يستنشقه، ويمحو أي عبوس في أي وجهٍ كالح، هكذا بدتْ البيداء التي يرتادها فتية الحجاز، بين لاهٍ، وعابثٍ، وقانص صيد.

وقد لاح قيس بن ذريح من بعيد في هذا الأفق الجميل، يمتطي جواده، ويتهادىٰ به يمنة ويسرة بقوامه النحيل، وعينيه اللامعتين، يتألق في وجهه ماءُ الشباب ورونقه، وكان أنفه به شممٌ، يعكس عزةً وكبرياء،



وقد علا فمًا صغيرًا رقيقًا، يشبه فم العذراوات، ونبتتْ شعيراتٌ خفيفاتٌ علىٰ صفحة خدِّه، تداعبهنّ ذؤابتان طويلتان سوداويتان، ظهرت من تحت عمامته الأنيقة، يدفعهما النسيم في كل اتجاه، وكانت نفسه صافية، وقلبه لا زال غضًا طريًا، وقد زاد من صفاء نفسه، وغضاضة قلبه نشأته التي نشأ عليها، فبالرغم من تحرره من حضن أمه، وانطلاقه بحرية مثل فتيان البادية، بيد أنها أورثته رقة القلب، وحب الجمال والطبيعة، وصفاء النفس، وحب التمتع بكل شيء جميل حوله، ومن هنا نبت العشق في قلبه سريعًا.

اعتاد قيسٌ دائمًا الخروج إلىٰ البادية عقب انجلاء الغيوم، وهطول المطر، وتكوَّن الروضات الخضراوات، فيتمتع بكل ذلك، ويشبع غريزة حبه للجمال، فيمكث يومه في اللهو والعبث علىٰ ظهر حصانه، يطارد الغزلان وحيوانات البراري، يصطاد هذه، ويركض خلف تلك، حتىٰ إذا قرصه الجوع، أكل شواءً من صيده، وفي أحايين كثيرة يدعو أصدقاءه ليقضوا جميعًا يومًا جميلا، مثل هذا اليوم.

اليوم قيس بمفرده، ولم ينزل عن صهوة جواده بعد، يجول بين الأزاهير المختلفة، منتشيًا، سعيدًا، تداعب أنفه روائحُ الزهور، ومازال كذلك حتىٰ عنَّت له من بعيدٍ مها جميلة، فتراوده نفسه علىٰ اللحوق بها، فيركض خلفها حتىٰ تجهده، فيوشك أن ييأس من اللحوق بها، لكن أنفته تمنعه من الوقوف، فيعزم علىٰ اصطيادها، فتُخرِج تلك المها كل ما تعلمه قيسٌ من فروسية، فقد أثارتْ حفيظته وهيجته، حتىٰ كأنه فارس وسط المعامع، ولا زال يراودها حتىٰ أوقع بها، بعد أن



تصبَّبَ حصانه عرقًا، فيستريح فوقها قليلا، ثم يتأملها، فإذا هي مكتنزة اللحم، والشحم، تستحق ذلك الجهد الذىٰ بذله، ثم ينادي خادمه الذي يتبعه:

- يا جرول.

- لبيك سيدي.

- خذ تلك المهاة، وجهِّز لنا من أطايبها طعامًا، والتمس أحدًا يشاركنا الطعام، فاللحم وفير.

يجرّ جرول المهاة نحو الموقد، وينشغل في تجهيز الطعام لسيده، وهو لا يكف عن ترديد أبيات من الشعر، فقد كان جرول ذواقة للشعر، ويفهم جيده من رديئة، ويحفظ كما لو كان آلة، فقد كان صغيرًا يتبع سيده ذريح إلىٰ أندية القوم، ومجالس سمرهم، ويسمع شعراءهم يلقون القصائد، أو الفتيان يرددون شعر شعراء العرب، حتىٰ صار ذا باع كبير في فهم الشعر ونقده وحفظه.

أما قيس فينزل من علىٰ صهوة الجواد، ويتكئ علىٰ ذراعيه بين الخزامىٰ، ويبدأ في ممارسة طقسه المعتاد، يفعل كما يفعل جرول، يردد أبياتًا لشعراء قدامىٰ، تغنوا بالطبيعة حولهم، وجمالها الفاتن، لكن قيسًا مجبول علىٰ قول الشعر، غير جرول، الذىٰ يجيد الحفظ فقط، فيغلبه النظم، وفي كل مرة يحاول قيس عبثًا أن ينظم أبياتا من الشعر، لكن تأبىٰ عليه مَلَكَتُه، فإذا أنشد شعرًا لشاعر غيره، تجود عليه قريحته، فيسيل لسانه انسيالا بأبيات الشعر العذبة الرقيقة.





أما اليوم فهو يحاول جاهدًا أن يكمل أشطار الأبيات، وينزع منها القوافي، ويأتي بغيرها، يدرب نفسه علىٰ ذلك كثيرًا، فتستقيم له الأشطر الجديدة، والقافية المُسْتبدَلة بغيرها، فيعجبه حاله، وقدرته علىٰ ذلك، فيكثر من استبدال القوافي...يفلح في نظم أبيات قليلات، مستقيمات الوزن، مضبوطات القوافي، ينظم أخرىٰ، وأخرىٰ، ينجح، فهو مجبول علىٰ نظم الشعر...

اليوم وُلد شاعر عذب رقيق، سيبلغ شعره الآفاق، وسيتغنىٰ به الركبان...ينادي قيس خادمه فرحًا:

- يا جرول.
- لبيك سيدي.
- دع ما في يدك، وأقبل عليّ.
- طاعةً يا سيدي.
- ما رأيك في ما ستسمع من نظم؟

ينظم له قيس أبياتًا من شعره، في وصف الجمال والطبيعة حوله، وقد أجاد فيهن.

- شعر مَن هذا يا سيدي؟ كأنه مولود للتوّ.
- يا لك من فطن، يا جرول.
- إن لي مع الشعر باعًا طويلا يا سيدي، أفهم غثَّه من سمينه، وجيده من رديئة، وقلبي يحدثني أن هذه الأبيات لسيدي، فهن رقيقاتٌ مثله، ولكم كنت أستمع إليك، وأنت تقطّع الأشطر، وتستبدل القوافي، فيتأتّىٰ لك ذلك في سهولة ويسر، بما ينبئ بأنك



شاعر مفطور علىٰ نظم الشعر، وكنت علىٰ يقين أن الأيامَ المقبلات سينجلين عن شاعر عذبٍ رقيق، وها قد انجلين، وصدق حدسي.

– لله درك يا جرول، إنك خادم فطن.

– إنما يخلص العبد لسيده، بحسن معاملته له، وما رأينا منك غلظة يا سيدي، ولا سوء معاملة.

– ما رأيك فيما سمعت؟ قل الحق يا جرول؟

– اليوم تشهد بادية الحجاز ولادة شاعر، وما في ذلك شك، لكن خذ نفسك بالدربة يا سيدي، وسيتأتّىٰ لك اللفظ طيعًا، والمعنىٰ سهلا.

– هو كذلك يا جرول.

يأخذ قيسٌ نفْسه بالدربة، ويظل ينظم أبياتًا وأشطرًا، حتىٰ يسهل له الأمر، ثم يقرصه لجوع، فينادي جرولا:

– أأعددت لنا الطعام؟

– نعم يا سيدي، وسأبحث عمن يشاركنا طعامنا...

يتناول الجميع طعامهم، ويخلو قيس إلىٰ نفسه الرقيقة، يردد أبياتا من الشعر الرقيق؛ ليشبع غريزته نحو حب الجمال، والبحث عن كل ما هو جميل، من نظمه، ومن نظم غيره، فقد صار الشعر منذ تلك اللحظة لا يستعصي عليه.

وقد بدأتْ الشمس تميل إلىٰ الغروب، واصطبغ الأفق باللون الأحمر القرمزي، ولم يبق من أشعة الشمس إلا خيوطًا باهتة ضعيفة،



تنسحب رويدًا رويدًا من بين الأقاحي، وأعواد الخزامىٰ، وهبّ نسيمُ الليل باردًا منعشًا، يحمل روائح زهور البراري، يداعب الأنوف، ويقتحم الصدور، ويراقص الجداول المنسابة بين التلاع...

أما قيس فقد جلس حالمًا متأملا، مدغدغ المشاعر والأحاسيس، وقد امتلأت نفسه بحب الجمال، الذىٰ تتوق إليه دائمًا، وكأنه فيلسوف من فلاسفة الجمال في عصرنا الحديث...

ينتشر الخبرُ في البادية، أن قيس بن ذريح أصبح شاعرًا، وتدور أبياته في الأندية، فلا ينكرها أحد، ويأتيه الفتية العابثون واللاهون، يستمعون إليه، إنه حلو المنطق، رقيق النظم، يفخر به ذريح، ويتطاول فوق تطاوله...

❋❋❋❋





(٤)

الفتى العاشِق

تنتشر مضاربُ الخيام حيث يوجد الكلأ، وتكثر المراعي حيث الأرض المُعْشبة، وجداول المياه، وإذا نظرت إلىٰ بادية الحجاز من علٍ هالك المنظر الخلاب، شجيرات باسقات، جداول مياه رقراقه، أعوادٍ زهور فواحة، مراعٍ معشبة، ترعىٰ فيها الأبل والشياه والخيل، يحوطها الخدم والعبدانٍ، يتخلل كل ذلك تلاع وأودية وهضاب صغيرة، ومساحات شاسعة من الرمال الصفراء البرّاقة.

وعلىٰ أطراف البادية، أو في ناحية من نواحيها، تجد مضارب الخيام متناثرة، بينها طرق صعبة متعرجة، تصل بعض الخيام ببعض، وقد انتشر العبيد والجواري حول الخيام، هذه تحمل ماءً، وهذه تحلب شاةً، وهذه تشعل نارًا، وهذه تعلف فرسًا، وهذا يروّح عن سيده، وهذا يتبع سيده حيثما حلّ، وتجد كبار المشائخ حول مضارب الخيام، أو أمامها، وقد قل نشاطهم، وفترت عزيمتهم، فلم يعد لديهم طاقة لبذلها في شيء ذي قيمة...حتىٰ إذا جنَّ الليل آب كلٌ إلىٰ خيمته، وعاد الرعاة بإبلهم وشياههم، وذهب بعض الفتية، والرجال إلىٰ أنديتهم يتسامرون فيها، ويلقون القصائد وطُرَف الأدب، بين شُعَل النيران، التي يحرص العبدان علىٰ بقائها متوهجة...





ومن بين هذه الخيام، جثتْ خيامُ بني حذافة الكنانيين، وكان أوسطهم خيمة ذريح بن سنة، وقد كثر حولها العبدان، واضطربتْ أمامها الحركة بين رائحٍ وغاد، فقد كان سيدها موسرًا.

وعلىٰ مسافةٍ بعيدةٍ من خيام بني حذافة، توجد خيام بني كعب بن خزامة، وكان من بينهم خيمة الحباب بن كعب، رجل سخي كريم، ذو حسب ونسب، وعلىٰ الرغم من بعد المسافة بينهما، بيد أن البادية بخيامها ومراعيها وتلاعها وأوديتها تجمعهم.

امتطىٰ قيس ظهر جواده باكرًا، موليًا وجهه نحو البادية كعادته، إلا أن هذه المرة كان بمفرده، فقد أبىٰ علىٰ خادمه جرول أن يصطحبه، فهو لا يدري إلىٰ أين سيذهب، فكثرة مال أبيه، وهو وحيده ووريثه كفتاه مؤنة كل شيء، فهو فقط يشغل فراغه؛ لذا سار علىٰ غير هدىٰ، بين التلال والأودية ومنابع المياه، ينشد الأشعار والقصائد، له ولغيره من كبار الشعراء، يركض بحصانه مرة، ويبطئ مرة، يعارض غزالا، أو يفزع أرنبًا، وغير ذلك مما يلهي ذوي الثروات من الموسرين.

لم يكن مع قيسٍ قِرْبة ماءٍ، ولا جراب زاد، فلم يكن في نيته الذهاب بعيدًا، أو المكوث خارج الدار طويلا، لكن الوقت طال به، حتىٰ أوشكت الشمسُ أن تتوسَّط السماء، والجو حرارته ارتفعت، فاشتد به العطش، وهو وفرسه قد بذلا جهدًا في اللهو والعبث غير يسير، فعزم علىٰ العودة إلىٰ داره، لكن الظمأ استبدّ به، وما زال يستبدّ به ويستبدّ، فلم يجد بُدًا من لَيّ عنان فرسه نحو أقرب مضارب خيام منه، يركض بحصانه نحوها، وبعد لأيٍ شديد، يصل مجهدًا إلىٰ خيام



بني كعب بن خزامة، وعند خيمة الحباب بن كعب، وكانت أقربهن إليه يقف بحصانه، وكان القوم خلوف، أي في أعمالهم ومشاغلهم، وقد تركوا خلفهم النسوة الجواري، يصيح قيس علىٰ مَن في الدار:

- السلام علىٰ مَن في الدار.

صوتٌ رخيٌ نديٌ:

- وعليكم السلام أخا العرب...القوم خلوفٌ، فهل من حاجة تقضيها حرَّةٌ من حرائر بني كعب؟

- نعم يا ابنة الأسياد، أنا قيس بن ذريح من بني حذافة الكناني، قصدتكم استسقي ماءً، فقد استبدَّ بي الظمأُ في جوف البادية، فعذتُ بالكرام، أبناء الكرام.

- عذت بكرامٍ يا أخا العرب، والكريمُ مَن يقصد الكِرام، سُقيت ورب الكعبة ماءً غدقا.

ثم خرجتْ إليه علىٰ استحياء فتاةٌ مديدةُ القامة، بضَّة الجسم، حلوة الملامح، عذبة المنطق، ملء كسائها، وقد برزتْ نهودها بروزًا أوشك أن يمزق الرداء، وبيدها قِرْبة مليئة بماء عذب قراح، تقدمها له بصوت عذبٍ رخيٍ جميل.

- تفضل يا أخا العرب.

يشد هذا الصوت الرخيّ قيسًا، وهو الحالم الشاعر الرقيق، عاشق الجمال، فيختلس إليها نظرة، فَبُهتْ، وكأن سهمًا انغرس في كبده، فقد وقعتْ في قلبه موقع النَّدىٰ، يأخذ قِربة الماء من يدها، يتبلّد للحظة، ونظره معلق بالفتاة، وهو لا يشعر بما يفعل، ثم ينتبه إلىٰ





نفسه، عندما تعيد عليه العبارة، بصوت خفيض مرتعش من فرط ما أصابها من حياء، ولولا أن يقول العرب عنهم بخلاء ما خرجت إليه، يدرك قيس حياءها، فيروي ظمأه بماء لم يذق أطعم منه طوال عمره.

كان الفتىٰ قلبه غضٌّ طريٌّ، لم تنبت فيه شجرةُ الحب بعد، وهو الشاعر الذىٰ ينشد الجمال أنّىٰ وجده، وهو ذو القلب الفارغ الذىٰ لا يجد ما يشغله سوىٰ الشعر، وذو العقل الخالي من كل شيء ذي بال، الآن أُلقِيتْ البذرة في أرضٍ مخصبة، بذرة ستنبت غضَّة طرية مثل قلبه...

يبدو قيس مجهدًا جدًا من حرارة الشمس، ومن شدة الظمأ الذىٰ رواه للتو، ومن شدة الجوع أيضًا، فهو لم يجلب معه ما يتقوَّت به، حتىٰ ولو تمرات قليلات من تمر البادية، وقد لاحظتْ عليه الفتاة ذلك، فإن رحل بهذا الشكل جائعًا منهكًا، ورآه أحدٌ بالقرب من منازلهم، فذلك سُبَّة لهم بين العرب، فلابد من إكرام وفادته، فتستجمع قواها، ومن خلف حجاب، تقول له:

- ألا تنزل تبترد عندنا، وتذوق طعام الكرام.

تقع هذه الكلمات بردا وسلاما علىٰ قلبه، وتخدّر جسده، ولم لا؟ وقد أُلقيت الآن بذرة الحب في قلبه، ولاقت أرضًا خصبة، هي بحاجةٍ إلىٰ مَن يرويها، يرد عليها، وكأنه يتمنىٰ:

- نعم يا ابنت الكرام، سمعًا لكم وطاعة.

- علىٰ الرحب والسعة، فالقوم قادمون.





تأتي جارية خفيفة الحركة، فتدله علىٰ مكان الأضياف، ريثما يأتي القوم الخلوف، ثـم تقـدم لـه لبنًـا خالصًـا صـائغًا، ومـاء بـاردا، وبعـض التمرات، فيسأل قيس الجارية:

- من أي بني خزاعةٍ سيدك يا جارية؟

- هو سيد قومه: الحباب من بني كعب الخُزاعي.

- وهل مَن أكرمتنا هي ابنته؟

- نعم، سيدتي لُبْنىٰ، بنت سيدي الحباب، أجمل فتاة في قومها، ملء كسائها، وغيظ جارتها، يردد قيس الاسم خلف الجارية بصوت منخفض، يهمس به همسًا:

- لُبْنىٰ، ما أعذبه!

ثم راح ينشد شعرًا يدل علىٰ فرحته بمجاورتها:

الحمدُ للهِ قد أمستْ مجاورةً أهل العقيقِ، وأمسينا علىٰ سَرَفِ

لم يطل المقامُ بقيس حتىٰ قدم القوم الخلوف، والحباب الكعبي يتبعه خادمه، حتىٰ إذا وصل مضارب خيام قومه، لمح قيسًا، فأدرك أن ضيفًا قد ألمّ بهم، فأمر خادمه أن يستعد لضيفه، حتىٰ إذا وصل إلىٰ قيس هشَّ له، وأحسن استقباله، ثم أمر خادمه أن يذبح شاة للضيف دون أن يعرف مَن هو، أو ما شأنه، وحاجته، حتىٰ إذا شعر أنه أكرم ضيفه، وقضىٰ حقه، سأله:

- إلىٰ أي بطون العرب ينتسب ضيفنا؟

انتسبَ له قيس، وأخبره أنه ابن ذريح بن سنة الكناني، فزاد ترحيبه به، فهو ابن ذريح، سيد قومه، فأكرم الحباب قيسًا،





كأحسن ما يكون الكرم، ولم يدعه يرحل حتىٰ ظهر الشفق في صفحة السماء.

رحل قيسٌ، وترك أغلىٰ ما يملكه المرء، رحل وترك قلبه مرهونًا لدىٰ لُبْنىٰ التي أبت أن تفك رهنه، وتركت في قلبه نارًا، لا تطفئها أمواه البحار، حتىٰ وصل قيس دار أبيه، مجهد الجسم، مصفرّ الوجه، شارد اللب، تقابله رمسة أمه، التي هو أغلىٰ عندها من عينيها التي تبصر بهما، تسأله قلقة:

- أي بُنىٰ، ماذا دهاك؟

- لا شيء يا أماه، لا شيء.

تلحُّ عليه بشدة حتىٰ يخبرها بما ألمّ به مورّيًا، تجده شاردًا ولا يجيبها، يزداد قلقها عليه، تتركه وشأنه، وتنادي ذريحًا، يهمس لنفسه وقت خروج أمه من مخدعه، قاصدًا لُبْنىٰ:

صدعتِ القلبَ ثمّ ذررتِ فيهِ — هواكِ فَلِيمَ فالتأَمَ الفُطُرُ

تَغَلْغَلَ حيث لم يبلغْ شرابٌ — وَلاَ حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

تسمع رمسة هذه الأبيات فيرتجف قلبها، ولا تدري أتحزن أم تفرح، فالأمر مفاجئ بالنسبة لها، فهي لا تزال ترىٰ قيسا طفلا صغيرا بالرغم من اكتمال فحولته، وتسأل نفسها:

- هل العشق لامس قلب الفتىٰ؟ أم تراه يهذي؟

- وكيف؟ ومتىٰ؟

- ومَن هذه التي ستسلب ابني مني؟



يمتزج القلق مع الطمأنينة في قلبها، تدخل مخدع ذريح، تخبره بكل ما حدث، وبكل ما سمعتْ، يستشعر الشيخ في ريبة ما داخل قلب الأم من قلق، قد يودي في نهاية الأمر إلىٰ غيرة تفسد أمر الابن، فهو يدري مدىٰ تعلقها بوحيدها، وتذكَّرَ أنه قديمًا انتزعه من حضنها انتزاعًا؛ ليخلق منه رجلا صلبًا، وقد أفلح، أما الآن فالأمر جدّ مختلف، فقيس صار يافعًا، ولم يعد طفلا صغيرا مدللا، ولم يشأ ذريح أن ينبه رمسة إلىٰ أن قيسًا قد شبَّ عن الطوق، فيقول لها:

- دعيه يا رمسة، دعيه وشأنه، فقيس ليس صغيرًا، ولا أحمق، فهو فارس وشاعر، وله بين أحياء العرب مكانته.

يراها غير مقتنعة بأنه شبَّ عن الطوق، وأن الفتىٰ صار رجلا، وبحاجة إلىٰ عروس، فيواصل حديثه:

- دعيه يا رمسة وغدًا ستنجلي الأمور، ولا تقلقي علىٰ الفتىٰ، فلم يعد صغيرًا، وإن كان العشق قد طرق قلبه، فمرحىٰ...مرحىٰ، دعيه يا رمسة، فإنه علىٰ ما يرام، لكن رمسة لا تدعه، فقد لأتْ علىٰ نفسها ألا تدع ابنها أبدًا، تسمع همهمات من مخدع قيس، تقترب منه دون أن يشعر، وتسترق السمع، فتسمعه ينشد:

أَيا كَبِدًا طارَتْ صُدوعًا نَوافِذا وَيا حَسرَتا ماذا تَغَلغَلَ في القَلبِ

توقن بالحقيقة تمامًا، أن صغيرها كبر وشبَّ عن الطوق، ويبدو أنه قد صار عاشقًا ولهًا.



أكثر قيس من نظم أبيات العشق العذبة الرقيقة، وأكثر من وصف حاله، ووصف النيران المشتعلة في قلبه، وألا سبيل إلىٰ إخماد جذوتها المستعرة والمتقدة في جوفه، سوىٰ الوصل مع مَن أحب، والتي لم يفصح عنها في شعره...

طبّقتْ أشعار قيس الآفاق، وتغنّىٰ بها الركبان، وسارت بين الناس كالنار في الهشيم، وأكثر من إنشادها الفتيان في الأندية والأسمار، وردها العاشقون والوالهون، وكأنّها تعبّر عن حالهم، حتىٰ بدا اسمه يتردد في بادية الحجاز، والكل يسأل عن صاحب هذه الأبيات الرقيقة العذبة؟ وقد بلغ شعره فيمن بلغ مضارب بني كعب، وتقرع فيمن تقرع مسامع لُبْنىٰ بنت الحباب، فتدرك أن الفتىٰ قد صار عاشقًا، ومتيمًا بها، وهذا حرَّك شعورًا مقدسًا ساكنًا لديها، إنه الشعور بالحب، خاصةً عندما تذكرتْ حاله لمّا بُهت عندما رآها أول مرة، وظل يختلس النظرات إليها، ثم تتذكر أسئلته للجارية، وتسترجع بيت الشعر الذىٰ نطق به، والجارية تلقفه، وترويه لسيدتها، وتعيده عليها مرارًا وتكرارًا؛ بناء علىٰ رغبتها، وكأنها تلقي بذرة الحب في قلب لُبْنىٰ، ومن ثم فقد كانت أبيات قيس الرقيقة هي قطرات الماء التي تروىٰ هذا العشق التي أُلقيت بذرته في قلبها الخصب الخالي، وتقوم بإرواء تلك النبتة.

كل ذلك ولا يعلم أحدٌ عنهما شيئًا، عاشقان صغيران في بادية من البوادي، بدأتْ تنبت في قلبيهما شجرةُ عشق خالدة خلود التاريخ، ولا يعلم أحدٌ أن هذين العاشقين سيقف التاريخ أمامهما يسجل كل



لحظة، ويحفظ كل بيت شعر يردداه، ولا يعلم أحدٌ أن هذين العاشقين سيصبحان ذات يومٍ من أئمة أهل العشق.

كان قيس يكثر من الترداد علىٰ بادية الحجاز، يمتطي صهوة جواده، وييمم وجهه جهتها، وقد يصطحب خادمه جرولا، وقد لا، وقد أكل العشق قلبه وصار كمرجل يغلي، ولم يعد في قوس صبره منزع، تراوده نفسه كثيرًا بالذهاب إلىٰ مضارب خيام بني كعب، لكن أمره سيتكشّف لأهل البادية، فسيحرم ساعتها من لُبْنىٰ إلىٰ الأبد، يحوم بفرسه حول مضاربهم، ثم يعود أدراجه، ظل علىٰ ذلك أيامًا، يحوم حول مضاربهم، ثم يثني لجام فرسه، صراع شديد داخله، بين أن يذهب أو لا يذهب، يكاد يفتك به، صراع نشب بين عقله وقلبه، فإن طاوع عقله عذَّب قلبه، وإن أطاع قلبه، ربما أورد نفسه المهالك، لا يجد منفسًا سوىٰ شعره، يهمس به إلىٰ نفسه، ويخرج به ذلك اللهيب الذىٰ يستعر فيها، حتىٰ لا يطلع علىٰ سره أحد، يبوح في همساته بسم لُبْنىٰ عيانًا، فتكرار اسمها علىٰ لسانه هي اللذة بعينها، ينشد إلىٰ نفسه القلقة:

أَلاَ لَيْتَ لُبْنىٰ في خَلاءٍ تَزُورُني ... فأشكُو إليها لوعتِي ثُمَّ تَرْجعُ
صَحَا كُلُّ ذي لُبٍّ وَكُلُّ مُتَيَّمٍ ... وقلبِي بِلُبْنىٰ ما حَيِيتُ مُرَوَّعُ

ترقب رمسة ابنها، فتشفق عليه، وتلحظ ذلك الشحوب الذىٰ اعتراه، وذلك الشرود الذىٰ أصابه، يدخل مخدعه ولا يكاد يخرج منه، ثم يخرج إلىٰ البادية، ولا يكاد يعود منها، حياة صعبة يحياها قيس، تخبر الشيخ بكل شيء، فيكفّها عن قيس، ويخلي بينها وبينه،



يداعبها الشيخ، ويلاطفها، ثم يذكرها بأيامهم الخوالي، وقد ذهب إلي مضاربهم في ثياب راعي غنم، حتىٰ يأمن أهلها، ويطلب منها جرعة ماء، فتطفئ ظمأه وشوقه، فيرجع وقد حاز الدنيا بحذافيرها، فتنبسط أساريرها، فيستغل الشيخ ذلك الانبساط، ويكفها عن قيس، قائلا لها:

- دعيه يا رمسة، دعيه ناشدتك الله، وغدا سنعلم حقيقة الأمر، ربما انشغل قلبه بابنة عم له، فيكفينا همّه، وإن كانت غيرها، صددناه عنها برفق ولين، وخطبنا له أي فتاة من بنات أعمامه، دعي النبتة الجديدة تنمو في قلبه الغضّ الطّري.

يقلقها كلام ذريح، وتشعر بنوع من الغيرة، التىٰ تصيب قلوب الأمهات، فتحاول أن تثنيه عن رأيه، فتقول:

- إني أخشىٰ عليه يا ذريح، فقيس قلبه هواء، وأخشىٰ أن تستأثر به فتاة دوننا.

- هي الغيرة إذن، لله درك يا رمسة، دعي الفتىٰ وشأنه، فإننا نحوطه ونرقبه، فقد سبقه أبوه قبل ذلك، ومرّت أمه بتلك الأطوار، فلمَ تحظرين علىٰ قيس إذن؟!

تستجيب رمسة وهي خجلة مما قال الشيخ، وتحاول أن تتقبل الأمر، وتلتمس العذر لقيس.

أما قيس فقد أوشك العشق أن يفتك بجوانحه؛ لذا فقد لأىٰ علىٰ نفسه لأيًا، أن يذهب إلىٰ مضارب بني كعب، وليكن ما يكون، سيرقب القوم، حتىٰ إذا كانوا خُلوفًا، يذهب فيستقي منها ماء، وسيبوح لها



بعشقه، فإن بادلته، فلن يصدّه عنها منذ اليوم صاد، سيذهب حتىٰ يطفئ تلك النيران المستعرة في جوانحه.

يبكّر في الخروج علىٰ صهوة جواده، موليا نحو خيام بني كعب، يسلك طريق البادية، حتىٰ لا يفتضح أمره، يقترب من مضارب خيامهم، يرقبهم متخفّيًا...القوم خُلوف كالعادة، ينتظر حتىٰ تشتد الرمضاء، وتتعامد الشمس علىٰ الحصباء، فتخلو الطرقات من الناس؛ ليضمن ألا يراه أحد فيفتضح أمره، ثم يدفع نفسه، وحصانه نحو دار الحباب الكعبي، وقلبه يرتجف لا خوفًا من أن يراه أحد، بل خوفًا من أن تصدَّه لُبْنىٰ، أو لا تكون قد انتبهت لحبه، فتكسر قلبه إلىٰ الأبد، يقترب، حتىٰ إذا كان في مأمن من كل شيء، ينادي:

- الأمن والسلام علىٰ مَن في الدار.

تسمع لُبْنىٰ صوته، فيخترق أذنها إلىٰ قلبها مباشرة، فتصيبها رعشة، وانتفاضة قوية يوشك قلبها أن ينخلع معها، ثم يتسمّر جسدها في الأرض، وكأنه شُدّ بمسامير، ولا تدري ماذا تفعل، أترد عليه أم لا؟ أتخرج له أم لا؟ تقبل نحو الباب، وتدبر في ارتباك واضح، وتتمتم بكلمات لا يتبينها قيس، لكنه يفطن لكل ما يحدث، ويفطن إلىٰ ذلك الارتباك، فقلبه يصدقه، ينادي:

- جرعة ماء لقلب ظمئ، قد أيبسه العطش، ولاذ بقوم كرام، لا يردّون ضيفًا، أو غريبًا.

تجد لُبْنىٰ نفسها مندفعة دون أن تفكر في شيء، وكأن قوة تدفعها إليه، إلىٰ حيث يقف بفرسه، واتكأت في اندفاعها إلىٰ أنه أثار فيها نخوة





العرب، واستغاث بهم، فلابد من إغاثة الملهوف مهما كانت العواقب، وهكذا العرب، ثم تجيب بصوت خفيض:

- تفضل يا أخا العرب، فقد قصدت كرامًا، لكن القوم خُلوف، فهل من حاجة تقضيها حرَّةٌ لضيف حلّ؟

- جرعة ماء، تروي ظمأ قلبٍ يحترق.

- قد رُويت وأيم الله، ورُوي قلبك.

- وكيف لقلبٍ يحترق أن يُروىٰ؟ فياليت رواء القلوب بالماء!.

- فما يروي قلبك إذن؟ أأنسيٌّ أنت أم جنيٌّ؟

- ليست كل قلوب الأُناس ترويها الماء، فبعضها دَنِفٌ عليل، لا يُروىٰ إلا إذا رآه طبيب.

تفهم لُبْنىٰ مراد قيس، وتفطن إلىٰ أن قيسًا لا يحتاج إلىٰ ماء، بل يحتاج إلىٰ أن يراها، فهي الطبيب الذىٰ سيشفي قلبه من دائه، لكنها تتمادىٰ في عدم فهما مراده، فتقول له:

- ليس لدينا لظمأ القلوب سوىٰ ماء قراح، إن أردت فقد رُويت، وإن لا، فهذا شأنك.

- ليكن إذن.

- نعم.

تبرز له لُبْنىٰ مشرقة الوجه، موردة الخدود من شدة الخجل، وكأنها البدر ليلة التمام، وبيدها كوب الماء، يمد قيس يده نحو الكوب، وهو ينظر في عينيها نظرة عميقة، قد فاض منها العشق الممزوج بالألم فيضًا لا حد له، تخترق نظرته قلبها، وكأنها سهم



قاتل، تدرك لُبْنىٰ مغزىٰ هذه النظرة تمامًا، فقد سبقتها أبياته الرقيقة إلىٰ قلبها، ترتبك، يسقط كوب الماء علىٰ الأرض، يحدث صوتًا مزعجًا، ينتبه كلاهما إلىٰ نفسه، ثم تدور بجسدها؛ لتأتي بكوب آخر، ينادي قيس:

– أنا لست ظمئًا، روحي هيٰ الظمآىٰ إليك يا ابنت الكرام، ما جئت لأروي بدنًا من العطش، إنما جئت لأروي قلبًا متحرقًا من الشوق، وعينًا تريد أن تبرأ من سقمها برؤيتك، إن قلبىٰ يتقد نارًا تتأجج في كل جوانحي، ولن تنطفئ إلا بك.

تتجمد لُبْنىٰ مكانها، ولا تدري ماذا تقول، يزداد وجيب قلبها وخفقانه، وتشعر أن قلبها كان صحراء قاحلة فاخضرّت، وامتلأت بأنواع الورود والأزاهير، فكلماته بمثابة جداول مياه رقراقة، تحيل اليابس أخضر، يتابع قيس:

– لم أعد أقوىٰ علىٰ الصبر يا لُبْنىٰ، وينشد:

تَسَاقَطُ نَفْسِي حِينَ أَلْقَاكِ أَنْفُسًا ... يَرِدْنَ فما يَصدُرنَ إلاّ صادِيا

سلي النّاسَ هَلْ خَبَّرْتُ سِرَّكِ منْهُمُ ... أخا ثِقَةٍ أو ظاهر الغِشِّ باديا

يثلج صدرها البيت الأخير، فهو يطمئنها أنه لم يخبر أحدًا بسرّه، لا من الثقات ولا من الكذابين، ثم تنظر إليه، وكأنها تستحثَّه علىٰ أن يواصل حديثه العذب، وأن يغمرها بكلمات الحب، وأبيات الغزل، التي تحيل صحاري قلبها إلىٰ رياض خضراء، وتشعرها أنها حمامة تستقبل بجناحيها نسائم الربيع... يبوح لها قيس بكل مكنونات قلبه، وعينه لا تنفك عن النظر في عينيها، لحظة من الحب والهيام، تعدل





عند العشاق عمرًا كاملا، وتعدل عند لُبْنىٰ الدنيا بأسرها، تشعر أنها مفككة الجسم، ولا تقوىٰ علىٰ الحراك، يسألها قيس، بعد أن شعر أن بُذور الحب بدأت تنبت في قلبها، وأوشكت أن تورق:

- هل تجدين ما أجد؟

لا تجيب...

- أي لُبْنىٰ هل تجدين ما أجد؟ أخبريني ناشدتك الله.

- إني لا أريد منك إلا ما يريد حرًا من حرَّة.

- انصرف الآن يا أخا العرب راشدًا، فالقوم في طريقهم إلىٰ دورهم، وإني أخشىٰ عليك.

تقع الكلمة علىٰ قلب قيس موقع الندىٰ، ويردد: تخشين عليّ! لله درك، هو الحب والله إذن، سأنصرف علىٰ موعد للوصال. فترد لُبْنىٰ علىٰ استحياء شديد، وبصوت خفيض، تهمس به همسًا، ولا يكاد يُسمع:

- نعم...

يسمع قيس قولها، فيصيبه من إثرهما دوار في رأسه، يشعر أنه سيقع مغشيًا عليه، ينفض رأسه حتىٰ لا يقع، ويصلب عوده بكل ما أوتي من قوة، ثم ينظر إليها وهو شارد اللب، فاقد التركيز، يغمرها بأبيات العشق والغرام، ثم ينصرف.

ينتهي اللقاء وقد عرف كلٌ ما له عند صاحبه، وأن الحب تمكّن في القلبين الخاليين الغضين، وبدأت معاناة كل منهما، فالشوق يزيد، والوصل والحرمان محرَّم، والوشاة بالمرصاد.





انصرف قيس إلىٰ داره منتشيًا، ودخل مخدعه، منتظرًا أباه الشيخ ذريح؛ ليعرض عليه زواجه من لُبْنىٰ، يقدم الشيخ من سمره، يسلم عليه قيس، ويدنو منه، تنبسط أسارير ذريح، فهو منتظر لمثل هذا اللقاء الذىٰ يبوح فيه ابنه بما يختلج في صدره منذ مدة، وهذا أمر يدل علىٰ حنكة الشيخ، فهو يرقب ابنه من بعيد، ويريده أن يكون معتمدًا علىٰ نفسه، وما عليه سوىٰ المشورة فقط، يقول قيس لأبيه ممهدًا:

- أما آن للشيخ ذريح أن يفرح بزواج قيس ابنه؟
- قيس هو مَن يقرر، وعلىٰ الشيخ السمع والطاعة.
- وقد قرر قيس وعزم، ويريد أن يفصح للشيخ الآن.
- نعم بُني، أفصح، مَن العروس؟
- لُبْنىٰ بنت الحباب بن كعب الخُزاعي.

ينقبض قلب الشيخ، ولا تنبسط أساريره كما كانت أبدًا، ويشعر بالندم للحظة أنه حال بين أمه وبينه، فيبدو أنها كانت محقّة، حينما أرادت أن تكبح جماحه من البداية، وتتدارك أمره، لكن لا يُظهر ذلك الضيق لقيس، ويواصل حديثه في هدوء:

- الحباب بن كعب الخُزاعي يا بني ذو نسب وحسب تليد، ومَن ينكر رفعته ومكانته في قومه؟ لكن هو بعيد منّا في الرحم والنسب، ولا تجري في عروقه دماء حذافة الكناني، والرحم أولىٰ بالوصل.
- صلة الرحم يا أبت ليست بالزواج فقط، ونحن خير مَن يصل رحمه، وقد ورثنا ذلك منك، فالفضل لك.





- يا بني أنا رجل موسر، كثير المال والعَرَض، ولا ولد لي سواك، فلا آمن علىٰ ولدي ولا مالي إلا لابنة عمٍ، فاختر من بنات عمك مَن شئت، وهي لك متىٰ شئت.

- إني أريد لُبْنىٰ بنت الحباب يا أبت، ولا أقوىٰ علىٰ فرقتها، فلا تحرم قلبين قد ارتبطا بأواصر الحب.

يغتاظ الشيخ جدًا، ويزداد قلبه انقباضًا، لكنه يحاول أن يبدو هادئًا، رابط الجأش، حتىٰ يقوىٰ علىٰ صرف وجه ابنه وقلبه ناحية إحدىٰ بنات أعمامه، لتحفظ عليه ماله ونفسه، فيواصل حديثه مستخدمًا العقل في اقناع قيس:

- يا بني ما تجد في بنت الحباب ستجده في كل النسوة، كلهن سواء، والأقربون أولىٰ، فابنة العم تشاركك الهمّ، وتحمل عنك الغمّ، وأنت وحيد لا إخوة لك، فيصبح أبناء عمومتك هم أخوة لك.

- أي أبت، ناشدتك الله والرحم، ألا تفرّق بيني وبين لُبْنىٰ.

يردّ الشيخ غاضبًا:

- ومتىٰ اجتمعتما حتىٰ تفترقا؟ ماذا دهاك يا قيس؟

- اجتمع قلبانا اجتماعا لا يفك أواصره سوىٰ الموت.

«ألا لعنة الله علىٰ قولك» يقول ذلك همسًا، حتىٰ لا يتبينه قيس، ثم يضبط أعصابه، ويقول:

- يا بني ارفق بشيخ كبير، لا يقوىٰ علىٰ عقوق ابنه، وارفق بتلك الشيخة التي تضن بك عن كل الخلق.





- بل أنتما ارفقا بي، ارفقا بوحيدكما، فلم أعهد منكما جحودًا قط.

- ما دام لم تر منّا جحودًا قط، فلم تخالف رغبتنا بُني؟

- معاذ الله أيها الشيخ أن أرغب عن أمر تريده، ولكن لا أقوىٰ علىٰ دفع أمر لا طاقة لي به.

- بل أنت ترغب يا قيس عن إرادتي، اذهب بُني، فلا زواج من فتاة غير بنت من بنات عمك، والقول ما قلت...

لا يرد قيس عليه قولا، وتدمع عيناه، وينشد:

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَها قَبْلَ خَلْقِنا ... ومن بعد ما كُنَّا نِطافًا وفي المهدِ

ثم يتركه حزينًا، منفطر القلب، ويأوي إلىٰ مخدعه، يفكر في أمره، فأبوه كان غير رفيق به، وما اعتاد ذلك منه، فيعزم في نفسه أن يشكو أباه إلىٰ أمه، ويستعين بها عليه، ولم يدر أن ما بداخل أمه أشد ضراوة وقسوة مما في قلب أبيه، فالشيخ تحدَّث معه بكل رفق ولين، لكن أمه امرأة غَيْرىٰ، ولا ترىٰ في زوج ابنها إلا سالبة منها ولدها.

يقول قيس لأمه شاكيًا، وقد لان معها في الحديث، بعدما رأىٰ من أبيه صدودًا:

- أماه، يا مَن تسكن الروح إليها إذا اضطربت.

- أي بُني، يا مهجة قلب أمك، ألك حاجة؟

- نعم، وأي حاجة هي، فقد عرضت علىٰ أبي أمرًا، لم يجبن إليه، فلم أجد أحدًا أقرب إليه منك، فأنت زوجهُ، وأنت أمي التي أعطتني ما لم تعطه امرأة لابن قط، أفقاضية أنت حاجتي؟





- قل بُني، قل يا قرّة العين، ولو أردت عيني لنزعتهما من محجريهما لك، خالصتين.

- هذا عهدي بك يا أم قيس.

يمهد لها قيس، ويثير فيها عواطف الأمومة، فهي الباقية له بعد أبيه، وإن اقتنعت فستقف بجانبه، تقوِّي عضده، وإن لا؛ فقد خسر الاثنين، وهذا قد يورده المهالك. يقول لها:

- ألا تحدثك نفسك بزواج ابنك، أم لا زلت تريني صغيرا كعادتك؟

- الآن تبوح يا قيس، إني أرقبك بُني منذ أمد، وسمعتك تنشد أبياتا تدل علىٰ ذلك، ولم أشأ أحدثك في شيء حتىٰ تبوح به.

يتبرم قيس من عتب أمه، لكنه يكمل:

- وإن بحت لك بما يجيش في صدري، ما تراك فاعلة؟

- قل بُني، إني مطرقة.

- أريد الزواج من لُبْنىٰ بنت الحباب بنت كعب الخُزاعي، وقد أبىٰ الشيخ بالأمس، وحاجتي عندك أن تؤازريني.

تقع كلماته علىٰ قلبها وقع جلاميد الصخر، وتمتعض رمسة، وتستشيط غضبًا، لكنها تتمالك نفسها بكل ما تستطيع من قوة، ولكن لا يبدو عليها الهدوء والوقار كما بديا علىٰ الشيخ ذريح، ولن يرضيها أن يتزوج قيس أي فتاة، سوىٰ من أرحامه، فتقول له ساخرةً:

- ولماذا رفض ذريح؟

- إنه يريد أن أتزوج بنتا من بنات الأعمام.





– القول ما قال أبوك، أطعه قيس، اطع أباك – بلهجة فيها حدة– فابنة العمّ عضد لك، وأهلها أهلك.

– هو أمرٌ دُبّر بليل إذن، أراك يا أماه توافقين الشيخ، وتحملين نفس الرأي، بل وتدافعين عنه.

– نعم بُني، فنحن نخشىٰ عليك أحياء وأمواتًا.

– لا أقوىٰ يا أماه، لا أقوىٰ علىٰ الزواج بغير لُبْنىٰ.

– وما الذىٰ تراه فيها، غير باقي النسوة؟ ما الذىٰ تزيده علىٰ أي فتاة من بنات أعمامك.

يتحدث قيس هائمًا، وقد نسي أنه يحدث أمه، وله عندها حاجة يريدها أن تُقضىٰ، فيقول:

– هي ليست كالنساء، هي كائن نوراني رقيق، لا مثيل له، إني لا أراها كما أرىٰ باقي النسوة، فلو رأيتها كذلك، لوجدتها في ألف جارية أراهنّ كل يوم أمامي، فلكم رأيت من النساء! وما حركن في نفسي ساكنا، أما عندما أرىٰ لُبْنىٰ، فكل ذرة من ذرات قلبي يصيبها هياج العشق، واضطرابه، لا تهدأ نفسي حتىٰ أحادثها، ولا تستقر حتىٰ أرىٰ عينيها، فهي ملائكية الطبع، حلوة المنطق، شاعرية اللفظ، كل شيء فيها عذب لذيذ، كل شيء فيها يأسر القلوب، ثم راح ينشد:

سليْ اللَّيلَ عنِّي كيف أرعَىٰ نُجُومَهُ   وكيفَ أقاسِي الهَمَّ مُستْخَلِيًا فَرْدَا





لا تطيق رمسة صبرًا علىٰ السماع من قيس أكثر من ذلك، تدعه وتخرج، وقلبها مرجل يغلي، أما هو فيظل ينشد أبياته في لُبْنىٰ، ولا يشعر بأن أمه ذهبت عنه.

تنتشر قصة قيس رويدًا رويدًا، ولكن في خفاء، وعلىٰ استحياء، يتندّر بها فتيان الحجاز وباديتها في نواديهم وسمرهم، بين مشفق علىٰ قيس، وبين ساخرٍ ولاهٍ، وبين أديبٍ يهمه أن يملأ كتابه بالقصص والأشعار، لشعراء ذاعت قصص عشقهم من باب التسلية، وتزجية وقت الفراغ، وبين مؤرخٍ يرقب القصة ليؤرخها، كقصة عشق مشهورة عن العرب.

بين هؤلاء جميعًا، بدأتْ قصة قيس بن ذريح ولُبْنىٰ تنتشر بين الناس، وهو نفسه باح بها لبعض أصدقائه الخُلَّص، وأقرانه المقربين منه، فيزحف الخبر إلىٰ مضارب خيام بني كعب، كما زحفت أبيات عشقه من قبل، وتطرق أسماع الحباب نفسه، فيزداد الأمر تعقيدًا، فمن عادة العرب ألا يزوجوا من شبَّبَ بفتياتهم، أي مَن تغزَّل بهن، مما زاد الأمر تعقيدًا، فتعقدت الأمور في وجه قيس، وادلهمّت، وهي لم تبدأ بعد، ما بين أبٍ وأمٍ يرفضان، وما بين الحباب الذىٰ علم أن أحدًا يتشبب بابنته، وهذا وحده كافٍ بنهاية القصة.

أدرك قيس كل ذلك، ولم يجد أمامه سوىٰ البادية يقضي فيها وقته، ويتدبر أمره، عسىٰ الله أن يأتي بالفرج، ثم ييمم وجهه شطر البادية، ويتبعه خادمه جرول، كعادته يركض تارة، ويتسكع أخرىٰ، يملأ رئتيه من هواء البادية النقي، ويقترب من خيام بني كعب، علَّه



يلمح لُبْنىٰ من هنا أو هناك، وهي خارجة لبعض حاجتها، وتحت ظل شجرة من أشجار البوادي القريبة من ديارهم، يفترش الأرض، وينشد أشعاره في لُبْنىٰ، وجرول بالقرب منه، ويشعر بسيده الذىٰ يتألم، ويستمع إلىٰ قوله:

ألاَ لَيْتَ لُبْنىٰ في خَلاءٍ تَزُورُني فأشكُو إليها لوعتِي ثُمَّ تَرْجعُ
صَحَا كُلُّ ذي لُبٍّ وَكُلُّ مُتَيَّمٍ وقلبِي بِلُبْنىٰ ما حَيِيتُ مُرَوَّعُ

يوشك جرول أن تسكره الأبيات، وكأنّ عدوىٰ العشق قد أصابته، ويشفق علىٰ سيده، ويود لو احتضنه وربّت عليه، أو ذهب فحمل إليه لُبْنىٰ عنوة، وقدمها إلىٰ سيده، فما كان بين جرول وقيس ليس كما بين الخادم وسيده، فسماحة قيس ورقته أزالت فوارق العبودية بينها.

يعنّ له صيد ثمين، إنها غزالة رشيقة جميلة، تركض قربًا منه، تقفز يمنة ويسرة، تستنهض فيه عناد فتيان البادية، وتثير هوايته المحببة، يقطع نظمه وينادي جرولا:

- يا جرول، اعطني سهمًا، وارقب الصيد.

يحاول أن يصطادها وهو جالس في مكانه، لكنه لا يفلح، تتقافز الغزالة، وكأنها تستثيره، يثب فوق حصانه وثبًا قويًا، ويتبعها خطوة خطوة، يركض خلفها كصقر كاسر، حتىٰ إذا كانت علىٰ مرمىٰ سهامه، أخذته بها شفقة، ورأىٰ جمالها، فذكّره بلُبْنىٰ، يكف يده عنها، ويدعها تهرب، يرىٰ جرول المشهد، وهو يتابع سيده من بعيد، وفي ظنه أن الغزالة هربت من سهام سيده، حتىٰ إذا اقتربت منه، يصدد سهمه نحو

قلب الغزالة مباشرة، تترنح، ثم تسقط علىٰ الأرض، في منظر انفطر له قلب قيس، ينزل من علىٰ حصانه، ويحتضن الغزالة في شفقة ورحمة، وكأن أمًّا تحتضن طفلها الذئ ينزف دمًا، تتلوث ثيابه بدم الغزالة، لا يأبه بشيء، ويضمها إلىٰ صدره، وينحب، ثم يخاطب جرولا:

- لم فعلت ذلك يا جرول؟

يتعجب جرول من سؤال سيده، ولم يحر جوابًا.

- كيف تقتل شبيهة لُبْنىٰ؟

- كيف تصدد سهمك نحو قلبي؟

- كيف تفرىٰ كبدي يا جرول؟

ثم راح ينشد:

راحوا يصيدون الظباءَ وإنني　　لأرىٰ تصيُّدَها عليّ حَرامَا

أشبهنَ منكِ سَوالفًا ومَدامِعًا　　فأرىٰ عَليَّ لها بذاك ذِماما

لم يجرؤ جرول علىٰ الرد علىٰ سيده، يدرك ما فيه سيده من عواطف جياشة متدفقة، تدمع عيناه حسرة وإشفاقًا عليه، ظنًا منه أن لوثةً عقليةً قد أصابته، يأخذ الغزالة من حضنه في لين وشفقة، يأبىٰ قيس، ويضمها إلىٰ صدره بقوة وعنف، يقف جرول متبلدًا، لا يدري ماذا يفعل، ولا يجرؤ علىٰ الاقتراب من سيده، يبكي قيس، ويولي وجهه نحو ديار لُبْنىٰ، وينشد أشعاره...يفرغ قيس كل ما يغلي ويفور في قلبه، ويهدأ قليلا، يلاطفه جرول، ويداعبه، يذكِّره بالسابقين من العشاق، وأنهم ما يئسوا أبدًا، وقدموا أرواحهم سهلة ميسورة في سبيل



غـرامهم، فاليـأس مميـت وقاتـل، ينتبـه قـيس، ويشـده حـديث جـرول، يواصل جرول حديثه لقيس:

- لا تهلك نفسك أسىً وحسرة وتجمل يا سيدي، ألم يقـل امـرؤ القيس الشاعر قبلك: "لا تهلكْ أسىً وتجمّل"، فأنت لسـت أول عاشق عصفت به رياح العشق، وأُوصدت الطرق في وجهه، ولـن تكون الآخر، فالعشـق معـروف أنـه ذل، والعاشـق كشـحَّاذ، وقـد يضـن عليـه محبوبـه وقـد لا، وأنـت معشـوقتك لا تضـن عليـك، فأنتمـا متفقـان في الأهـواء والميـول، فلـم اليـأس يـا سـيدي؟ لـم اليـأس وأنـت في بدايـة الطريـق؟ يشـده كـلام جـرول، ويجعلـه يستحضر ذهنه كاملا، حتىٰ إذا فرغ قال له:

- لله درك يـا جـرول، أراك منـذ اليـوم حكيمًـا، بـل عاشـقًا عشـقًا تليدًا، قل يا فتىٰ لا عدمني الله رأيك.

- أوتسمع رأي عبدٍ لا حول له ولا قوة، لو أشار لك به.

- قل يا جرول، ومنذ متىٰ عهـدت علـيّ ذلـك؟ ومنـذ متـىٰ كنـتُ وكنتَ، كسيد وخادم؟

- والله يا سيدي ما رأيـت منـك إلا خيـرًا، ومـا عهـدتك إلا رقيقًـا أسيفًا، كريمًا معطاء...

- ماذا ترىٰ يا جرول، لقد فتك الحب بجوانبي؟ قل.

- أعلـم سـيدي ذلـك، وهـل يخفـىٰ علـىٰ عاقـل مـا أنـت فيـه؟ وسأشير عليك برأي، فيه الدواء النـاجع، فأنـت تعلـم مـا لسـيدي الحسين بن علىٰ بن أبي طالب من مكانة في الحجاز وباديتـه، بـل





وفي أرض الخلافة كلها، من مشرقها إلىٰ مغربها، والحسين أخوك في الرضاعة، لا يرد لك طلبًا، ولا يُرد له عند أحد طلب، فهو ابن بنت رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- اذهب إليه، واشك له حالك، وما أنت عليه، ستجده بك رحيما، وعليك عطوفا، ولك ملبيًا، فما رد أحدًا قط، وما خذل قاصدًا قصده، فما بالك، وأنت وهو قد رضعتما من ثديٍ واحد، ورويتما لبنٌ واحد، يجري في عروقكما معًا، ولا تنسىٰ يا سيدي أنه الفرع المبارك، لا يجرؤ أحد علىٰ أن يوصد بابه في وجهه، فاقصده، وستجده أكرم مَن وطئ الثرىٰ بعد جده، وأنت أعلم بذلك مني.

يستحسن قيس رأىٰ جرول، فكيف غاب عنه الحسين بن عليّ بن أبي طالب، الذىٰ لن يجرؤ أحدٌ علىٰ ردّه، يقول قيس لجرول، وقد ثاب إلىٰ رشده:

- أصبت يا جرول، نعم الرأي الذىٰ أشرت به، وأيم الله إني لأحبه كنفسي، وإني أعلم الناس بجوده وكرمه، وأعلم أنه ما رد قاصدًا قط، ولن يُرد له طلب، أصبت يا جرول،...

يسلُّ جرول الغزالة في خفة من بين يدي سيده قيس، بعد أن هدأتْ نفسه، ويحاول أن ينظف له ثيابه، ثم يضجع جسد الغزالة تحت جذع شجرة من شجيرات البوادي في رفق ولين، وكأنه يسند طفلا صغيرًا نائمًا، ثم يعودا أدراجهما...

يصل إلىٰ الدار، فتراه رمسة، وقد علاه الشحوب، فتقول له في لين:





- أي قيس، أي بُنـيَّ، لا أطيق أن أراك كـذلك، ارفـق بنفسـك، وارفق بهذين الشيخين العجوزين.

- وددت يا أماه لو استطعت ذلك.

- ارض أبويك بُني، واختر بنتًا من بنات عمك، فبنت الحباب لا تفضلهن في شيء.

- لـو استطعت لفعلت، وكفيـت نفسـي تلـك النـار المستعرة في جوانحي، وكفيتكما نفسي.

لا تجد ما تقوله بعد هذا التّعنت، لكن قلبها يتمزق بالداخل، ويتشتت ما بين الغيظ منه، والشفقة عليه، لكن لابد من الحزم، فالحزم لا يأتي إلا بخير، فتصيح به في قوة:

- وأيم الله ما لك عندنا سوى ابنة عمك، فكلهن سواء، وما نحن لك بظالمين، وهل نريد لك سوى الخير؟ ألا تعقل؟

يسمع قيس تلك النغمة القوية الحازمة من أمه، ويقابلها بهدوء مطلق، ينبئ أن الأمر بالنسبة له محسوم، بلا جدال، وأنه لا يرى سوى لُبْنىٰ، فيقول:

- ورب البيت يا أماه ما كلهن سواء، فأنت لم تر لُبْنىٰ، ولو رأيتها لعذرتني، فهي:

يكادُ حبابُ الماءِ يخدشُ جلدَهَا ... إذا اغتسلتْ بالمـاءِ مِنْ رِقَّة الجلدِ

وَلَوْ لَبِسَتْ ثَوْبًا مِنَ الوَرْدِ خالصًا ... لخدَّشَ منها جلدَهَا ورقُ الـوردِ

تيأس منه، وتتركه يدخل مخدعه، وتأوي هي إلىٰ الشيخ تخبره بحال قيس وعناده، لكن الشيخ يطمئن رمسة، ويخبرها أنه لن يذهب





لخطبة لُبْنىٰ، والحباب لن يوافق إلا إذا جئته، ساعتئذ سيرضىٰ قيس بإحدىٰ بنات عمه، فتهدأ رمسة...

يبكّر قيس قاصدًا الحسين بن علي بن أبي طالب، دون أن يخبر أحدًا، حتىٰ جرول خادمه لم يصطحبه معه، فيدخل المدينة المنورة، وأول مَن يلتقىٰ، يلتقي بصديقه عبدالله بن أبي عتيق، وهو من أحفاد أبي بكر الصديق- رضىٰ الله عنه- وكان عالمًا وظريفًا، وله في الشعر والنقد باع، وكان بينه وبين قيس ود وصداقة، فيرحب به ابن أبي عتيق، ويستضيفه في داره:

- أي قيس، مرحبًا يا ابن ذريح، نزلت موطئًا سهلا يا أُخي، ألك حاجة فنقضيها؟ أم جئتنا مسلمًا؟.

- كلاهما يا ابن أبي عتيق.

لا يدع ابن أبي عتيق مجالا لقيس يفكر، فيأمر خادمه، بأن يعقل دابة قيس، ويأخذ قيسًا من يده بكل ترحاب إلىٰ داره، ويأمر خدمه بما يلزمهم تجاه ضيفه، وصديقه.

يلحظ بن أبي عتيق علىٰ قيس شحوب لونه، وضعف جسده، وكأن أمرًا أهمّه، فيسأله عن حاله، فلا تخفىٰ علىٰ مثل ابن أبي عتيق قصة قيس ولُبْنىٰ، يخبره قيس خبره مع لُبْنىٰ، وخبره مع أبيه وأمه، وأنه ما قدم المدينة إلا لمقابلة الحسين بن علي بن أبىٰ طالب، علَّه يكون وسيطًا، فهو لا يُرد له طلب...

- قُضيتْ حاجتك ورب البيت، إن رضي الحسين بن علي، فهو سيد شباب قريش، ولا يُرد له طلب.





- إن لي حق الأخوة عليه، ولا أظنه يرفض طلبًا لي.
- نعم، وأنا ذاهب إليه معك.

تنبسط أسارير قيس، فهذان وسيطان شريفان كريمان، لا يستطيع أحدٌ أن يرد لهما طلبا؟ يشكر له قيس كرمه، لكن ابن أبىٰ عتيق لا يدعه حتىٰ يسمع ما أنشده في لُبْنىٰ، يكثر قيس من نشد الأشعار التي تصور حاله مع لُبْنىٰ، ويكثر من وصفها لابن أبي عتيق، الذىٰ صار كالسكارىٰ من روعة ما يسمع من قيس، وبعد أن طعما، قال له:

- قم أُخىَّ إلىٰ الحسين بن علي، فمن لم يسع لك في قضاء حاجتك، ما صنع خيرًا قط، فلا أجزل عطاء، ولا أكرم صنعة من أن يجمع المرء بين قلبين شتيتين، مثلك ولُبْنىٰ، وستُقْضَىٰ بحول الله حاجتك يا قيس.

يصلا إلىٰ دار الحسين بن علي، التي لا تبعد كثيرًا عن دار ابن أبي عتيق، يطرقا الباب طرقًا خفيفًا، فيفتح الخادم لهما، ويخبرهما أن سيده بالداخل، ثم يدعوهما للدخول في دار الحسين المتواضعة البنيان، والعامرة به وبنسبه، يدخل عليهما الحسين بن علي وقد علته الهيبة، وملأ سمته الوقار، فقد كان أكثر الناس هيبة، وخشوعًا، وأحسنهم قوامًا ووجهًا، وأجملهم لونًا وشكلا، وأطيبهم نفسًا وريحًا، يتراءىٰ كأنَّه السِّراج المتوقد، ظاهر الوَضاءة والإشراق، يتلألأ كما يَتلألأ وجه القمر ليلة البدر.

يهشُ الحسين لضيفيه، ويظهر لهما الود والحب والترحاب، ويدعوهما للجلوس علىٰ الأريكة المتواضعة، بعد أن ألقىٰ إليهما





بوسادتين من أدم، وقد قاما له هيبة ووقارًا، ثم يقبل عليهما بصدره، ووجهه الوضّاح مرحبًا بقدومهما عليه:

- مرحبًا بأخي وصديقي قيس، ومرحبًا بابن أبي عتيق، كيف أصبحتما اليوم؟ وكيف حال الشيخ ذريح، وأمنا رمسة يا قيس؟

يغض قيس طرفه مهابةً من الحسين، فما كان يقوىٰ علىٰ أن تنظر عينه في عين الحسين، فقد كان الحسين إذا تكلَّم سما، وعلاه البهاء، وإن صمَت فعليه الهيبة والوقار.

يخبره قيس بحالهما، وأنهما علىٰ خير ما يرام، لكن الحسين بحدسه النبوي يدرك أن وراءهما شيئًا ما، خاصة قيس فهو قادم من مسافة بعيدة، مما ينبئ أن أمرًا ما يشغل باله، فيواصل الحسين حديثه، متوجهًا به نحو قيس:

- ألك حاجة يا قيس، فنقضيها؟

- نعم، فقد جئتك في حاجة لي، ولا أحد لها سواك، فأنت مَن أنت في الحسب والنسب والمكانة، وقد اصطحبت صديقي ابن أبي عتيق معي إليك، لا وسيطًا بل أنيسًا.

- حللتما سهلا، وقُضيت بأمر الله حاجتك يا قيس.

يخبره قيس بخبره مع لُبْنىٰ، ويشكو له حرارة الحب، ولوعة الشوق، وأنه دنفٌ قد أضناه العشق، وأن لُبْنىٰ كذلك، فكلاهما عند صاحبه مكين، ثم يخبره بخبره مع أبيه وأمه، وأنهما يضنَّا عليه بها، ولا يرضيهما إلا أن يتزوج بإحدىٰ بنات عمه، حتىٰ لا يذهب مال الشيخ ذريح إلىٰ فتاة غريبة عنه، كما يقول.



يبتسم الحسين ابتسامة خفيفة مشرقة، تزيده هيبة ووقارًا، وتنفرج لها أسارير قيس، فقيس يدرك أن الحسين بن علي أفصح العرب لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأعذبهم نطقًا، وأبْيَنُهم لهجة، وأعرَفُهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلىٰ طريق الصواب، وإذا رآه ذريح سيهابه، فلا يجرؤ أحد من العرب علىٰ أمرٍ له.

يلحظ الحسين بن علي سعادة قيس، فيربّت علىٰ كتفه، بحب وود، ويقول له:

- قُضيتْ بأمر الله حاجتك يا قيس، وسيجمع الله بين قلبيكما، وسيُليِّن الله لك قلب الشيخين، فأبشر، يزداد وجه قيس إشراقًا وبشرًا، ولولا هيبة الحسين بن علي لقام إليه واحتضنه، فيلحظ الحسين ذلك البشر علىٰ وجه قيس، ويزيد من طمأنينته، ثم يقول له:

- ألك حاجة أخرىٰ قيس؟

- لا حاجة لي غير ذلك يا ابن بنت رسول الله.

- الليلة أسعىٰ في قضاء حاجتك، وأكفيك كل شيء، فلا شيء أحب إلي من ذلك...

****





(٥)

الوسَاطة

يصل الحسين بن علي، وابن أبي عتيق إلىٰ ديار بني كعب الخزاعيين، قاصديْن ديار الحباب بن كعب، عليه سمت الوقار، وأمارة العظمة والخشوع، وقد كانت مشيته من أعدل المشيات، لا سرف فيها ولا هوج، ولا تماوت يدل علىٰ مهانة وذل، بل كان سريعًا في مشيته، كأنما تُطوىٰ له الأرض طيًّا، خفيف الحركة، متقارب الخطوات متتابعها، قوي العضلات، شديد الحركات، يميل يمينًا وشمالاً، كأنما ينحدر من علٍ، ويقطع ما يقطع، من غير جهد ولا مشقة.

فيرىٰ القوم صاحب تلك المشية يقدم عليهم، فيعرف بعضهم صاحبها، فيخبر أنه الحسين بن علي، فتقع أعينهم عليه، وهم يتسامرون، فيقترب منهم، ويلقي عليهم السلام، فيثبون من أماكنهم وثبًا، ويعظمون قدره ومجيئه، ثم يتبادرون في السلام عليه، بكل وقار وخشوع، ويتنافسون علىٰ قضاء حاجته، فيشكر لهم صنيعهم، ويخبرهم أنه جاء قاصدًا الشيخ حباب، فيثب الحباب نحو الحسين بن علي، فيعظمه إعظامًا، ويقول له في خشوع وخضوع:

- يا ابن رسول الله، ما جاء بك؟ ألا بعثت إليّ فأتيتك، فمثلك يُؤْتَىٰ، ولا يأتي، فيرد عليه الحسين في تواضع:





- إن الذى جئتك فيه يوجب قصدك.

- لا شيء يوجب مجيئك إليّ يا سيد شباب قريش، أنا الذى آتيك، إنما أنا آتي ابن رسول الله، وهذا الحق والفضل، ثم يأمر الغلمان بإعداد ما يلزم لضيف مثل الحسين بن علي في حسبه ونسبه ومكانته، فيشكر الحسين كرمه، وحسن ضيافته، ثم يحدثه في شتات الأمور، ويخبره أن له عنده حاجة، فيقول الحباب دون أن يسأل عن تلك الحاجة:

- وأيم الله قُضيتْ حاجتك مهما كانت، فلو سألتني نفسي، لأعطيتها لك راضيًا، وكيف لمثلي أن يرد مثلك؟

- قد جئتك خاطبًا ابنتك لُبْنىٰ لأخي قيس بن ذريح.

يتفاجأ ذريح بطلب الحسين، خاصة وأنه عزم ألا يزوجها قيسًا، وقد ألمح لها في أشعاره، وتهامس الناس بذلك، لكنه لا يقوىٰ علىٰ رد الحسين، فيقول له:

- يا ابن رسول الله ما كنا لنعصي لك أمرًا، ولا بنا عن الفتىٰ رغبةً، ولكن تعلم أنه ذكر لُبْنىٰ في شعره، وهذا يوجب لنا عليه حقًا، فأنت أعلم الناس بعادات القوم، فيقول له الحسين:

- قد سمعت من شعره ما سمعت، فما أعفَّه! إنما يشكو فيه الفتىٰ جوانح العشق والوله، ولو تشبّب بها بما يضيرها ويضيرك، لكنت أكثر الناس اجتنابًا لرغبته، وأبعدهم عنه، وأنت تعلم يا حباب أن الشعراء في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وإن كان لك عليه حق، فوجب، وهو عندي، وها هو





ابن أبىٰ عتيق أدرانا بالشعر وأعرفنا بمداخله، وقد سمع من الفتىٰ ما سمع، ولم ينكر عليه شيئًا.

فيرد ابن أبي عتيق مؤيدًا الحسين بن علي، ومقنعًا الحباب بن كعب:

- نعم صدق الحسين، فقيس أعف الناس في شعره، وأبعدهم عن مرامي الفحش، فهو محب صادق، ولم ينهج نهج شعراء الغواية، فوالله ما زاد علىٰ الشكاية في شعره، ولم يذكرها بسوء أبدًا.

لا يستطيع ذريح أن يقول شيئًا لهذين السيدين، وقد أتيا إليه في داره، وفي قرارة نفسه، أنه سيلبي رغبة الحسين حتىٰ ولو كان قيس ذكرها في شعره صراحة، فيقول للحسين:

- سقط الحق بإسناده عليك يا ابن رسول الله، وما كنا لنعصي لك أمرا، أو نرفض لك حاجة هي لك عندنا، ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه، وأن يكون ذلك عن أمره ورغبته، فإنّا نخشىٰ إن لم يسع ذريح في ذلك، يكون عارًا علينا، وسبَّة بين العرب، وهذا ما لا يرضيك يا سيد الحجاز وأخيرهم، فما عادات الأحرار بخفية عليك، وما مثلك بالذي يرضىٰ العار لأحد.

- أنت محق في ذلك يا حباب، فهذا هو الحق، ونحن لا نرضىٰ لك غيره بدلا، وإني ذاهب الآن لذريح.





يـودع الحسـين بـن علـي، وابـن أبـي عتيـق الحبـاب بـن كعـب الخُزاعي، ويشكراه علىٰ كرمه، متجهيْن إلىٰ ذريح بن سنة الكناني، فيدخل الحباب علىٰ أهل بيته، ويخبرهم خبر الحسين وابن أبي عتيق، وأنهما أتيا ليخطبا لُبْنىٰ لقيس بن ذريح، تقاطعه أم لُبْنىٰ فزعة قبل أن يكمل الحباب قوله:

- أتستشير في حاجة لابن بنت رسول الله، أتقضيها أو لا؟ ماذا دهاك يا حباب؟ والله لو خطبني أنا لقيس لطُلّقت منك له.

- لا تتعجلي القول يا امرأة، إني أعلم أنه الحسين، أعلم.

- وماذا قلت لهما إذن؟

- وماذا عساني أن أقول لابن رسول الله، سوىٰ: ما كنا لنعصي له أمرا، ولا بنا عن هذا الفتىٰ رغبة، وأما ما سمعنا من شعره، فحقنا أمام العرب عند ابن الرسول.

- أحسنت الرأي يا حباب.

تسمع لُبْنىٰ ما دار بين أبويها من حديث، تحتد نبرته تارة، وتخفت أخرىٰ، ويكاد قلبها ينخلع من مكانه، عند كل كلمة ينطق بها الحباب، ولا يهدأ روعها حتىٰ تنجلي لها حقيقة الأمر، ويستبين لها أن الأبوين قد أبديا رغبة في الفتىٰ.

تشعر أن حلمها أوشك أن يتحقق، وقد طُويت كل المسافات التي بينها وبين قيس بمجيء الحسين بن علي، هي الآن ليست ملكًا لنفسها، ولا تدور في رحىٰ الحياة كباقي البشر، هي الآن ملك قيس، هذا الفتىٰ الشاعري الرقيق، هي الآن تدور في فلك الحب، وقد تركت



له نفسها يأخذها إلىٰ عالم العشاق الولهىٰ، ذلك العالم الساحر المسحور، الذي لا يأنس فيه قيس لأحد سواها، ولا يداخل العشق قلبه إلا لها، هي الآن مستطاعة بغيرها، بغير إرادتها، فإرادة الحب لا تقوىٰ علىٰ تغييرها إرادة، مهما كانت قوتها...

- ألم تنطق أشعاره بكل مكنونات قلبه؟

- ألم يسقط كوب الماء من يده حينما نظر في عينيها، تلك النظرة التي تخدر لها جسدها؟ ولم تقو كعوبها وقتذاك علىٰ حمل جسدها.

- ألم تبح له سرًا بما داخل قلبها؟ بغير إرادة منها، ولم يُعلم هو أحدا بذلك السر، الذىٰ لازال خفيًّا.

- ألم يكتم عليها ذلك البوح الذىٰ باحت؟ والذىٰ فيه إزهاق لروحها؟

- أأحد يستحق كل ذلك سوىٰ قيس؟

ها هو لم ييأس، ولم يخضع لإرادة أحد، فمن امتلأ قلبه عشقًا لا ييأس أبدًا، فالعشق ينتصر علىٰ أي يأس وقنوط، وتصفىٰ به الأنفس والأذهان...تدخل عليها أمها، فتنهرها بشدة:

- أي لُبْنىٰ، ألا تسمعين نداءاتي إليكِ، ماذا دهاكِ؟ فتنتبه لُبْنىٰ من شرودها، وتنفك عن قيس الذىٰ أخذها إلىٰ عالمه المسحور:

- أي أم، عذرًا، سمعًا وطاعةً.

تهدأ أمها، وتقترب منها باسمة مستبشرة، وتخاطبها في حب وحنان قائلة:





- علىٰ اليمامة الصغيرة أن تستعد لفراق أمها، فقد حان لها أن تبني عشًا وحدها، وتغادر عش أبيها الذي درجت فيه.

- أي يمامة تقصدين؟ وأي عش ذلك الذىٰ سيُغَادر ليُبنَىٰ غيره؟ لا أفهم عنك يا أماه شيئًا.

- نعم! لا تفهمين أيتها العابثة!!! وأي أبيات تلك التي كنت تنشدين منذ لحظة؟.

أُسقط في يدىٰ لُبْنىٰ، ولم تحر جوابًا، وقد بدا عليها الخجل في ارتباكها، فتواصل أمها الحديث بمكر وسخرية:

- أأخبرك، أم أنك تعلمين؟!

- أأخبرك أن ابن بنت رسول الله، وحفيد أبي بكر الصديق، جاءا اليوم لخطبتك لابن ذريح؟ أفهمت الآن أي عش أقصد أيتها العابثة؟ تدعها لُبْنىٰ، وتهرول إلىٰ مخدعها خجلة سعيدة.

يصل الحسين بن علي، وابن أبي عتيق إلىٰ مضارب بني حذافة الكنانيين، يجدونهم مجتمعين كعادة العرب في نواديهم وأسمارهم، يفعل الكنانيون معه ما فعل الخزاعيون قوم لُبْنىٰ، يتواثبون عليه مسلمين، ويتنافسون علىٰ قضاء حاجته، فيشكر لهم صنيعهم، ويخبرهم أنه جاء قاصدًا ذريح بن سنة، فيثب ذريح نحو الحسين بن علي، فيعظمه إعظامًا، ويستأذن القوم حسينًا وابن أبي عتيق، ويدعونهم وحدهم، فيقبل ذريح علي الحسين في خجل، قائلا له:

- هلا بعث إليّ لآتيك ولو حبوًا يا ابن نبت رسول الله، كيف لمثلك أن يأتينا؟.





- إن لي عندك حاجة، فأنا الذئ آتيك يرحمك الله.
- زادك الله تواضعًا يا ابن رسول الله، وما عهدنا منكم آل البيت إلا مثل هذا الصنيع، وحاجتك إلينا قُضيت مهما كانت.
- أما حاجتنا إليك فقد أُخْبرتها سلفًا، وقد عرضها عليك قيس، وأبيتها عليه أنت وزوجك.

يفطن ذريح إلىٰ حاجة الحسين بن علي، فهو يعلم أن قيسًا قد ذهب إلىٰ المدينة المنورة أمس، فمن المؤكد أنه شكا للحسين بن علي، وأخبره أنني أدفعه للزواج من ابنة عم من أعمامه، لكنه لا يتعجل الأمر، ويسأل حسينًا:

- ما الحاجة يا ابن رسول الله؟.
- هو يريد الزواج من بنت الحباب الكعبي، وقد شكا لنا لوعته، وشكا لنا فعلك معه، وما جئنا اليوم إلا لحاجة قيس، ونحن نطرق باب كرام، فالفتىٰ لم يقترف ذنبًا، ولم يختر غير ذات حسب ونسب، زوجه لُبْنىٰ ثم زوجه بمن شئت بعد ذلك.
- والله يا ابن رسول الله، ما بنا عن الحباب الخُزاعي رغبة، فهو سيد قومه، ولا عن ابنته أيضًا، ولكني رجل موسر، وأود لو ينتقل مالي لأحد من ذوي رحمي.
- ما أبهتها من حُجَّة يا أبا قيس، فأنت تعلم أن المال مالُ الله، يهبه من يشاء، ويجعل مَن يشاء فقيرا، ولا يدري أحدٌ مَن سيرث مَن، أفلأجل مال بائد، وعرض زائل، نضرم النار في جوانح





ذرارينا؟ ومَن لنا غيرهم؟ فهم أكبادنا تمشي علىٰ الأرض، أقسمت عليك يا ذريح إلا خطبت لُبْنىٰ لابنك قيس.

- السمع والطاعة، يا ابن رسول الله، ووالله لا أجادلك في رأي أبدًا، وما مثلك يُرد.

- سآتيك في مجلس سمرك غدًا، لنتم أمر قيس.

- السمع والطاعة يا ابن رسول الله.

يودعه الحسين بن علي وابن أبي عتيق، علىٰ لقاء غدًا، ويدخل ذريح إلىٰ داره، فتقابله رمسة، وتخبره قلقة أن قيسًا في مخدعه، لا يجيب أحدًا، حتىٰ جرول خادمه، فيخبرها ذريح بمقدم أضياف عليه، وأن لهما عنده حاجة بشأن قيس، ثم يقول لرمسة:

- سيخرج منذ الليلة من مخدعه فرحًا مسرورًا، لا تقلقي عليه يا رمسة، أتدري، مَن كان ضيفنا الليلة؟

- مَن؟

- الحسين بن علىٰ بن أبي طالب، وعبدالله بن عتيق حفيد أبي بكر الصديق، وقد آتيا في شأن قيس.

- ابن بنت رسول الله، وحفيد أبي بكر يسألانك حاجة! أورددتهما يا ذريح فتصب علينا غضب الله؟

- كيف يجرؤ أحد علىٰ ذلك، ماذا دهاك يا رمسة؟ أتدري فيما جاءا؟ جاءا ليخطبا لُبْنىٰ بنت الحباب لقيس ابنك.

تُبهت رمسة، وكأن شيئًا أفزعها، فقد فاجأها ذريح بالأمر، ثم تثوب إلىٰ رشدها بعد مدة، وتستعيد قوتها، وتسأل ذريحًا:



- وبم أجبتهم؟

- السمع لهما والطاعة.

- نعم السمع والطاعة، وهل يُرد ابن رسول الله؟ لكن يبدو يا ذريح أن قيسًا عُذب حتىٰ اضطر إلىٰ شكايتنا لابن رسول الله، وهو البار بنا.

- والله يا رمسة ما حملني علىٰ ذلك إلا الحسين بن علي، فلولاه ما كان له إلا ابنة عمٍ من أعمامه.

- وأنا والله يا ذريح كذلك، وليكن ما يكون، إنما هي إرادة الله، لنخبر قيسًا الخبر...

❋❋❋❋





(٦)

الخِطْبة

تدخل رمسة مخدعَ قيس فتلاطفه؛ لتعيده إلىٰ طبيعته المألوفة، وتخبره بأن الحسين بن علي وابن أبي عتيق، قد كانا ضيف أبيه الليلة، فيثب قيس من مكانه قائلا:

- بم أجابهم أبي؟

- أو تدري ما حاجتهما أيها العاق؟ قالت ذلك وعلىٰ وجهها تظهر ابتسامة باهتة.

- نعم يا أماه، فأنا مَن طلب من الحسين بن علي وابن أبي عتيق أن يخطبا لي لُبْنىٰ من الحباب، ويتشفعا لي عند أبي.

- وقد استجابا لك، ولم يردهما أبوك دون قضاء حاجتهما.

يقفز قيس كطفلٍ صغير، ويستعيد كل نشاطه وحيويته، ويحتضن أمه بقوة، تشعرها كم هي ضيقت وذريح علىٰ ابنهما.

أما قيس فيشعر أنه قبض علىٰ ناصية السعادة، وأن هذه الأرض لا تحوي سعيدًا فرحًا مثله، فهو منذ الآن سيمتلك أحب الناس إلىٰ قلبه، سيمتلك لُبْنىٰ بن الحباب الكعبي، وتراه رمسة يقفز كطفل صغير، وقد امتلأ وجهه بشرًا، فتقول له:

- التمس لأبويك يا قيس العذر، فأنت أحب الناس إلىٰ قلبينا، ويشهد الله ما أردنا مضايقتك بُني، إنما ما أردناه





أخبرناك به، وعلىٰ كلٍ فقد انتهىٰ الأمر، وهنيئًا لك لُبْنىٰ بنت الحباب الكعبي.

يبتسم قيس لأمه، ثم يقول لها ضاحكًا لاهيًا:

- الهناء والسعد لا يكتمل إلا برضا الشيخ ذريح وزوجه رمسة، وها هي رمسة زوج الشيخ، فلم يبق سوىٰ الشيخ، أين هو يا أم قيس؟

- الشيخ هو مَن أرسلني إليك لتهنئتِك يا بُني، فلنذهب إليه.

يقبل قيس علىٰ أبيه، ويُقبّل يده، يحتضنه الشيخ حضنًا دافئًا، وكأنه يعتذر فيه لقيس الذىٰ يشعر بهذا الدفء الصادق.

يمتطي قيس صهوة جواده بصحبة خادمه وصديقه جرول، وكعادته في ترحه وفرحه، يمم وجهه شطر بادية الحجاز، يلهو ويعبث ويطارد الحيوانات، أو يهيم علىٰ وجهه ينوح وينشد شعرًا، أما اليوم فهو أكثر الناس سعادة، وأكثرهم فرحًا، وهل بعد خطبة لُبْنىٰ شيء أكثر فرحة وسعادة يمكن أن تصيبه؟ حتىٰ إذا استراح في ظل شجيرات البوادي، ينظر إلىٰ جرول، ويقول له:

- يا جرول الخير، قد أشرت عليّ سلفًا برأي سديد، وقد أخذت به، حيث ذهبت المدينة المنورة، واصطحبت ابن أبىٰ عتيق وقابلنا الحسين بن علي، وأخبرته الخبر، فقال: أنا أكفيكهم، وجاء بصحبة ابن أبي عتيق، وقضىٰ حاجتي عند أبي، وعند أبي لُبْنىٰ، فكيف لرجل يقدّر محبيه أن يكافئ خادمه المحب له؟



يشعر جـرول بـالزهو والفرحـة، فقـد تسـبب في إسـعاد سيده بعـد حزن طويل أصابه، فيرد عليه:

- إن مكافأة السيد لخادمه، هي رضاؤه عنه، يا سيدي، فقد كنت تقطّع نياط قلبي، وما كنت أحب أن أراك حزينًا قط، فأنا في خدمتك منذ أن كنت صغيرًا، فقد اشتراني سيدي ذريح، أنا وجارية تسمىٰ تَيماء، كانت تحملك علىٰ ذراعيها، وأنت طفل صغير يا سيدي، وتأتي بك أطراف البادية، حيث الهواء الطلق والنسيم العليل، الذىٰ يشفي الصدور، وقد ماتت تَيماء بسهم غرِب، لا يُدري مَن أطلقه، ولازمتُك بعد موتها حتىٰ اللحظة، خادمًا محبًّا مطيعًا مخلصًا، يستمع قيس لخادمه في تواضع يحبه فيه جرول، ويحمده له، ثم يقول له:

- يا جرول أنت لست خادمًا، أنت منذ اليوم صديقي، وحتىٰ يتم لي ولك ذلك، فأنت منذ اللحظة حرٌّ طليق، أنت حرٌّ يا جرول، قد أعتقتك، ورددت لك زمام أمرك، لم يتمالك جرول نفسه، فتتساقط دموعه غزارًا، ويقول لقيس: ما رأيت سيدًا أسخىٰ منك يا سيدي، ولا أجزل عطاءً، يرد جميلا صغيرًا، بأن يهب عبدًا حياته، ولكني أردّ لك زمام أمري، حتىٰ تدخل بسيدتي لُبْنىٰ، وتكتمل فرحتي.

- قد أوفيت يا جرول، فأنت حرٌّ إذن في الليلة التي أدخل فيها علىٰ لُبْنىٰ، وعليك منذ اليوم أن تبحث عن عروس لك، فمهرها عليّ.





يمازح جرول سيده، ويقول في أسلوب فكه مضحك:

- عليك يا سيدي أن تزوجني بجارية سيدتي لُبْنىٰ، فمنذ أن رأيتها، وأنا لا أطيق عنها صبرًا، ولا طاقة لي بالبعد عنها، فاقض لي حاجتي، ثم ينشد قول قيس في لُبْنىٰ:

وإنِّي لمشتاقٌ إلىٰ ريحِ جيبها كما اشتاقَ إدريسٌ إلىٰ جنَّة الخُلْدِ

يقهقه قيس من ممازحة خادمه جرول، حتىٰ يوشكَ أن يلامس وجهه الأرض، ثم يقول له:

- لك كل ما شئت يا جرول.

- لك ما شئت، أيها الوفي...

كان جرول قد أعد شواءً من صيد اصطاده قيس، وكان قيس قد اعتاد أن يصطاد ظباءً، لكن بعد عشقه للُبْنىٰ كف عن صيدها؛ لأن فيها شبهًا بلُبْنىٰ، وحرَّم صيدها ولحمها علىٰ نفسه، يتناولان شواءهم كصديقين حميمين، ويأكل قيس كأنه لم يأكل منذ أمد بعيد، ثم يتباريان في نظم القصائد، حتىٰ إذا أذنت الشمس بالمغيب، وضعف نورها، انطلقا راجعين، ليجد قيس أباه قد دعا وجهاء قومه، منتظرًا مجيئ الحسين بن علي.

أقبل المساء، وأقبل معه وجهاء بني كعب، بعد أن دعاهم ذريح، وأعلمهم أن الحسين قادم، ومعه ابن أبي عتيق؛ لصحبتهم إلىٰ ديار بني كعب الخزاعيين؛ لخطبة لُبْنىٰ بنت الحباب إلىٰ قيس ولده، وكان قد قص عليهم سبب مجيء الحسين وابن أبي عتيق سلفًا، فاستبشر



كثير منهم بذلك، ولبّوا دعوة ذريح علىٰ وجه السرعة، واجتمعوا الليلة عنده في انتظار الضيفين الكريمين.

يقبل الحسين بن عليّ وصاحبه، علىٰ ديار بني كعب، فيجد القوم في انتظارهما، فيحييهم مبتسمًا، فيتواثبون عليه مسلِّمين، ومباركين قدومه عليهم، فوجوده في صحبتهم يزيدهم بركة وشرفًا، فينطلق القوم جميعًا، وعلىٰ رأسهم الحسين بن عليّ، حتىٰ أتوا ديار بني كعب الخزاعيين، وكانوا في استقبالهم، وقد دعا أيضًا الحباب وجهاء قومه، بعد أن أخبرهم بما حدث من الحسين، وما اشترطه هو عليه، فرضي قومه، وجاءوا دعوته ملبين فرحين، وقد أولم الخزاعيون الولائم لأضيافهم، ونحروا لهم الإبل، حتىٰ إذا طعم القوم ورضوا، تقدم الحسين بن عليّ ومعه ذريح بجواره، فيخطب الحسين في الناس خطبة قصيرة، ثم يقدم ذريحًا، الذي خطب لُبْنىٰ لابنه قيس، علىٰ مرأىٰ ومسمع من قومه وقومها؛ ليسجل التاريخ واحدة من قصص العشق القليلة التي انتهت بزواج العاشقيْن...

❊❊❊❊



(٧)

السعادة المُطلقة

أيامٌ قلائل جدًا تلك التي فصلتْ بين خطبة قيس، ودخوله بلُبْنىٰ، وكانت تلك رغبة الحباب بن كعب، التي أسرَّ بها لابن أبي عتيق؛ ليخبر بها ذريحًا؛ حتىٰ ينشغل قيس بإعداد حاجاته اللازمة لزواجه، ولا يكثر من الزيارة، والمكوث عند لُبْنىٰ في دار أبيها، فيفضحه بين العرب، حتىٰ قيس نفسه لم يشأ يسبب حرجًا إلىٰ الحباب، الذىٰ جاد عليه بمهجةِ قلبه، ولم يزر لُبْنىٰ في دارها كثيرًا، ولضيق الوقت راح كلٌّ يعد شأنه ليوم العرس، لُبْنىٰ تتزين بأجمل الحليّ، وقيس يعد داره لاستقبال أجمل عروس، وقد كفىٰ العبدان بإشراف ذريح كل حاجيات قيس، أما هو، فكعادته يمَّم وجهه نحو البادية...

يَهمِزُ قيسٌ فرسه في عنفٍ علىٰ غير عادته، ويصيح بها كأنه خرج لمقاتلة عدو، حتىٰ إن فرسه من شدة عدوها راحتْ تثير حولها غبارًا كثيفًا، وتناثر تحت حوافرها الحصىٰ المتطاير يمنة ويسرة، وكأنها أحسَّتْ بما في قلب قيس من اضطراب ووهج، حتىٰ إذا وصلتْ إلىٰ مكان قيس المعتاد، هدَّأت من سرعتها، وراح هو يتأمل في الأرض المُعشبة حوله، ويلمس قطرات الندىٰ، التي لا تزال تلمَع تحت ضوء الشمس في ثنايا الأعواد، وفي ثغور أزهار الأقاحي والعَرار، فملأ قيس صدره من الهواء الطلق، وكانت السماء الزرقاء صافية، كأنها قد



غُسلت بماء صافٍ، فدبَّتْ الراحةُ والهدوء رويدًا رويدًا إلىٰ قلبه، ثم راح ينشد أشعاره في لُبْنىٰ، حتىٰ استرخىٰ جسده، وأخذته سِنةٌ من النوم، لم تطل كثيرًا حتىٰ استيقظ في خمولٍ علىٰ صوت حوافر تضرب الصخر بأقدامها، فقد سنحَ أمام عينِه سربٌ من الظِباء الرشيقة علىٰ مرمىٰ سهمه، يبرق بياضها، يظهر ثم يتوارىٰ، يتواثب في خفةٍ ورشاقةٍ، متنقل من طريق إلىٰ طريق آخر، فهمز قيسٌ فرسه، ودكَّه في بطنه بقدمه دكَّة شديدة، فانطلقتْ الفرس إلىٰ قصدِها تعدو بشدة، وما كاد السرب يحس المُطارَدة حتىٰ انطلق يهيم في الصحراء الفسيحة تعلو به وتهبط، والخوف بادٍ عليها، يجعلها لا تحدد وجهةً بعينها، وعدا قيس بفرسه خلفها، تارة يطاردها عن يمينها، وتارة أخرىٰ يطاردها عن يسارها، حتىٰ اضطرب السرب وتشتَّت، فلا منجا لهذا السرب اليوم من سهام قيس الثائر، فانطلقتْ بكل قوتها، تضرب بحوافرها الأرض، حتىٰ أوشكت أن تختلط أقدامها ببعض، والفرس يشتد عدوها، حتىٰ إذا كانت أثقلهن لحمًا من مرمىٰ سهامه، جذب قوسه، وسدد الرَّمْيَة إليها، فخرَّت تفحص الأرض بقدميها الدقيقتين، حتىٰ إذا وصل عندها، ظل ينظر إليها ويتأمل جمالها الأخّاذ، وهو يردد أبياتًا من شعره العذب...

كان ذريح قد أتم استعداده للمدعوين، وأمر الخدم بتجهيز الولائم، وأن ينحروا من الإبل ما يكفي قومه ومثلهم معهم، فالخير وفير، والشيخ سخي كريم، حتىٰ إذا اطمأن بنفسه علىٰ سير الأمور، هدأ وعاد إلىٰ داره يريح بدنه.



يسأل ذريحٌ عن قيس، فيخبره الخدم أن سيدهم امتطىٰ صهوة جواده باكرًا، ويمم وجهه تجاه البادية التي لا يجد عنها بديلا حتىٰ أيام زفافه علىٰ لُبْنىٰ، وقد عرضوا عليه أن يصطحبه أحدهم ليقوم علىٰ خدمته فأبىٰ، وذهب بمفرده، يتعجب ذريح من قيس، ويتمتم:

- لله درك يا قيس، ما رأيت منك اليوم إلا عجبًا، كيف لفتىٰ أن يترك أباه يعد له شأنه؟ تراه رمسة، وتقترب منه، وتسأله:

- أرأيت يا ذريح قيسًا؟ فقد صار كطائر يوشك أن يستقبل السماء بجناحيه فرحةً، أوكنا ظالميه حين أبينا عليه ابنة الحباب الكعبي؟

- وأيم الله لا أدري يا رمسة، لكن أخشىٰ ما أخشاه أن تلهيه زوجه عن كل شيء ذي قيمة.

- أنا موقنة يا ذريح أنها ستلهيه عن كل شيء، حتىٰ عن نفسه، وعن ركضه إلىٰ البادية، التي يأنس في الذهاب إليها، وعن كل شيء، وبيني وبينك الأيام يا رجل.

- نعم، أظنه كذلك يا رمسة، تجدها رمسة فرصة، فتواصل:

- فقيس رقيق المشاعر، يبدو حالمًا دائمًا، علىٰ الرغم من تعلمه الفروسية التي تلزمه بصفاتها، والتي اتقنها جيدًا، فقد مرَّ علىٰ خطبته اليوم أسبوع كامل، لم نر فيه الفتىٰ إلا في البادية، يتنسَّم روائح بنت الحباب، أو في مخدعه، ينظم فيها شعرًا، والعبدان يكفونه شأنه، من مأكل ومشرب، فكيف سيكون حاله بعد أن يدخل بها؟.



- دعيه يا رمسة، فليمكث في أي مكان ما شاء، ولنكفه نحن كل شيء، فالمال ماله، وقد رزقنا الله به بعد أن أصابنا الكبر، والفتىٰ بنا بار وعلينا شفيق رحيم، وليس لنا عنده حاجة سوىٰ بره وحنوِّه علينا، دعيه يفعل ما يشاء.

- أتذكر يا ذريح يوم عرسنا، يوم أن غادرتني في اليوم الثاني؛ لتتجر مع أبيك سنة بن حذافة، وقد تركتني أسبوعًا كاملا، وقلبي يتحرّق عليك شوقًا ولوعة، أتذكر تلك الأيام الخوالي؟

يبتسم ذريح ابتسامة ضئيلة، وقد أعادته رمسة لأيامه الخوالي التي ولَّتْ بغير رجعة، فيداعبها، قائلا:

- ألم ألهك بعد هذا الأسبوع عن كل شيء أيتها المرأة العجوز؟ ألم أنسك حتىٰ اسمك؟ فقد كنت ظمئًا إليك، وإلىٰ كل شيء فيك، وقد كنت أيضًا قويًا يافعًا، أتنكرين يا امرأة؟ لا أظنك تنكرين، فلا زلت تذكِّرينني بتلك الأيام السالفة...

- ومن ينكر يا أبا قيس تلك الأيام الخوالي، وأنا أدرك لولا حاجة أبيك إلىٰ المال ما تركتني لحظة، أما قيس فوجد أبًا كريمًا يكفيه مؤنة الحياة، وشدتها...قالت ذلك وقد ضعف صوتها، واغرورقت عيناها بالدمع، ينظر إليها ذريح فإذا بدمعات ينحدرن علىٰ خد رمسة، وهي تنظر إليه بعينين يحملان همَّ شيءٍ ما، تشعر به في قرارة نفسها، ولا تعرف كنهه، يقترب منها ذريح، وقد شعر بما يدور بين جنباتها، وبعد تردد يضمها إلىٰ صدره في رقة وحنان، وتجد هي علىٰ صدره مستراحًا من ذلك الهمِّ الجاثم



علىٰ صدرها كجمل عجوز، ثم يقبلها ذريح بين عينيها، ويهمس إليها بكلمات تزيل ذلك الهم الجاثم...

كانت مراسم الزواج قد انتهتْ، وأطعم ذريح ما لم يُطعِم من قبل، فقد أمر العبدان بنحر عشرين ناقة مكتنزة اللحم، غير الشياه السمينة، ليطْعَم منها كل غاد ورائح من البشر، حتىٰ طيور السماء كان لها نصيب في ولائم ذريح، كان يومًا عظيمًا، لكل من شهده، طعم فيه الطاعمون، وتمتع فيه اللاهون، وتناشد الشعراء من شعر قيس وغيره، وتبادلوا الطرائف الممتعة، حتىٰ المؤرخين أرَّخوا ليوم زواج قيس من لُبْنىٰ، فهي من أولىٰ قصص العشق التي توُجت بالزواج عن رضا من كل الأطراف، لكن لم تكن زيجتهما هي نهاية قصة هذين العاشقين...

أبلىٰ جرول في تلك الأيام بلاءً حسنًا، فلم يبق من جهده شيئًا لراحة سيده إلا فعله، فكأنه أراد أن ينهي خدمته له علىٰ ما يرام، حتىٰ إذا دخل سيده بلُبْنىٰ نال هو حريته، وصار حرّا طليقًا، لكن قلبه لا يطاوعه بأن يترك سيده وصديقه قيس، لأجل ذلك لأىٰ جرول علىٰ نفسه ألا يغادر مكانًا فيه سيده، فسيظل علىٰ حريته يخدم سيده ولا يفارقه، وليبني داره بالقرب من دار قيس...

اليوم هو يوم العرس، يوم فرحة قيس ولُبْنىٰ، فهما الآن تضمهما دارٌ واحدة، بعيدًا عن أعين الرقباء والوشاة، بل ويضمهما مخدعٌ واحد، إذ يأخذ قيسٌ عروسه ويخلو بها في مخدعه الجديد، وقد أعدته الجواري كأحسن ما يكون، وجعلن في أركانه الطيب، ونثرن الرياحين





في كل مكان، وجمَّلوه بكل شيء جميل، ورششن روائحَ طيبة علىٰ الفراش، فصار المخدعُ جنةً صغيرة، ازدانت بدخول لُبْنىٰ فيها...

يخاطب قيس لُبْنىٰ:

- ها نحن يا لُبْنىٰ يضمنا مخدع واحد، وفراش واحد، لن يعكر صفونا فيه أحد، نحن اليوم دخلنا جنة الدنيا، التي لن ينازعنا فيها أحد، فأنت الجنة يا لُبْنىٰ بخمرها وعسلها وثمرها ولذتها التي لا تفنىٰ، لقد تعذبت بك كثيرًا يا مهجة القلب، وقد شاء الله أن ينهي كل تلك العذابات، وأن يربطني بك رباطًا كالعروة الوثقىٰ لا تنفصم أبدًا، ثم ينظر قيس في عينيها نظرة عميقة قد ملأها الشوق والحب، ويداعب بأنامله خصلات شعرها الأسود الفاحم، المنساب علىٰ عاتقها، يتأمل كل جزء من جسدها البضّ الطّري، يضمها بقوة وحرارة إلىٰ صدره، فتلفح أنفاسها العطرة وجهه، فتسكره، وتدغدغ مشاعره، وتسري في جسديهما حرارة، توشك أن تحرقهما معًا، فتزداد ضغطة ذراعيه حول جسد لُبْنىٰ الناعم، فيلامس صدره صدرها المكتنز، فيشعر به وهو يترجرج بقوة وعنف، وقد ازدادت سخونته، وأوشك أن يقطِّع كل قيوده، وينطلق كفرس جامح...

لا يتمادىٰ قيسٌ أكثر من ذلك، فهو ظمآنٌ إلىٰ قلب لُبْنىٰ أكثر من ظمئه لجسدها، فليشبع غُلَّة قلبه أولا، ثم ليشبع غُلَّة جسده بعد ذلك، فيهمس في أذنيها بكلمات رقيقات عذباوات، ينساب لها جسد لُبْنىٰ ويتخدَّر، ثم يرخي قبضة ذراعيه عن جسدها، ويبتعد عنها قليلا؛ حتىٰ



يستعيد كلٌ وعيه، وتخفتْ حرارةُ جسديهما، ثم يقول لها وقد استعاد كل واحد منهما وعيه:

- أنا لا أصدق يا لُبْنىٰ أن هذين الشتيتين قد اجتمعا في مخدع واحد، لا يزعجهما فيه بشر.

- ولا أنا، ما كنت متصورة لحظة يا قيس أن من الممكن أن أكون في مخدعك.

- لقد سلبت مني عقلي حينما قدمت لي ماءً باردًا أول مرة، لم أدر أن جمالا في البادية كجمالك يُخفىٰ، ولا يعلم به أحدٌ، وأنت تدرين ما يعيشه معظم الفتيان من فراغ ولهو، وهذا ما أقلقني أن تكوني مخطوبة لأحدهم، أو حتىٰ تميلين مجرد ميل لأحد.

- بل أنت مَن فعل ذلك بي، أتذكر عندما رأيتني أول مرة، شعرت بك، وقد بُهتّ، أدركت تمامًا أن الحب قد داهم قلبك، لأنه في هذه اللحظة قد داهمني أيضًا، والنساء أدري من الرجال بذلك، فقلوبهن هواء، وعواطفهن حارة صادقة، وإذا أحببن أخلصن.

- أحبك يا لُبْنىٰ حبًا لو وزعوه علىٰ أهل الحجاز لكفاهم، لكم ضاق صدري، وجثم الهم والحزن عليه، حتىٰ قيّض الله لي ذلك العبد المخلص: جرول، وقد أرشدني إلىٰ الحسين بن عليّ، الذىٰ لا تُرد له عند أحدٍ حاجة، فأوقعني الله فيه، وفي ابن أبي عتيق، حفيد أبي بكر الصديق، فألانا قلب الشيخين، وكفانا عنادهما.





- عدني يا قيس أن تظل وفيًا لي، ولا تنقص حبك لي أبدًا، فأنا لا أقوىٰ علىٰ الحرمان منه، فهو زادي في حياتي، وعدني ألا تفارقني أبدا، فأنا لا أقوىٰ علىٰ فراقك.

قالت له ذلك، وكأنها تعلم ما تخفي لهما الأيام القادمة، ثم أطلقت زفيرا من قلبها قويًا، وكأنها تطرد معه كل الهموم التي تخشاها، ثم راحت تنشد قيسًا من أشعاره الكثير، وتخبره أنها تحفظ من شعره أكثر مما يحفظ هو، يبتسم قيس ابتسامة رقيقة عذبة، يهدئ بها من روع لُبْنىٰ، ثم ينظر في عينيها، ويضمها بقوة نحوه، لكن قبضة ذراعه لا ترتخي هذه المرة، بل تزداد قوة وعنفًا...

ظل قيس ولُبْنىٰ ينهلان من الحب، ما أراد الله لهما أن ينهلا، لا يعكر صفوهما شيء، ولا يضيق عليهما أحد، وقد كفاه الخدمُ كل شيء، وكفىٰ الجواري لُبْنىٰ كل شيء، وكفاه أبوه مؤنة عيشهما.

عامان مرَّا علىٰ زواجهما، وكأنهما بضعة أيام، أذاقتْ فيهم لُبْنىٰ قيسًا معنىٰ الحب بكل صوره وألوانه، فبجمالها الأخَّاذ، وصوتها الندي، وجسدها المفتن، سلبتْ عقله حتىٰ لم تبق فيه فضلةً، وشغلت وقته حتىٰ لم يعد يفكر في شيء سواها، حتىٰ هوايته التي يدمنها، لم تعد تعنيه في شيء، ولم يعد يهش لممارسة الصيد والمطاردة، بل لم يعد يولي وجهه شطر البادية أصلا، اللهم إلا مرة واحدة، وقد طلبتها منه لُبْنىٰ، فقد صارت لُبْنىٰ هوايته وقبلته التي يمم وجهه نحوها، وأذاقها هو طعم الحب الصادق، الممزوج بالدفء والحنان



الخالصين، لا يشاركها فيهما أنثىٰ غيرها، حتىٰ الجواري اللاتي كان من عادة العرب التسرِّي بهن، ليس لهن في حياة قيس مكان، ولعل ما قال قيس اختصر ذلك كله، فقد جمع بين الحب المعنوي الراقي، وبين الحب الحسِّي اللذيذ حين قال واصفًا لُبْنىٰ أجمل وصف وأرقه:

إذا عِبْتُها شَبَّهْتُها البَدْرَ طالِعًا　　　وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ لها شَبَهُ البَدْرِ

لقد فُضِّلتْ لُبْنىٰ علىٰ الناسِ مثلما　　　علىٰ ألفِ شهرٍ فُضِّلت ليلةُ القدرِ

سألته لُبْنىٰ ذات صباح، وقد استشعرت خطر بقاء قيس في الدار ليل نهار، وأثر ذلك علىٰ نفس والديه، خاصة رمسة، وقد أرادته أن يستأنف حياته كما كانت قبل حلولها الدار، حتىٰ لا تظن أمه أنها هي مَن أبقته، خاصة وأنها لم تنجب إلىٰ الآن، فهذا سيؤلب عليها رمسة، ويجعل ذريح يعرض علىٰ قيس إحدىٰ بنات عمه، وكأنها تستقرئ الأحداث، فتقول لقيس:

– يا قيس، لك اليوم مدة طويلة لم تذهب البادية، أتراك كرهتها، أم لم يعد الصيد يغريك فيها؟

– أأذهب وأدعك يا لُبْنىٰ نهارًا كاملا، كيف؟ فلا طاقة لي بذلك.

– لا تحرم نفسك من متعة الركض والصيد بفرسك، وانطلق حتىٰ لا يقال ألهته لُبْنىٰ حتىٰ عن هوايته وغوايته.

– ما ألذ ذلك عندي يا لُبْنىٰ، ليعلم كل العرب أنك شغلتني عن كل شيء، عن نفسي وعن هواياتي، بل عن حياتي كلها...تلح عليه في الذهاب إلىٰ البادية، لكنه يأبىٰ، فتلح عليه مرة ومرة، حتىٰ يلين لإرادتها، فيقول:



- بشرط.
- وما هو؟
- أن أصطحبك معي إلىٰ البادية، ونقضي يومًا في إحدىٰ الروضات، حيث الهواء الطلق، والنسيم المنعش، ونصطاد من حيوانات البادية، ونأكل من شوائها معًا، تقلق لُبْنىٰ من فكرة قيس، وما ستجرّه من عواقب، فهي تريد أن تبعده عنها؛ حتىٰ لا يُقال أن لُبْنىٰ استأثرت بكل شيء في قيس، لكنها تحت إلحاحه ترضىٰ.

يأمر قيسٌ العبدان بتجهيز مكان ظليل يأوي الحبيبين، وكعادة الطبيعة في البادية، أنها ساحرة، فالسماء صافية، والنسيم منعش، وجداول الماء رقراقة، والأزاهير والنوار تفوح روائحهما الطيبة المنعشة في مكان، جلسا في روضة من تلك الروضات التي تُصنع في البوادي، نتيجة سقوط المطر غزيرًا في وادٍ من الأودية، فاجتمع في وقت واحد: جمال الطبيعة، مع جمال لُبْنىٰ، مع شاعرية قيس الرقيقة العذبة، وهذا جعل ربة الشعر تمد قيسًا بما لم تمد به عاشقًا قبله، فلم تبخل عليه في معنىٰ عذب رقيق إلا أمدته به، وهو ينظم أعذب القصائد وأرقها، ويقول بصوت عالٍ، حتىٰ انتشت لُبْنىٰ، وانتشت حولها الطبيعة كلها، فما كان من لُبْنىٰ إلا أن ضمَّته إلىٰ صدرها ضمَّة عنيفة، ولولا الحياء ما كان يمنعها من التمادي مانع.

قضيا نهارًا ممتعًا جميلا، حتىٰ إذا أوشكت الشمس علىٰ المغيب رجعا إلىٰ مخدعهما، وقد حدث ما كانت لُبْنىٰ تخشاه، فهي امرأة،





وتدرك طبائع النساء، فهن مجبولات على الغَيرة، لأقل سبب من الأسباب؛ لذا كثيرًا ما كانت تدفع قيسًا أن يتركها يومًا أو بعض يوم، فلما انشغل قيس بلُبْنىٰ عن كل شيء، وهو الشديد البر بأبويه، يوقر ذريحًا ويجلّه، ولا يعصي له أمرًا، ويحنو علىٰ رمسة ويجلّها، أثار ذلك نفس هذين الشيخين، وخلق صراعًا عنيفًا في نفسيهما، بين حب قيس وحيدهما، الذي غاية مناهما أن يرياه سعيدًا شأن أي أبوين، وها هو السعادة كلها بين يديه، وبين استحواذ لُبْنىٰ علىٰ كل مشاعره وفيض حبه، وهما أولىٰ بذلك منها، أو حتىٰ يشاركاها فيه، صراعٌ شبّ في النفس ضعيف فاتر، يظهر ويختفي، يظهر إذا غاب عنهما قيس، وافتقداه، حيث ينشغل بحاجة للُبْنىٰ، أو بحب لُبْنىٰ، ويختفي إذا أعان أباه ذريحًا في تجارته، وانشغل بها معه، وهذا لا يحدث إلا نادرًا، وإن حدث فبعض يوم، ثم يعود أدراجه حيث لُبْنىٰ، ويختفي أيضًا إذا جلس مع رمسة يحادثها ويلاطفها كعادته، بين هذا وذاك، يظهر هذا الصراع ويختفي في نفس الشيخين، دون أن يبوح أحدهما للآخر، لكن يظل ينمو ويكبر في نفس رمسة، تارة ببطء شديد، وتارة بسرعة، لكن لا يتوقف أبدًا.

بدأتْ الغَيرة تكبر في نفس رمسة، ولم تعد تقدر علىٰ كبح جماح نفسها، وبدأ هذا الصراع يشتعل في جنباتها، وإذا انشغل قيس بلُبْنىٰ دونها، ترىٰ النيران قد تأجّجت بين جوانبها، لكن لا تجد رمسة سبيلا إلىٰ إخراج كل ذلك الغيظ وتلك الغَيرة، فقيس سعيد، والحياة تسير، وذريح لا يتكلم، ولازال قيس يبرهما، وإن تشاغل عنها بلُبْنىٰ كثيرًا بيد



أنه لا ينساها أبدًا، فكيف السبيل إلىٰ تنفيس كل ذلك الغليان الذي تشعر به في جنباتها؟ تمرُّ الأيام ثقيلة علىٰ نفس رمسة، سعيدة علىٰ نفس قيس ولُبْنىٰ، بين بين علىٰ نفس ذريح، حتىٰ يحدث ما يعين رمسة علىٰ إخراج كل ما في نفسها من نار، وعلىٰ استخدام كل أسلحتها ضد لُبْنىٰ بلا رفقة ولا هوادة، حتىٰ ينتهي الأمر إلىٰ ما لا يحمد عقباه...

يشعر قيس ذات يوم بفتور شديد، وفقدان للشهية، وارتفاع في حرارة جسده، تنتابه تلك الأعراض بين فينة وأخرىٰ، فيظل معها فاترًا، ثقيل الحركة، قليل النشاط، ثم تراه يصحوا، فيغوص في مقلاة الحياة كغيره من البشر، ومع مضيّ الأيام، وإهمال نفسه، تتمكن من جسده هذه الأعراض، ولكن لا تغادره هذه المرة، فيثقل عليه المرض، وترتفع حرارته، وينهار جسده كله، حتىٰ لا يقوىٰ علىٰ الحركة، وما كان ذلك إلا لحمىٰ أصابته، وتغلغلت في كل أعضائه.

رقد قيس طريح الفراش، لا يقوىٰ علىٰ حركة، ولا يقوىٰ علىٰ حديث، فقط صار ككومة من اللحم هامدًا، صدره فقط الذي كان يتحرك، ولا يكف عن الصعود والهبوط، ولا يكاد يسحب أنفاسه إلا بصعوبة، فالحمىٰ التي أصابته شديدة فتَّاكة، صار معها قيس كفرخٍ صغير قد بلله المطر، لا حول له ولا قوة.

لم يبق في الدار أحد إلا وجزع علىٰ قيس جزعًا شديدًا، أما لُبْنىٰ فلا تراها إلا باكية تندب حظَّها، وقد شحب لونها، وخفَّ لحمها، فلم تعد لُبْنىٰ الغضَّة الطريَّة التي تبرق أساريرها، إنما صارتْ لُبْنىٰ التي





تحمل الهمَّ، والذي يشيب معه صاحبه قبل المشيب، وكانت رمسة وذريح لا يقلان عن لُبْنىٰ جزعًا وخوفًا علىٰ قيس، فبموته سينقطع نسل ذريح؛ لذا لم يفارق الثلاثة مخدع قيس ليلا أو نهارًا، اللهم إلا ذريحًا الذىٰ كان يقضي بعض حاجاته، ويهرول عائدًا إلىٰ الدار حيث قيس المريض.

استدعىٰ ذريح أشهر أطباء الحجاز، الذين اتفقوا علىٰ أن حمىٰ شديدة قد أصابتْ قيسًا، ولابد من أن يبترد جسده بالماء البارد كل فترة وأخرىٰ، إضافة إلىٰ استعمال بعض الأعشاب التي من شأنها أن تخّفف من وطأة المرض، ظل قيس شهرًا كاملا والحمىٰ تعصر جسده عصرًا لا لِين فيه، حتىٰ إن رمسة كانت تتوقع نهايته في كل لحظة، وكلما تخيّلت أن الدار بلا قيس، زاد همها وغمها، حتىٰ صار جسدها هزيلا ضعيفًا، وبدأ كرهها للُبْنىٰ يتسرب إلىٰ نفسها رويدًا رويدًا، فتدفعه دفعًا، ولا تسمح له بأن يتمكن من قلبها الآن، فلا ذنب للمرأة في ذلك.

تظل الأفكار تراودها، وتغزو عقلها، وهي تقاومها مقاومة عنيفة، فلا أمر يشغل قلبها أكثر من قيس ومرضه الشديد، تدفع كل تلك الهواجس، وتصب اهتمامها علىٰ ابنها المريض، ولعل ما اضطرها إلىٰ ذلك ما رأته من إخلاص لُبْنىٰ لقيس، وجزعها الشديد عليه، فقد كانت لا تفارق مضجعه ليل نهار، إما تبرد جسده بالماء، أو تصب في فِيه عُصارة عشبٍ من أعشاب البادية التي أخبر بفائدتها الأطباء، أو تحتضنه برقة، واضعة رأسه علىٰ صدرها بكل رفق ولين، وهي لا



تنسىٰ ذلك اليوم الذىٰ دخلت فيه مخدع قيس فوجدت لُبْنىٰ تضع رأس قيس علىٰ صدرها، وتدعو الله هامسة أن يشفيه شفاء لا يغادر سقما، وألا يفجع الله قلب رمسة تلك المرأة الطيبة في ابنها قيس، ولا يفجعها هي في زوجها الحبيب، فلُبْنىٰ إذن صافية النفس والقلب، فلمَ تحمل لها رمسة كل ذلك البغض؟! تلوم رمسة نفسها، وتحاول أن تمحوا منه كل ما علق به، لكن...

بحسن الرعاية، وبمرور الوقت، بدأ جسدُ قيس ينتعش، وتهدأ حرارته، ورويدًا رويدًا أخذ يستعيد وعيه، وبدأتْ مرحلة الشفاء تقبلُ ببطء نحو قيس، حتىٰ بدأ الجميع يوقن أن الشفاء التام لم يعد بعيدًا عن قيس، وبدأت الحركة والنشاط يعودا إلىٰ الدار، ويستعيد كلٌ ما فقد من عافية، وبدأت النضارة تعود إلىٰ لُبْنىٰ، وبدأ عُوّاد قيس يعودونه، يحدثونه ويحدثهم، ولم يكن يرغب في مقابلة أحد من عُوّاده قبل ذلك، لا رغبة عنهم، بل كان شبيهًا بفاقد الوعي، الذىٰ لا يعي شيئًا، ولا يعرف أحدًا، وكان أكثر الناس فرحًا بشفاء قيس هو جرول خادمه المخلص، الذىٰ عانقه معانقة صديق حميم، وأبان له كيف كان حاله، أثناء مرضه، فقيس مَن قد أنعم عليه بحريته، ومَن أعانه علىٰ بناء داره، ومَن زوجه بإحدىٰ جواري أبيه ذريح، فلمَ لا يحب قيسًا؟ فهو لا يقلّ في حبه له عن حب لُبْنىٰ.

كل شيء عاد إلىٰ طبيعته بشفاء قيس، إلا نفس رمسة، فقد ازدادت هواجسها وأفكارها، وأخذ بغض لُبْنىٰ يستقر في نفسها، خاصة بعد تمام شفاء قيس وإقباله علىٰ لُبْنىٰ إقبال ظمآن في فلاة علىٰ الماء



العذب البارد، فاستغلّت رمسة مرض قيس استغلالا حسنا، واستطاعتْ أن تغرس بذرةً من البغض في قلب ذريح ضد لُبْنىٰ، وضربتْ بقوةٍ علىٰ وتر: مَن سيكون وريث قيس وذريح؟.

بدأ الشيخ ذريح في ممارسة حياته المعتادة، حيث العمل في تجارته نهارًا، والذهاب إلىٰ أندية قومه كعادته، يقضي فيها جزءًا من الليل، ثم يعود، فيدخل مخدعه لينام، وقد يجد رمسة في انتظاره وقد لا، أما اليوم فبرغم تأخره في سمره بيد أنه يجد رمسة في انتظاره، والقلق بادٍ عليها، وهي تحاول أن تخفيه عنه، لكنها لا تستطيع، فيخاطبها ذريح مبتسمًا:

- ما بالك يا رمسة، ما الذىٰ أسهرك وأقضّ مضجعك؟ ألا تعلمين أنه لم يبق في زوجك فضلةٌ أيتها العابثة.

ترتسم علىٰ وجه رمسة كل علامات الجدّ، ولا تبادل الشيخ مزاحًا بمزاح، بل تظل صامتة لا ترد، فلما يجدها ذريح كذلك يصيبه القلق، فيسألها جادًا:

- ما بلك يا امرأة؟ ماذا حدث؟

فتجيبه بصرامة مقلقة:

- أيعجبك حال قيس؟!!

فيسأل بقلق، وقد توقع أن الحمىٰ عاودته مرة أخرىٰ:

- ماله، ماذا دهاه؟

- نعم، تظهر دائمًا أنك لا تدري شيئًا، ولا تكاد تفكر في شيء، وكأن الأمر لا يعنيك.





استطاعت رمسة أن تجذب إليها انتباه الشيخ، وتجعل كل ذرة في جسده تضطرب، فيسرع سائلا:

- ماذا حدث؟ تكلمي يا امرأة.

- سأتكلم وسأخرج لك كل ما نفسىٰ يا ذريح، علَّك تتدبر أمرك، فلم أطق صبرًا.

- نعم.

- أنت تعلم أن قيسًا قد مرض مرضًا شديدًا، وقد أوشكت الحمىٰ أن تفتك به، ونفتقده إلىٰ الأبد، لولا مشيئة الله الذىٰ أنقذه؛ ليستوفيه أجله...يقاطعها ذريح عجلا:

- نعم أعلم ذلك، وماذا بعد؟

- قلْ لي يا ذريح: لو أننا فقدنا قيسًا، مَن كان سيحمل اسمك؟

- ومَن كان سيخلفك في قومك؟

- ومَن كان سيرث مالك؟

- ومَن كان سينعم بكل ما جمعته بكدّك؟ أما أنا وأنت فقد كنّا سنخرج من هذه الدنيا بلا ذرية، ويرثنا أبناء عمومتك، وسيصير مالنا كلَّه إلىٰ الكلالة، وستنقل تلك المرأة العقيم بعض إرثنا إلىٰ الخزاعيين.

وقعتْ كلُ كلمةٍ من كلمات رمسة - والتي أحسنت اختيارها- علىٰ نفس الشيخ وقعًا شديدًا مؤلمًا، حتىٰ اضطرب جسده، وشعر بحبات من العرق تندىٰ علىٰ جبينه؛ نتيجة ما أصابه من توتر، وقد فتحت رمسة بابًا لن يأتي لقيس منه الخير أبدًا.





يلملمُ الشيخ أشتات نفسه التي بُعثرتْ، ويحاول أن يتبين قصد رمسة، فلكم دارت مثل هذه الأفكار في رأسه، لكنه ما كان يدعها تسيطر عليه أبدًا، ويرىٰ أن كل شيء بإرادة الله وحوله، ومتىٰ ما أراد الله أن يسوق رزقه، فلن يدفعه دافع، وهو لم يبق من جهده شيئًا، أما اليوم فقد نكأتْ رمسة جرحًا عميقًا لن يبرأ، فيقول لها، وقد أحكمت سيطرتها علىٰ عقله إحكامًا:

- ماذا تقصدين يا رمسة؟

تدرك رمسة أن عقل الشيخ تحت سيطرتها الآن، فيزداد ضربها علىٰ نفس الوتر الذىٰ يؤلم الشيخ ويؤرقه، فتقول في ثقةٍ وهدوء، وقد زال عنها قلقها:

- أخشىٰ يا ذريح أن نخرج من هذه الدنيا، ولا نرىٰ لقيس ولدًا، ويخرج هو أيضًا من هذه الدنيا، ولا يرىٰ له ولدًا من تلك المرأة، وهو لا يهمه ذلك، كل ما يهمه ألا يغيب عنها، وأن يبقىٰ في جوارها كطفل يتيم، وهي تبدو أنها امرأة عقيم، لا تنجب، فقد مرَّ علىٰ زواجهما مدة طويلة، ولم نر لحمْل أثرًا، حتىٰ ولو كان سقْطًا، إنها عقيمٌ يا ذريح، مؤكد أنها امرأةٌ عقيم، فإن لم نتدارك الأمر فسيصير كل شيء إلىٰ الكلالة، وقتها سيصير الأمر: ولات حين مناص.

يقتنع الشيخ تمامًا بكلام رمسة، ويفطن إلىٰ ما يدور في خلدها، ولكن يخشىٰ وقعه علىٰ قيس، فقيس قد يُنهِي حياتَه، لكنه يواصل

الحديث مع رمسة، حتىٰ نهاية المطاف، لعلّه ينتهي معها إلىٰ رأيٍ رشيد، فيسألها:

- وكيف نتدارك الأمر يا رمسة؟

ترسم الغَيرةُ التي داخلها كل علامات التشفي علىٰ وجهها، فتقول لذريح:

- زوِّجه بغيرها، لعل الله يرزقه بالولد، نعم يا ذريح لا بد أن يطلقها وتزوجه غيرها، فلم يبق من عمرنا إلا القليل، ونريد أن نرىٰ أحفادنا قبل موتنا، ونطمئن علىٰ ولدنا ومالنا.

- لكن وقع ذلك سيكون شديدًا ومرًّا علىٰ قيس، فربما يهلك، فأنت تدرين كيف هو متعلق بها، وابنك رقيق أسيف، لا يقوىٰ علىٰ استبدالها بأخرىٰ، وساعتئذ لن يفيدنا الندم.

- كل أمرٍ في أوله شديد، ثم يهون.

- لا يا رمسة، لا نعذب قيسًا، لندعه يبقىٰ علي زوجه، ويتسرَّىٰ بغيرها من الجواري، فهن كُثُر، علَّه ينجب لنا وله ولدًا، تقر به العيون، وتُحلّ به العقد، لكن لا يروق هذا الرأي الرحيم لرمسة، فهي تريد إذلال لُبْنىٰ، التي خطفتْ قيسًا منها، فلابد أن تزوجه بحُرَّةٍ تناطح لُبْنىٰ، فتقول في عصبية واضحة وصريحة:

- ماذا دهاك يا رجل؟ أيكون أمامنا الحرائر في كل مكان، وندعهنّ، ثم نأتي بالجواري؟ أأبناء الحرائر كأبناء الإماء؟ والله هذا لا يكون أبدًا يا ذريح، ولا أراك تخالفني، ناشدتك الله أن تطيعني هذه المرة، ففيها الخير، زوجه بأخرىٰ حُرّة يا ذريح؛



حتىٰ يكون حفيدك أمّه حرّة بنت أحرار، لا أَمَة بنت عبيد، يرد ذريح عليها في هدوء:

- ليس قيس مَن يقوىٰ علىٰ ذلك يا رمسة، وأنت أدرىٰ الناس به، فلنشفق عليه، فليس لنا غيره.

تزداد عصبيتها، ولا تريد أن يلين ذريح، فيفسد تدبيرها، وتحاول أن تستخدم العقل، فتقول:

- أي شفقة بعد كل تلك المدة يا ذريح؟ أي شفقة؟!! هبّ أنها هلكتْ فيمن هلك، ماذا كان سيحدث؟ سيسلوها، ويتزوج غيرها، فليتزوج الآن، ويريحنا ويريح نفسه.

- اهدئي يا رمسة، فإنك يا امرأة تتحدثين عن ابنك وزوجه، لا عن أعداء لك، لنعرض عليه أن يتزوج بإحدىٰ بنات عمه، وليبقِي علىٰ لُبْنىٰ، فما رأينا منها إلا خيرًا، وإن أبىٰ فلنعرض عليه أن يتسرَّىٰ، فإن أبىٰ، فسيكون لنا معهُ شأنٌ آخر.

- إني كنت أعلم أنك لن تطاوعني يا ذريح، افعل ما بدا لك، لا تدعه يطلقها، وزوجه بأخرىٰ، لكن أعلم أن الأخرىٰ لن يقربها قيس، وستظل بكرًا كما هي، وبيني وبينك الأيام.

- سيقدر الله الخير يا رمسة حينئذٍ.

تستجمع رمسة حولها كل شياطينها، ولا تزال تلحّ علي ذريح ليل نهار؛ لِيميل قلبه إلىٰ رأيها، لكن ذريحًا ليس بالرجل الهين اللين، وقد فطن إلىٰ غَيرة رمسة، ثم لم ير من لُبْنىٰ إلا خيرًا، ولا يريد أن يكسر قلبها وقلب قيس، فلم يستجب لها، وعمل بأخف الضررين



علىٰ نفس قيس، ونفس زوجه لُبْنىٰ، فيعزم ذريح علىٰ محادثة قيس، علَّه يصل معه إلىٰ حلٍّ يرضاه، وإن كان يدري أنه سيفتح بابًا للمتاعب لن يُغلق، فيرسل ذريح خادمه إلىٰ قيس، بعد أن جلس خارج الدار حتىٰ لا يشاركهما أحد الحديث، يقبل قيس هاشًا إلىٰ أبيه، يرحب به الأب، ويتبادلان الحديث في أمور الحياة والتجارة إلىٰ أن يمهد ذريح لقيس، ويسأله:

- كيف حال لُبْنىٰ معك يا بُني؟

يصيب القلق قيسًا، فاستدعاء أبيه له، ثم سؤاله المفاجئ عن لُبْنىٰ، لا شك أنه يثير قلقًا ما في نفسه، يرد قيس:

- بخير حال يا أبت.

- اسمع بُني، إني لا أريد أن ألتوي معك في الحديث، وإني محادثك بما يقرّ في قلبي وقلب أمك، وأنت تعلم إننا نحبك، ونحب لك الخير، فسأعرض عليك أمرًا أرجو أن تقبله، يزداد قلق قيس، فيتململ في جلسته، وتضطرب جوانحه، فقد فطن لما سيقوله أبوه، وهو ما يقلقه، ويقلق لُبْنىٰ زوجه دائما، وتخبره أنها تخشىٰ من وقوعه، فيقول:

- قل أبت إني مصغ إليك.

- إنك تعلم يا بُني أنك اعتللت علَّة كادت أن تفتك بك، لولا أن الله خفّف عنّا وعنك، فأجلىٰ عنك العلَّة، وأنت لا ولد لك، ولا لي سواك، وأن هذه المرأة غير ولود، وإني ذو مال، فهل يصير هذا المال إلىٰ الكلالة إن متنا؟ فقد نجاك الله هذه المرة يا قيس،





ولا ضمانة لنا على الله أن ينجيك ثانية، وإني لأريد أن ألاعب ولدك قبل موتي وأضاحكه، فقد صرت شيخًا كبيرًا كما ترىٰ، فإني يا بُني أرىٰ أن تتزوج بإحدىٰ بنات عمك فهن كثر، لعل الله أن يرزقك منها بالولد، فيبقىٰ به نسلي ونسلك، وتقر به عيني وعينك، وعين زوجك وأمك.

يضطرب قيس، ويزداد تململه، ويشحب لونه، ويوشك أن يفقد ما بقي من فضلة في عقله، لكن يستجمع كل قواه، ويرد علىٰ ذريح في عبارة مقتضبة:

- لست متزوجًا غيرها أبدًا.

فيقول له الشيخ:

- فإن في مالي سعة، فتسرَّ بمَن شئت من الإماء.

فيرد قيس بحزم:

- والله، لا أسوءها بشيء أبدًا، حتىٰ ينتهي أجلي.

تغلي الدماءُ في عروق ذريح، فهو يحدثه في هدوء، ويريد أن يصل معه إلىٰ حل، ويشفق عليه أيضًا، لكن ردود قيس المقتضبة تثير حنقه عليه، بالرغم من أن الشيخ يعلم أن مثل تلك الأمور ستحدث في حديثه مع قيس، يوسّع الشيخ صدره، ويحاول مرة ثانية أن يقنع قيسًا بأن يبقي علىٰ لُبْنىٰ، ويتزوج بأخرىٰ حُرّة، أو حتىٰ يتسرَّىٰ بالإماء، لكن لا مجيب، فقيس ينفر نفورًا شديدًا من كل شيء يسوء لُبْنىٰ، ولا يتحمّل حتىٰ مجرد الإشارة إلىٰ ذلك، ثم ينتهي اللقاء إلىٰ لا شيء، بالرغم من أن الشيخ كان يتوقع مثل تلك الأحداث، لكنه لا ييأس،



ففي اليوم التالي، والشيخ مجتمع مع أبناء عمومته يرسل لقيس، فيحادثه أمامهم نفس الحديث، لكن الفتىٰ يرد عليهم جميعًا بأنه لن يسوء لُبْنىٰ أبدًا ما أحياه الله، فيخاطبه أكبر أعمامه الذىٰ هو بمثابة ذريح:

- يا بُني أن أباك لا يريد لك طلاق زوجك، بل يطلب منك الزواج من إحدىٰ بنات عمك، أو حتىٰ تتسرَّىٰ بالإماء، فليس في هذا القول ما يضيرك، وابق علىٰ زوجك كما هي، فيرده قيس ردًا لينا:

- يا عماه، أنا لا أريد زواجًا من فتاة غير لُبْنىٰ، لُبْنىٰ قدر الله لي، ولا أريد أن أرد قدره.

- ومَن أجبرك علىٰ رد قدر الله يا قيس؟

- لا أسوءها يا عم، دعني ناشدتك الله والرحم.

ينفعل العم، ويقول لقيس في حدةٍ:

- ألا تفهم، وأيم الله ما رأيت مثل اليوم حماقة كهذه، ستظل زوجك عزيزة مكرمة في دارها، وستبني بزوجة أخرىٰ، حرَّة كانت أو أمة، في دارٍ بعيدةٍ عن دارها.

فيرد قيس في لهجة حازمة:

- والله لا أفعل يا عماه.

يقاطعهما ذريح، وقد أفقده قيس رشده ووقاره، وينتفض قائمًا، يصيح في غضبٍ:





- أقسم عليك إلا طلقتها، ولا قول لك عندي غيره، ثم يترك المجلس ويغادره غاضبًا، ويحاول معه أعمامه، فيأبىٰ قيس، وتتعقد الأمور، ثم ينتهي اللقاء، ولا أحد يدري كيف ستصير الأقدار.

يصل ذريح داره، وهو في غاية الضيق والتوتر، ويدخل مخدعه لا يكلم أحدًا، وقد أغمَّه ما حدث، فتراه رمسة، وتقبل عليه؛ لتطمئن علىٰ حاله، فيخاطبها:

- لقد فتحنا علىٰ أنفسنا بابًا لن يأتي منه خير أبدًا يا رمسة، إن حديث قيس اليوم لي ولعمه لا يبشر بخير أبدًا، وقد قص عليها خبر قيس كلَّه.

- اصبر عليه فوالله ما توقعنا غير ذلك، ووالله ليطلقنَّها شاء أم أبىٰ، اصبر عليه، وحادثه مرة أخرىٰ بعد يوم أو يومين، فقد يكون فكَّر وقدَّر، وثاب إلىٰ رشده، أما قيس فلم يخبر لُبْنىٰ بشيء، حتىٰ لا يسوءها، لكن بدا عليه الهمّ والغمّ، وأنه يحمل بين جنباته أمرًا عظيمًا يخفيه عنها، تخاطبه لُبْنىٰ:

- أي قيس، لا أراك جليّ النفس، فما خطبك؟

- لا شيء يا لُبْنىٰ، لا شيء.

- إن خانتني عيني، فقلبي لا يخون يا قيس، إن قلبي يحادثني أن خطبًا جللا يدهمك، قل قيس فأنا زوجك.

يذهب قيس بالحديث يمينًا ويسارًا، ويلتوي به؛ حتىٰ يشغل لُبْنىٰ، ويصرفها عن السؤال، لكنها تأبىٰ عليه، وتلحّ في أن يخبرها ما



خطبه، يداعبها قيس برقة، ثم يقترب منها ويعانقها بقوة، تشعر لُبْنىٰ بدمعات دافئات يبللن كتفها، فتضم قيسًا إليها، فيتعانقان عناقًا طويلا، حتىٰ يلامس قلبه قلبها، فتشعر به ينبض بشدة، لا تدعه لُبْنىٰ ينام حتىٰ يخبرها عما يحدث، فالقلق قد ساورها منذ أن رأته مهمومًا، وازداد قلقها بدورانه في الإجابة عن سؤالها، تلح عليه:

- ناشدتك الله يا قيس ما خطبك؟
- ما يشغل بالك؟ قل لي.
- سأخبرك يا لُبْنىٰ لكن ليس الآن، فليس الأمر ذا قيمة.
- لا بل الآن يا قيس.
- هو شيء يسير بيني وبين الشيخ ذريح، سأخبرك عنه لاحقًا.

لكن يبدو أن لُبْنىٰ لا تقنع، فهي لا تهدأ ولا تستقر، وقد استشعرتْ أمرًا أقلقها، وصارتْ علىٰ يقين أن الشيخ قد فاتح قيسًا في أمر الولد منها، وأنها لم تنجب حتىٰ الآن، وعليه أن يتزوج عليها، فتلح علىٰ قيس ليخبرها، لكن قيسا يراوغ، ولا يريد أن يضايقها، فيبدأ في مداعبتها، وملاطفتها، حتىٰ يفرخ روعها، وتهدأ، ثم راح ينشدها من جميل أشعاره، ثم يتعانقان حتىٰ الصباح...

يستدعي الشيخ قيسًا، وفي ظنه أنه قد فكّر وقدّر، ولم يشأ أن يغضب والده، وسيبر قسمه الذىٰ أقسم، وقد تركه يومين، ولم يعلم الشيخ أن هذين اليومين ما زادا قيسًا إلا إصرارًا وتمسكًا بلُبْنىٰ، فيخاطبه ذريح بكل هدوء:

- أي بُني، ألم تثوب إلىٰ رشدك بعد؟ ألا تبرَّ بقسم أبيك؟





فيقول قيس بحزم أيضًا:

- الموت والله أسهل عليّ يا أبيت من ذلك، ولكني أخيرك خصلةً من ثلاث خصال.

- ماهي؟ قل، لعل الله يجد لنا مخرجًا.

- تتزوج أنت، فلعل الله يرزقك ولدًا غيري، تقر به عينك.

- ما في فضلة لذلك، وقد صرت شيخًا ضعيفًا.

- فدعني أرتحل بعيدًا عنك بزوجي، واصنعْ ما كنت صانعًا لو مت في علتي هذه.

- لا أقوىٰ بُني علىٰ فراقك، وقد بلغت من الكبر ما أنت ترىٰ، وإنك بقولك هذا تطعنني في كبدي، إن فعلت خلسة.

- فالثالثة إذن.

- وما هي؟ قل.

- أترك لُبْنىٰ عندك، وأرحل عنك علَّني أنساها، فإني ما أحب بعد أن تكون نفسي طيبة، وأنها في خيالي.

- والله لا أرضىٰ، إني بذلك فاقدك.

فيرد قيس في حزم وشدة:

- وأنا والله لا أقوىٰ علىٰ بُعْدها، ولا أقوىٰ علىٰ الزواج من أخرىٰ، ولا أقوىٰ علىٰ التسرِّي، دعني يا أبت وشأني، ناشدتك الله والرحم، فإن فيما ترىٰ هلاكي.

يغضب ذريح، ويقول لقيس منفعلا:





- والله لا أرضىٰ حتىٰ تطلقها، ووالله لا يظلني سقف بيت أبدًا حتىٰ تفعل، وسأمهلك أيامًا، سأخرج بعدها في حرّ الشمس، ويراني الناس؛ ليعلم العرب أن ابني لا يطيعني، ولا ينزل علىٰ رأيٍ أراه، ووالله لن أرجع حتىٰ ترضيني، يتأزم الموقف، ويخرج الشيخ تاركًا قيسًا خلفه يتحرَّق، فتدخل رمسة التي كانت تسترقّ السمع، وقد أرضاها ما فعل الشيخ، تهدئ من روع قيس، وتطلب منه أن يبرَّ قسم أبيه، فيتزوج من امرأة حُرّةٍ أخرىٰ، وينهي الأمر برمته، وتحاول أن تقنعه قائلة له:

- إن تزوجت يا بُني غيرها، فستنجب لك طفلا؛ تتسلىٰ به عن زوجك هذه، وتنعم بملاعبته، ويبقىٰ نسل أبيك لا ينقطع، وإن أبيت فأنت الخاسر الأول، إنّا لا نريد بك إلا خيرًا.

يجيب قيس أمه، وهو يدرك أنها مَن تُشعل النار في الهشيم، ولو وقفت إلىٰ جانبه لعدل الشيخ عن رأيه، ولو أرادت إخماد النار لخمدتها، لكن ماذا عساه أن يفعل مع أمه؟ فيقول لها، وقد بلغ به اليأس مبلغًا:

- قد خيّرت أبي بين ثلاث، ولا أجد غيرهن حلا، ولا طاقة لي بما تريدون، وأنت يا أماه تعلمين أن لُبْنىٰ هي الحياة بالنسبة لي، والموت أسهل عليّ من فراقها.

يغيظ كلامه رمسة، ويزيد من إشعال النار في جوفها، ومن كرهها للُبْنىٰ، فتخاطبه بلهجة صارمة:





- القول ما قال أبوك يا قيس، ولا أظنه يحيد عنه، ثم تدعه وتخرج مسرعة، ثم تلوي عنقها نحوه، وتقول في تشفي:

- وأضيفك أيضًا: وأنا والله لا أرضىٰ حتىٰ تطلقها، ثم تدعه مهمومًا مغمومًا، لا يكاد يبرح مكانه.

تنغلق في وجه قيس كل الأبواب، وتسودّ الدنيا أمام ناظريه، فهو مخير بين أب وأم في ناحية، وزوج محببة إلىٰ قلبه في ناحية أخرىٰ، وجميعهم أعزّ ما يملك قيس.

يغادر المكان ولا تقوىٰ رجلاه علىٰ حمله، فيدخل مترنحًا مهمومًا إلىٰ لُبْنىٰ، فيظهر عليها القلق والتوتر، وتدرك أن خطبًا جللا يؤرق قيسًا، فتخاطبه بحزم هذه المرة:

- والله لن يخاطب لساني لسانك يا قيس حتىٰ تخبرني، فإني سأموت قلقا، فهمّك همي، وخطبك خطبي.

لم يجد قيس بدًّا من إخبارها بكل شيء، فتقع لُبْنىٰ مغشيًا عليها من هول ما تسمع، بالرغم من أنها متوقعة حدوث ذلك، ومستشعراه من قبل، يهزها قيس هزًا عنيفًا، ثم ينضحها بماءٍ بارد، تنتبه، ثم تستعيد وعيها، وتولول صارخة كامرأة فُجعت في ولدها، يهدئ قيس من روعها، ويسمعها كلمات في الصبر علىٰ البلاء، وأن فرج الله قريب، توشك أن تهلك بين يدي قيس، ثم تقول له:

- لا تطيع أباك يا قيس؛ فتهلك وتهلكني معك، إني لا أقوىٰ علىٰ العيش بعيدًا عنك.



- الموتُ دون ذلك يا لُبْنىٰ، الموت دون ذلك، ثم يضمّها إلىٰ صدره بقوة، وينتحبان إلىٰ أن يشاء الله.

كان علىٰ الشيخ ألا يستظل بسقف داره حتىٰ يطيعه ولده قيس؛ إبرارًا بقسمه، فما إن تطلع الشمسُ حتىٰ يخرج الشيخ من داره، ويبقي تحت حرّ الشمس، حتىٰ يوشك أن يهلك، فيجيئه قيس، فيقف إلىٰ جواره يظله، ويصطلي هو بحرّ الشمس، ولا يزال كذلك حتىٰ يدخل أبوه الدار، فيرجع قيس إلىٰ لُبْنىٰ، فيعانقها وتعانقه، ويجهشان في البكاء، وظل هذا دأب أبيه، ودأبه...

****



(٨)

الفُرقة

ظلّ ذريحٌ يخرج من داره، ويجلس في وهج الشمس وحرّها؛ ليبرَّ قسمه، ولا ينتقل من مكانه حتىٰ تغيب الشمس، فيراه الناس، ويسألونه، وهو شيخ كبير، قد تهلكه الشمس، عن الذي حمله علىٰ ما يفعل، فيخبرهم بأن ابنه عصاه، وأنه أقسم عليه إن لم يفعل ما يأمره به، فلن يظله سقف بيت أبدًا، وسيظل هكذا حتىٰ يموت، فيعيره العرب بأنه قتل أباه، ولم يبر بقسمه، ينتشر خبر ذريح في أرجاء الحجاز، ويراه الناس في شدة الرمضاء يتعذب، يكاد القيظ يفتك به، فيلومون قيسًا، وقيس يتعذب، ثم يشتد إيلامهم لقيس علىٰ ما يفعله بأبيه، ويرىٰ قيس أباه، فيتحرق في داخله، ويذهب إلىٰ لُبْنىٰ فتزداد حرقته، ولا زال علىٰ ذلك مدة طويلة، الشيخ يأبىٰ العدول عن رأيه، وقيس يأبىٰ طلاق لُبْنىٰ، والناس يلومون قيسًا، ويذكرونه بطاعة الوالدين، وأن الشيخ رجل عجوز لا يقوىٰ، وقد يهلك في أي وقت، ثم إن أعمامه جاءوه، وطلبوا منه أن يفعل ما رأىٰ أبوه، وإلا سيهلك، ويكون هو السبب في هلاكه، ويقول له كبيرهم:

- أي قيس، كيف لك أن ترىٰ أباك هكذا ولا تطيعه، أتريد هلاكه من أجل بنت الحباب؟

ويقول له آخر:





- ما رأيت فتىٰ مثلك، يميل إلىٰ طاعة زوجه ورضاها، ولا يميل إلىٰ طاعة أبيه، الشيخ العجوز.

ويقول آخر:

- اطع أباك، وتزوج بأخرىٰ، وإلا ستفقد أباك وزوجك، وتكون فضيحتنا بين العرب لا حد لها.

وهكذا ظل الناس عامة، وأعمامه خاصة يلومونه، وبعضه يعيره، ويتهمه أنه منصاعٌ إلىٰ امرأة غريبة، ولا يأبه بأبيه الشيخ العجوز الذي سيهلك، ثم ازداد الأمر تعقيدًا أن اتفق ذريح ورمسة علىٰ مقاطعة قيس نهائيًا، لا يكلمانه، ولا ينظران إليه، ولا يأبهان بأي شيء يخصه، ورفض الشيخ أن يظلله قيس كما كان يفعل، فاشتد علىٰ قيس الأمر، وضاقت عليه نفسه، حتىٰ لم يعد يقدر علىٰ أن يفعل شيئًا، ولُبْنىٰ تنتحب خوفًا من فراق قيس، وهو يصبرها بأنها غمةٌ وستنجلي، فيعانقها وتعانقه، لكن القلق يأكل قلبها، ويقطّع أحشاءها.

ولما اشتد الأمر بقيس، شكا إلىٰ ابن صفوان، وهو أحد أصدقاء أبيه، وطلب منه أن يثني الشيخ عن رأيه، حتىٰ لا يهلِك ويُهلِكه معه، وكان هذا الرجل من العقلاء، فأشفق علىٰ قيس، وأشفق علىٰ أبيه، ثم أتىٰ ذريحًا وهو خارج الدار، فقال له:

- ما حملك علىٰ ما تفعل يا ذريح؟ ألا أشفقت علىٰ نفسك، وعلىٰ ابنك قيس، وليس لك غيره؟.

- والله حتىٰ يبر قسمي، فأنا علىٰ حالي التي أنا فيها، وأنا منه بريء حتىٰ يطلقها.





- ارفق بنفسك يا رجل، وارفق بابنك، ودعه يبقي علىٰ زوجه، ويتزوج بأخرىٰ.

- والله لا يكون، فقد عرضت عليه ذلك، فأبىٰ.

- وإن أخبرتك بقولٍ لعمر بن الخطاب تستند إليه في برّ قسمك، قد صح سنده، أترجع عن أمرك؟

- وماذا قال عمر؟

- روىٰ عنه رضي الله عنه أنه قال لأحدٍ: "ما أبالي أفرقت بين الرجل وامرأته، أو مشيت بينهما بالسيف"، فجعل التفرقة بين الزوج وزوجه كأنك تريد قتلهما بالسيف، أترضىٰ ذلك؟

- هذا إن لم يكن هناك سبب للطلاق، أما هذه المرأة فهي غير ولود، وأنا أريد طفلا تقر به عيني قبل موتي، يدعه ابن صفوان، وهو يقول:

- ما رأيت أغرب من ذلك! ووالله ما هذا برأيٍ، فقد استأثر عليه الشيطان، ثم يخبر قيسًا خبر أبيه، فيقول له قيس:

- وأنت ما ترىٰ يا عماه؟

- الشيخ عنيد يا بني، فارفق به، وطلق زوجك، وابق عليها في دارك عسىٰ الله أن يجد لك مخرجًا.

لا يجد قيس بدًّا من طلاق لُبْنىٰ، وقد حالت كل الظروف ضد بقائها زوجة له، واستأنس بقول ابن صفوان، بأن يطلق لُبْنىٰ، ويبقيها في داره، لعلَّ الفرج يأتي، يتردد قيس كثيرًا في أخذ القرار، فكيف له أن يطلِّق لُبْنىٰ؟ وكيف له أن ينظر في وجه امرأة غيرها، بل ويعيش معها في



مخدع واحد، ومن الممكن أن تتزوج لُبْنىٰ بغيره، فكيف له أن يتخيل أن لُبْنىٰ بين أحضان رجل غيره؟

تمتلئ نفس قيس بكل تلك الهواجس والظنون والأفكار التي لا يقدر علىٰ دفعها من فكره، وتكاد تخنقه خنقًا، ولُبْنىٰ حيرىٰ، لا تدري ماذا تفعل؟ وطلاقها من قيس صار قاب قوسين أو أدنىٰ، فتظل تسأل نفسها:

- ماذا علي قيس أن يفعل الآن؟
- لماذا لا يرحمه هذان الشيخان؟
- لماذا يحمّلاه أكثر مما يطيق؟
- أيذهب إلىٰ الحسين مرة أخرىٰ؟ لكن الحسين الآن مشغول بما يعلمه كل العرب، يوشكا أن يفقدا عقليهما، وفي نهاية الأمر، وبعد صراع نفسيّ، وعقلي شديد، وضغوط من كل أهل البادية الذين يعرفون قيسًا، ويشفقون عليه وعلىٰ أبيه الشيخ ذريح، يستجيب قيس علىٰ غير رضىٰ، فيذهب إلىٰ أبيه مكسور النفس والخاطر، لا تكاد تحمله قدماه، ويخبره أن لُبْنىٰ طالق منه، وأنه سيبقيها في داره، إلىٰ أن يشاء الله، لكن الشيخ لم يكن أبلهًا، فمن الممكن أن يراجعها قيس في أي وقت، وكأن شيئًا لم يكن، فيمتعض الشيخ، ويعزم في نفسه علىٰ أمر لا يخبر به قيسًا.

لأىٰ قيس علىٰ نفسه بعدم إخبار لُبْنىٰ بشيء، ولن يحاول أن يقربها حتىٰ تنجلي الغمّة، لكن لُبْنىٰ تشعر بذلك سريعًا، فلا تسأله





السبب، فهي تدرك ذلك الصراع النفسي الذئ يستحكم علىٰ عقل زوجها ونفسه، لكن لا تدري ماذا تفعل.

ينتشر الخبر علىٰ مهلٍ، ويتناجاه الناس في كل مكان، حتىٰ يعلن ذريح في ناديه طلاق قيس من لُبْنىٰ، ويدس للحباب بن كعب مَن يعلمه الخبر، ويثير في نفسه نخوة العرب بأن قيسًا طلق لُبْنىٰ، لكنه يبقيها في داره، وعليه أن يأخذ ابنته حتىٰ لا يفتضح أمره بين العرب، ثم يدسّ إحدىٰ الجواري إلىٰ لُبْنىٰ لتخبرها خبر قيس، وإن كانت لُبْنىٰ قد شعرت بذلك وتيقنته من عشرتها لقيس، الذئ يبتعد عنها هذه الأيام، ولا يأخذها بين ذراعيه، ويقبلها كعادته؛ لذا لم يكن وقع الخبر عليها شديدًا، لكن لا حيلة لها، ولا حيلة لقيس في أمر أراده الله.

علم الحباب بالخبر، وعلم أن قيسًا ما فرّط في لُبْنىٰ، وإنما فعل ذلك مرغمًا، لكن لا بدّ مما منه بدّ، فأمر العبدان بتجهيز ناقةٍ عليها الهودج الذي سيحمل لُبْنىٰ من دار قيس إلىٰ داره، وببعض النوق التي ستحمل الأثاث أيضا، وأرسل إلىٰ لُبْنىٰ بأن تعد عدتها لتنتقل من دار قيس إلىٰ دار أبيها، أما لُبْنىٰ فلم تخبر قيسًا خبر أبيها، خوفًا وإشفاقًا عليه، ولم تعلمه أنها علمتْ أنها طالق منه، ولم تعلمه أنها الآن تستعد لفراقه فراقًا ربما لا لقاء بعده أبدًا، وأقبل الحبابُ وبعض قومه صباح يوم بهودجٍ علىٰ ناقة، وببعض النوق التي ستحمل أثاث لُبْنىٰ، حتىٰ حطّت القافلة الصغيرة أمام دار ذريح، فلما رأىٰ ذلك قيس استطار عقله، وطار لبَّه، وصار كالمجنون، فجعل يسأل جارية لُبْنىٰ:

- ويحك! ما دهاني فيكم؟





فقالت له الجارية: لا تسألني، وسل لُبْنىٰ.

فذهب قيس مستطار العقل إلىٰ لُبْنىٰ في خبائها، يسألها الخبر، فمنعه قومها من محادثتها، أو الاقتراب من خبائها، فهي الآن محرمة عليه، فعلم قيس من خلال تلك الكلمة، أن لُبْنىٰ وأهلها قد علموا الأمر كلّه، وأن لُبْنىٰ ستفارقه الآن، ربما فراقًا لا لقاء بعده، فجعل يبكي، وينشج أحرّ نشيج، وقد أُسقط في يده لا يدري ماذا يفعل؟ ويحاول أن يمنع القوم من أخذ لُبْنىٰ، بل ويتوسل إليهم بذلك، فأقبلت عليه امرأة من قومه، وكانت عمة له، فقالت له بلهجةٍ صارمة:

- مالك يا ابن ذريح! ويحك، تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل! هذه لُبْنىٰ سترحل عنك الليلة، ألا تدري أنك طلقتها؟ وهؤلاء قومها قد أحضروا هودجها! فقال لها مستغربًا وهو يبكي:

- ومَن أعلمهم يا عمَّتاه، ومَن أعلم لُبْنىٰ؟

- أعلمهم الذىٰ أعلم كل أهل الحجاز، أصمٌ هم فلا يسمعون أم حمقىٰ لا يفهمون؟

- بل أنا الأحمق الذىٰ فعل، أنا مَن جنىٰ علىٰ نفسه، أنا مَن أهلك نفسه، ثم ظل ينحب وينحب، ولم يفق حتىٰ جاءه صديقه وخادمه جرول يواسيه، وكان ذلك بإيعاز من ذريح، الذىٰ أشفق علىٰ قيس، ثم تنحىٰ جرول به بعيدًا، حتىٰ لا يرىٰ خروج لُبْنىٰ من داره، فيكون وقع ذلك علىٰ نفسه شديدًا.

غادرتْ لُبْنىٰ دار قيس وفارقته، وهي تبكي علىٰ ما فرَّط فيها، وتتقطَّع نفسها إلىٰ أنفس، لكن القوم لم يرحموا أحدًا، فقد رحلوا



جميعًا يحملون لُبْنىٰ في هودجها، ويحملون أثاثًا طالما تنعم عليه قيس، وفي جواره لُبْنىٰ، وكان صدر رمسة منشرحًا، وهي تشهد رحيل الخزاعيين، وبصحبتهم لُبْنىٰ، وتتتبع عينها الهودج، وتتأمله وهو يتمايل يمنة ويسرة، وتسير به الناقة في بطء شديد، كأنّها تحمل جندلا أو حديدًا، وكأنّ الناقة كانت تضنّ بفراق هذين الحبيبين، ولو تملك من أمرها شيئًا لعادت بلُبْنىٰ إلىٰ قيس، وليكن ما يكون، فللناقة قلب أرقّ من قلب رمسة، التي لم تكن تدري أن هذه القافلة الصغيرة رحلتْ، ورحل معها قلب قيس وبعض عقله، ولم تدر أن هذا اليوم لم تفقد فيه لُبْنىٰ فقط، إنما فقدت معها أعز خلق الله إلىٰ قلبها.

دخل قيس مخدع لُبْنىٰ فرآه خاليًا إلا من صورة لُبْنىٰ وطيفها، الذي لا يفارقه لحظة واحدة، فظل يدور في المخدع كمن فقد عقله، يبكي تارة، وينشد شعره في فراق لُبْنىٰ تارة، وهو يراها في كل شيء ينظر إليه، وفي كل ركن من أركان مخدعه، حتىٰ يسقط مغشيًّا عليه، ليبدأ قيس حياة أخرىٰ، حياة غير التي كانت، حياة تشهد فقدان جزءٍ من عقله، سلبته منه لُبْنىٰ، فلقد أجمع كل الرواة أن قيسًا لم يعد منذ اليوم كامل العقل، فقد أصابه ما يشبه الجنون، لكنه لم يكن كذلك أبدًا، فقط كان عاشقًا وَلِهًا مخلصًا أصابه البين والفراق.

مرَّ شهرٌ الآن، وقيس تتقطّع نفسه علىٰ لُبْنىٰ، والندم يوشك أن يفتك به علىٰ فراقها، وقد أسرف في العتاب علىٰ نفسه إسرافًا شديدًا، وجرول لا يكاد يفارقه، يؤنسه في وحشته وفي خلوته، ويسليه عن لُبْنىٰ، ويسمع إلىٰ شكاياته، دون كللٍ ولا ملل، يقول قيس لجرول:



– ليتني رحلت بلُبْنىٰ يا جرول عن هذه البلد، فلم أر ما يفعل أبي، ولم يرني، فلا يلومني أحد، حتىٰ إذا فقدني أقلع عما كان يفعل، وإذا افتقدته لم أتحرّج من فعله.

– ما كان هذا يغني عن إرادة الله يا سيدي، وقد امتحنك الله، فاصبر واحتسب، لعل الله أن يجمع بينكما.

– ما كان عليّ لو اعتزلته، أو أقمت في حي لُبْنىٰ، أو حتىٰ في بعض بوادي العرب، أو عصيته فلم أطعه.

– ما هذا بطبع سيدي، فهذ طبع لئيم، هدئ يا سيدي من روعك، فأمر الله محسوم.

– ما كان عليّ لو صبرت، هذه جنايتي علىٰ نفسي، فلا ألوم علىٰ أحد، وهأنذا ميت، فمن يرد روحي إليّ! يربّت جرول علىٰ كتفي قيس بكل رقة وحنان، ولكن يعجز عن فعل شيء، أو قول شيء، وقيس يواصل أسفه:

– هل لي من سبيل إلىٰ لُبْنىٰ؟

– هل لي من سبيل إليها يا جرول.

ثم ينشد:

أستودعُ اللهَ لُبْنىٰ إذ تفارقني ... بالرغم منّي وقول الشيخِ مفعولُ

وقد أراني بلُبْنىٰ حــق مقتنعٍ ... والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصولُ

تكرُّ الأيام سريعة، ورمسة وذريح عاجزان علىٰ أن يفعلا شيئًا مع قيس، ولدهما الحبيب، وحاله التي وصلت إلىٰ حد الجنون، فهو منكفئ علىٰ نفسه، لا يكلم أحدًا، ولا يسمع نصيحة ناصح، وصار



يكثر من الغشيان، وفقدان العقل، فكلما ضاق عليه الأمر، واستبدّ به الشوق إلىٰ لُبْنىٰ، وجدوه مغشيًا عليه، وتقترب منه رمسة، وتداعبه، وتأخذه في حضنها، وتربّت عليه، فلا يأبىٰ قيس أو يمانع، بل يرتمي في حضن أمه، مما يزيد من حرقة قلبها علىٰ ولدها.

يعزم الشيخان علىٰ زواج قيس، فقد مرّ الآن وقت علىٰ طلاقه للُبْنىٰ، فتعرض عليه أمه أن يتزوج؛ رحمة بنفسه وبها وبأبيه ذريح، يأبىٰ قيس، تلاطفه وتوادعه، وتؤنس وحشته، وكذلك يفعل ذريح، وقيس يأبىٰ الزواج، ويأبىٰ حتىٰ أن يتسرَّىٰ بالإماء، فيخشىٰ الشيخ علىٰ ابنه، ويحاول أن يزجّ به في أمور الحياة، فيطلب منه أن يخرج إلىٰ رحلة صيد في البادية مع أقرانه، لعله يملأ رئتيه من نسيم الصحراء، فيثوب إليه عقله، وتتوق نفسه إلىٰ الزواج، فيعرض بكل رفق علىٰ قيس ذلك، فيوافق قيس أن يخرج مع أقرانه، حتىٰ إذا ذهبوا جميعًا إلىٰ البادية، تغافل عنهم، وتسلّل خفية إلىٰ قرب دور بني كعب، وصار يرقب دار لُبْنىٰ من بعيد، لعلها تخرج في بعض حاجتها فيراها، والفتية منشغلون بالصيد، ومنشغلون عنه، حتىٰ إذا فرغوا التمسوه، فلم يجدوه بينهم، فتحيروا في أمره، وظنوه يطارد غزالا، أو يتتبع ظبيًا، بعيدًا عن هذا المكان الذىٰ هم فيه، فانتظروه حتىٰ أوشكت الشمس علىٰ المغيب، لكنه لم يأت، فقال قائلهم:

- التمسوا صاحبكم قرب مضارب بني كعب، أظن ستجدونه قريبًا من دار لُبْنىٰ بنت الحباب، التي لم تبقِ له فضلةً من عقل، يا ليتهم رحموه، وتركوها معه، وقال آخر:





- والله ما خرج معنا إلا لهذا، فأنا أعرف الناس برقة قيس.

وقال آخر:

- لو صح قولك، ووجده القوم، لسفكوا دمه.

يذهب الحارث، أقرب الأصدقاء إلىٰ قيس، وأحبهم إلىٰ قلبه، إلىٰ القرب من ديار الحباب بن كعب، حيث أشار أحد الفتية، فوجدوه حيث توقعوا بالقرب من ديار لُبْنىٰ، واقفًا علىٰ قدميه لا يبرح، لعله يحظىٰ برؤية لُبْنىٰ، التي يتوق إليها.

يخاطبه الحارث برفق:

- والله لقد عرفنا ما أردت بخروجك معنا صيدًا يا قيس، ولكن أردت لقاء لُبْنىٰ، وقد تعذر عليك الآن، فانصرف معي.

فيجيبه قيس متوسلا:

- دعني يا حارث لعلي أشفي صدري، وأكحل عيني برؤية لُبْنىٰ، أو حتىٰ ألمح طيفها مارًّا.

ينهره الحارث بشدة، بالرغم من أنه يشفق عليه، ويحاول أن يساعده من الخروج مما هو فيه:

- أتدري يا قيس لو علم أحد من أهلها بذلك لسفك دمك، هيا فلتنصرف معي؟ واحقن دمك، ودماء قومك، فأمر لُبْنىٰ قد انتهىٰ بالنسبة لك، فابحث عن أخرىٰ، فأي شيء في لُبْنىٰ هذه الذي جعلك تفقد عقلك، وتعرض نفسك للسخرية والهلاك.

ينقاد قيس لصديقه الحارث، وهو ينشد:

أَنِلْ حاجتي وَحدي ويا رُبَّ حاجَة ... قضيتُ علىٰ هَول وخَوفِ جَنانِ





يخبر الحارث ذريحًا بما حدث، ويحذره من مغبّة ذهاب قيس إلىٰ ديار بني كعب، وما قد يجرّه ذلك من عواقب وخيمة عليه وعلىٰ قومه الكنانيين، فيزيده غمًا علىٰ ما فيه، فيعتذر له الحارث، لكن ذريحًا لا يجد قولا يقوله، فيسكت ثم يسأل الحارث:

- وأنت ما ترىٰ يا حارث؟

فيرد في شدة، ناجمة من حبه لقيس:

- الرأي ما يرىٰ العم ذريح، فهو مَن هان عليه قيس، وفرق بينه وبين لُبْنىٰ بنت الحباب.

- نعم.

- الآن أدركت يا عم!!!

- والله يا بُني ما كنت أدرك أن الخطب جلل، وما كنت أحسب إلا أن الفتىٰ يسلو عنها بغيرها، تنجب له طفلا يلاعبه، فيشغل عليه وقته، وتقر به عيني وعينه.

- ردها عليه يا عمَّ.

- ويحك يا حارث، ماذا تقول؟ وماذا يقول عليّ العرب؟

- سيقولون: إنك أشفقت علىٰ قيس ابنك، ورددت عليه زوجه، أوفي ذلك عار؟ بل هي الرحمة بعينها، اردد يا عم عافية ابنك عليه، وردّ إليه لُبْنىٰ، وزوجه بأخرىٰ ولود إن أردت، فهو له لُبْنىٰ، وأنت لك بنيه، تقر بهم عينك، ولتقول العرب ما تقول.

- ولتقول العرب ما تقول، نعم يا حارث.



عزم الشيخ علىٰ أن يعرض علىٰ قيس أن يرد عليه لُبْنىٰ، ويزوجه بأخرىٰ غيرها، لعل الله أن يرزقه من الأخرىٰ ولدًا، وليدعوا مع قيس أعمامه، عسىٰ أن يختار قيس من بناتهم مِن تعجبه فيتزوجها، ويريح نفسه، ويريحنا، أما رمسة فنفْسُها تتقطع علىٰ ولدها قيس، الذىٰ لا يجدي معه حل، فتستشير صويحباتها الأقربون، ماذا تفعل ليتزوج قيس ويسلوا عن لُبْنىٰ، فإنها تخشىٰ أن تفقده إلىٰ الأبد، تشير عليها إحداهن بأن تتفق مع بعض الجواري الجميلات الرشيقات، ويجتمعن مع قيس يلاطفنه ويداعبنه، لعل واحدة منهن تعجبه، أو حتىٰ تهيّج مشاعره، أو تثير غريزته، فتروق الفكرة لرمسة، فتنفذها سريعًا.

يجتمع الجواري الجميلات الرشيقات حول قيس، يلاطفنه ويداعبنه، ويأجّجن مشاعره، ولكنه كالتمثال لا يتحرك، ولا يكاد يشعر بوجودهنّ، فيغيظ ذلك إحداهن، وكانت أجملهنّ وأظرفهنّ، فتعيب لُبْنىٰ بنت الحباب أمامه، وتسخر منها، فيضحكن عليها، وعلىٰ ما يفعله معها، فلمَّا أطلن عليه، وثرن حفيظته، صرخ فيهنّ، وأوشك أن يبطش بإحداهنّ، فجزعن، وولين هاربات، وما يشكن لحظة في أنه غير عاقل، أما هو فراح ينشد في لُبْنىٰ:

يقرُّ بِعيني قُربُها ويزيدني ... بها كلفًا من كان عِنْدي يَعيْبُها

انصرفن عنه إلىٰ رمسة، وأخبرنها بما حدث، وأنهنّ تمايلن عليه، وتقاصفن، كأعواد الخيزران، لكنهن كنّ أمام تمثال من صخر، لا يستجيب لأي شيء، حتىٰ إذا عبنا لُبْنىٰ أمامه، هاج وثار، وأوشك أن



يبطش بنا، لولا أن تداركنا الأمر، فأغمّ ذلك رمسة، وزاد من غمّها ما قالت لها إحدىٰ الجواري عن قيس:

- والله يا سيدتي لو كان قيس حجرًا لنطق، ولو كان قيس رجلا هرمًا لهاجتْ غريزته، فما رأينا منه إلا عجبًا، فهو لم يشعر حتىٰ بوجودنا حوله، ولا رفع نظره علىٰ واحدة منّا.

لكن رمسة لا تيأس، وظنتْ أن ابنها قيس لا يميل إلىٰ الجواري، فبعضهن به خلاعة ومجون، وهو لا يميل إلىٰ ذلك، فأعدّت رمسة لبعض الحرائر من النسوة الصغيرات من بنات أخواتها، ومن بعض بنات أهلها وليمة في بيتها، بحجة اخترعتها لهنّ، فلما جئن وأكلن، أرسلت إلىٰ قيس في أمرٍ ما- علىٰ غرار ما حدث ليوسف الصديق مع امرأة العزيز- فجلس معهنّ، وأطلن الجلوس معه، ومحادثته، وهو ساهٍ عنهن، لا يكاد ينظر إليهن، ورمسة تلحظه، حتىٰ يئسوا منه جميعًا، فقالت له إحداهن، وهي ابنة خالةٍ له:

- مالك يا قيس، ويحك! أولا تعرف أحدًا في البشر غير بنت الحباب الكعبي تتحدث معه، ألا تسمعنا!

فقال لها:

- نعم، إن لُبْنىٰ شفاء من كل داء، فإذا خدر جسمي، وشعرت أنه ضعيف خائر، وأنفاسي حارة ملتهبة، انطق اسمها، فيزول عني ما أشعر به، ثم راح ينشد:

فَيَا لَيْتَ أَنِّي مُتُّ قَبْلَ فِرَاقِـهَا ... وَهَلْ تُرجعَنْ فَوْتَ القضيَّةِ لَيْتُ





فيئسوا منه جميعًا، وانصرفوا عنه، وانصرف هو عنهنّ، ثم استأذنّ رمسة وخرجن إلىٰ دورهن، ولا حديث لهن إلا قيس بن ذريح، الذىٰ أصاب عقله شيء من فراق لُبْنىٰ بنت الحباب، وكانت رمسة أشدهن يأسًا وعجبًا، وازدادت علّة قيس، وأصبح مريضًا، ملازمًا للفراش، لا يقوىٰ علىٰ الحركة، ويبدو أن الحمىٰ قد عاودته مرة أخرىٰ، وقد كان الفضل للُبْنىٰ سلفًا، أم اليوم فمَن يساعد في شفاء قيس؟ سهرت رمسة تداوي قيسًا، وتبرد له جسده، وقد عاده أبوه، وهو يتألم لمرض ابنه قيس، فقال يخاطبه:

- يا قيس، يا بُني، ألا أشفقت علىٰ نفسك، ووالله أنت سبب هذا الداء الذي أصابك، ألا ركضت بفرسك كعادتك، وانطلقت في كل مكان، ألا نسيت ما حدث، وغصت في مقلاة الحياة كغيرك من البشر، ألا يممت وجهك البادية، وملأت صدرك نسيمًا، يرد لك عافيتك، أيعقل ما تفعله بُني، إنك مهلك نفسك؟.

- دعني يا أبت، فقد حانت منيتي، إن شفائي يكون في نسيمٍ يهب من ديار لُبْنىٰ، إن شفائي في أن أركض بفرسي نحو ديارها، فهلا أذنت لي في ذلك؟

- وماذا تقول عنّا العرب؟

- أي عرب، وأين كانوا حينما رحلت عني لُبْنىٰ؟

كان ذريح عازمًا أن يخبره أنه سيرد عليه لُبْنىٰ، شريطة أن يتزوج أخرىٰ ولود، لكن ما رآه من قيس جعله يرجئ رأيه، فقيس لن يسوء





لُبْنىٰ بزواج أخرىٰ معها، ينصرف الشيخ عن قيس بعد أن أعياه جوابه، لكنه سيفعل لاحقًا.

علم فتيةُ الحي وفتياتُه بمرض قيس، وهو المادة الدسمة لحديثهم إذا اجتمعوا واجتمعن، يتتبعون أخباره، وينشدون أشعاره في وقت لهوهم وعبثهم، وفي وقت جدّهم أيضًا، فيسأل ذريح جواري الحي أن يعدنه في مرضه، ويحدثنه علّه يستجيب لهنّ، أو يعلق قلبه ببعضهنّ، وذلك إذا حضر الطبيب، الذىٰ جاء ليداويه، وقد حضر الطبيب، وعنده بعض الجواري يجالسنه ويحادثنه، ففحص الطبيب قيسًا أكثر من مرة، لكن لم يجد به علّة ظاهرة، أو مرضًا عضالا، فسألنه الفتيات عن سبب علة قيس، وأكثرن في السؤال عن ذلك، عمدًا وقصدًا؛ حتىٰ يستثرن قيسًا، فيشاركهنّ الحديث، ويخرج مما هو فيه من انطواء وكبت، تسببا في ضعف جسده، وهلاكه، فيجيبهنّ قيس لا الطبيب:

ليتَ لُبْنىٰ تعودُنِي ثمَّ أقضِي ... إنَّها لا تَعُودُ فِيمَنْ يَعُودُ

فيدرك الطبيب السبب، ويعلم علّة قيس الحقيقية، فهي علّة خفيّة، ليست ظاهرة، فيتنحىٰ بذريح جانبًا، ويسأله، فيقص عليه كل ما حدث مع قيس، يوقن الطبيب أن قيسًا بحاجة إلىٰ علاج نفسىٰ- بلغة عصرنا الحديث- يخرجه من أزمته التي هو فيها، وذلك لن يتأتّىٰ إلا باجتماع كل مَن حوله، فيخاطب ذريحًا:

- إن علة قيس في داء العشق، وهو من أدواء القلب التي لا تقل فتكًا بالجسم عن الأمراض الظاهرية التي تصيبه، وهذا إن تمكن





من المرء، ربما أورده المهالك، وسببّ له أمراضًا ظاهرة في جسده؛ لأنه يتسبب في ركود بعض أعمال الجسم، فالعشق كداء الحقد والحسد والبغض وغيره، مما يصيب المرء من أدواء القلب، ولا يستطيع منها فكاكًا، إلا إذا عزم هو علىٰ ذلك، وأنتم يجب أن تساعدوه من التخلص من هذا الداء، وأن تجمعوا بينه وبين معشوقه، وإن استحال ذلك عليكم، فلتخلقوا له أسبابًا تنسيه ذلك المعشوق، فيرد ذريح في يأس:

- عجزنا أيها الطبيب.

يقترب الطبيب من قيس، ويرىٰ ما في جسمه من ضعف وخور، فيضع يده علىٰ قلبه؛ ليجسّ نبضاته، ثم يسأله:

- منذ كم هذه العلَّة تعاودك؟

فيرد عليه قيس: منذ عشقي لُبْنىٰ، ووجدي بها.

- ومنذ متىٰ كان ذلك؟

فينشده قيس:

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَها قَبْلَ خَلْقِنا ومن بعدما كُنَّا نِطافًا وفي المهدِ

يعجب الطبيب في قرارة نفسه بأبيات قيس الرقيقة، ويعجبه صموده وإخلاصه في عشقه، ويقول له:

- يا أخا العرب إنك هالك نفسك لا محالة، وداؤك في يدك، واعلم أن كل شيء بقضاء الله، وكل النساء سواء، وإني لا أجد فيك علَّة ظاهرة، غير أن تسلوا عن هذه المرأة التي تتعلق بها، وتذكر دائمًا ما فيها من عيوب ومساوئ، فكلنا فينا ذلك، وتذكر

مـا تعافـه الـنفسُ فيهـا مـن أقـذار بنـي آدم، ولا تتـذكر حـديثها ومضاجعتها، فإن النفس حينئذٍ تنبو، وتنفر، ويخفّ ما بها، والـزم ذلك في كـل حـال، وعليـك بـأخرىٰ تنسيك مـا أنـت فيـه، وقـيسٌ ينشده أبياتًـا يصـف فيهـا لُبْنىٰ، وكأنـه لا يسـمعه، فيـدخلُ ذريـحٌ، وقيسٌ ينشد الطبيب شعرًا في وصف لُبْنىٰ، فيغيظه ذلك مـن ابنـه، فيؤنبه بلهجة حادة:

– يا بُني، اللهَ اللهَ في نفسك، فإنك ميت إن دمت علىٰ تلك الحالة، وستهلكنا بعدك.

فينشده قيس:

هَلِ الحُبُّ إِلّا عَبرَةٌ بَعدَ عَبرَةٍ   وَحَرٌّ عَلىٰ الأَحشاءِ لَيسَ لَهُ بَردُ

يزداد غضب ذريح، ويوشك أن يلطم قيسًـا علـىٰ وجهـه، فيهـدئ الطبيب من انفعاله، ويتنحىٰ به بعيدًا عن قيس، ويخبره أن ابنـه مـريض بداء العشق، وهو مرض عضال لا يُستهان به، ويجب الرفـق بصـاحبه، ويخبره أن خير علاج له اجتماعه مع مَن يعشق، لكن هذا الأمـر عـلاج مؤقت لهذا الداء، سيخفف عنه، لكن لن يشفيه مما أصابه من داء؛ لأنه سيتعلق قلبه بمعشوقه، وكلما بعد عنه أصابه ما يصيبه الآن؛ لذا فأنجع الحلـول أن تزوجـه بـأخرىٰ مليحـة، تنسيه عشـقه، وتعيـد إليـه رشـده، ويستقيم معهـا في حياتـه، ولا بـد أن تعلـم هـي داءه مسبقًا حتـىٰ تقـوىٰ علىٰ علاجه، ولا تيأس.

– عرضنا عليه أيها الطبيب ذلك، لكنه يأبىٰ.



- لا حل لهذا الداء غير ما قلته لك، وبهذا قال سلفنا من الأطباء، حتىٰ الفقهاء صنفوا العشق من أمراض القلوب، ودلوا علىٰ علاجه، الذىٰ يكمن فيما أشرت لك به.

- قيس مريض إذن.

- يجب أن تعلم ذلك، ويجب أن تعامله علىٰ هذا الأساس، وكما أجبرته أنت وزوجك علىٰ طلاق زوجه، لا تدعه حتىٰ تزوجه بأخرىٰ يقبلها، فهذا أنجع له وأطب.

- أما ترىٰ أيها الطبيب هؤلاء الفتيات حوله، يحادثنه ويلاطفنه، وهو معرض عنهنّ، كيف لهذا أن يقيم مع زوجةٍ.

- هؤلاء إنما جئن يشاهدن قيسًا، ويسلين أنفسهنّ برؤيته، ويسمعن شعره في لُبْنىٰ، أنت أيها الشيخ بحاجة إلىٰ زوجة تخرجه مما هو فيه، فهو كما أسلفت لك مريض بداء العشق.

- لله درك، صدقت أيها الطبيب الحكيم، فليعني الله، لأفعل ما أشرت عليّ به.

يخرج الطبيب، ويخلو ذريح بقيس، ويخبره أن الطبيب أشار عليه بضرورة زواجك، حتىٰ تبرأ، وضرورة تشاغلك بأخرىٰ تنسيك لُبْنىٰ، فينشده قيس:

لَقَدْ خِفْتُ ألاّ تَقْنَعَ النَّفْسُ بَعْدَها ... بشيءٍ مِنَ الدُّنيا إن كانَ مَقنَعا

وأزجرُ عنها النَّفسَ إذْ حِيلَ دُونَها ... وَتَأْبَىٰ إليها النَّفْسُ إلاّ تطَلُّعا

- ستقنع النفس يا بُني إذا زجرتها عنها زجرًا حقيقيًا، اقنعها ناشدتك الله والرحم، قال ذلك ذريح في أسف ومرارة.





بعد طلاق لُبْنىٰ من قيس، لم يكف قيس عن ذكرها في شعره، ويذكر شوقه إليها، وحبه لها، ويتناقل الناس خبر قيس وشعره، ويدور مع الركبان، ويتندر به الفتية في أنديتهم، فيسيء ذلك الحباب، حتىٰ أشار إليه قومه بشكاية قيس إلىٰ خليفة المسلمين، بأن قيسًا يذكر لُبْنىٰ في شعره وقد طلقها، فكتب الخليفة إلىٰ الوالي أن يحذر ذريحًا إن فعل ابنه ذلك ثانية، فإن هذا قد يهدر دمه، فأمر الوالي أباها الحباب أن يزوجها من فوره، وأن قيسًا قد يصبح مهدور الدم إن عاد إلىٰ ذكرها، وأرسل إلىٰ ذريح بذلك أيضًا، وعلمت لُبْنىٰ الخبر، فأرسلت إلىٰ قيس إشفاقًا عليه مَن يحذره، ويخبره أن الوالي سيهدر دمه، إن تعرض للُبْنىٰ ثانية، ويترجّاه ألا يذكرها في شعره ثانية، حتىٰ لا يعرض نفسه للهلاك، فإن هلك لن يهلك وحده، لكن قيسًا لا يعيره اهتمامًا، وينشده في لُبْنىٰ أبياتًا يتمنىٰ فيها أن يرىٰ لُبْنىٰ، فلما بلغتها هذه الأبيات ظلت تبكي حتىٰ كادت تزهق نفسها، ثم قالت للرسول:

- وددتُ واللهِ لو فعلت، فقد أوشك الشوق أن يفتك بي، إنما أنا أخشىٰ عليه أن يقتله القومُ، فيا ليته يرفق بنفسه، ويرفق بي.

أما ذريحٌ فقد ضاق أفقه مما حدث، وبما يمكن أن يحدث، فيدفعه ذلك إلىٰ أن يزوج قيسًا بأي طريقة كانتْ، فيخرج من عند داره، حيث يلتقي بقومه في سمرهم، فيسألونه عن قيس، فيخبرهم بخبر الطبيب، فيوافقوه الرأي، ويخبرهم أنه عرض عليه رأي الطبيب، وأنشد لهم رد قيس بالبيتين السالفين، ثم أخبرهم خبر الوالي، وطلب مشورتهم، فأشار عليه أحدهم بأن يسيّر قيسًا إلىٰ أحد أحياء العرب،



وينـزل عليهم ضيفًا، علّ عينه تقع علىٰ امرأة تعجبه، يأخذ ذريح بمشورة الرجل، ويدخل علىٰ قيس متوددًا، يسأله عن حاله، وكيف أصبح اليوم، فيجيبه قيس، وهو لا يكاد ينظر إليه:

- الحمد لله يا أبت، أراني بخير، ولكن أخشىٰ أن تعاودني الحمىٰ، فأنا أعلم الناس بها.

- الأمر بيدك يا بُني، فأنت مَن يستطيع أن يعافي نفسه، وأنت مَن يمرضها، وإني أرىٰ أن تخرج إلىٰ بعض أحياء العرب، فتنزل عليهم ضيفًا، وتقيم عندهم أيامًا، فتغيير المكان قد يشفي من العلل، وقد تعجبك إحدىٰ فتياتهم، فتصهر إليهم.

يأبىٰ قيس، ثم ينشد أباه شعرًا في الشوق إلىٰ لُبْنىٰ، فتنتفخ أوداج ذريح، ويحمرّ وجهه من شدة كظم غيظه، ويقسم بأغلظ الأيمان علىٰ قيس أن يفعل ما يأمره به، وأن يرحل عنه، وينزل ضيفًا علىٰ بعض أحياء العرب، ففي هذا خير له.

يطيع قيس أباه، ثم يسأله:

- أي أحياء العرب أقصد؟

- اقصد الكلبيين.

فيرد قيس بحزم سريعًا:

- والله لا يكون هذا أبدًا.

فقيس يريد قومًا ديارهم في طريق ديار بني كعب، أو قريبًا منهم، فينزل عليهم ضيفًا، فيرضي أباه من ناحية، ويتنسّم أخبار لُبْنىٰ من ناحية أخرىٰ.





يتمالك ذريح نفسه، ويقول لقيس:

- اقصد بني فزارة إذن.

- أما هؤلاء فنعم.

جهّز قيسٌ حاله، ورحل حتىٰ نزل علىٰ حيٍ من بني فزارة، كضيف تفرّقت به السبل، فاستضافه أحدهم أيامًا كعادة العرب، الذين يتنافسون في إنزال الضيوف وإكرام وفادتهم، ثم خرج قيس يتجول في الحي الذىٰ نزل به من أحياء بني فزارة؛ ليقضي حاجة له، فرأىٰ جارية حسناء، معتدلة القد، متناسقة الأطراف، غليظة الأرداف، وقد حسرت برقع خزٍ عن وجهها، فهي كالبدر ليلة تمامه، فوقعتْ في نفسه موقعًا حسنًا؛ لما بينها وبين لُبْنىٰ من شبه، فاستوقفها وسألها، دون أن يستبين ملامحها جيدًا:

- ما اسمك يا جارية؟

- ليلىٰ.

فوقع الاسم علىٰ قلبه موقع السهم في الكبد؛ ولأنه مريض بلُبْنىٰ، حسبها تقول: لُبْنىٰ، فوقع مغشيًّا عليه، فارتاعتْ لما رأته كذلك؛ شفقة عليه، ولطفًا به، فأسرعت إلىٰ ماء بارد، فأتت به، ونضحت به وجهه، ثم قالت لمن حولها:

- والله إن لم يكن هذا قيس بن ذريح، فهو رجل مخبول العقل، ووالله إن قلبي ليحدثني أنه هو، فأنا أعرف خبره، وأحفظ شعره في بنت الحباب الكعبي.





فاجتمع الناس حوله، لما سعموا اسم قيس، فقد اشتهر اسمه، وقصته، بين أحياء العرب، وساعد شعره في لُبْنىٰ علىٰ تلك الشهرة، حتىٰ تمنىٰ فتية العرب وفتياتها لقاء قيس، هذا العاشق الولهان.

وبعد لأيٍ فاق قيس، وأول ما نظر رأىٰ وجهها، فإذا هي شبيهة للُبْنىٰ، وقد حسبها لُبْنىٰ في بادئ الأمر، فشعر بأنسٍ يداخل قلبه، وميلٍ نحوها، فسألها:

- مَن أنت يا جارية؟

- بل مَن أنت يا رجل؟ وهل أنت بخير؟

- أنا قيس بن ذريح الكناني.

- نعم، لابد أن تكون قيسًا، وإلا فأنت مخبول العقل، أما أنا فاسمي: ليلىٰ من بني فزارة، وناشدتك الله إلا نزلت علينا ضيفًا، وأكلت طعامنا، فنحن نقرِي الضيف، ونعين المرء، ونقضي الحاجة.

- نعم يا ابنة الكرام.

فأخذته إلىٰ دارها حيث أهلها وأبوها، فلما عرفوا أنه قيس بن ذريح، وقد سبقه شعره في لُبْنىٰ إليهم، هشَّوا له، وقدموا له طعامًا، وأكرموا وفادته، لكنه لم يُصب من الطعام إلا لقيمات قليلات، ثم استأذن منهم ورحل عنهم إلىٰ مَن استضافه من بني فزارة سابقًا.

وكان لليلىٰ أخٌ أديب من محبي الشعر ورواته، وهو علىٰ دراية كاملة بقصة قيس بن ذريح، وبشعره في لُبْنىٰ بنت الحباب، ولم يكن موجودًا وقت مجيئ قيس، فلما رجع إلىٰ داره، وجد مناخ ناقة قيس





أمام الدار، فسألهم عن خبر صاحب الناقة، فأخبروه أنه قيس بن ذريح، فلم يصدق الرجل! وركب في أثره حتىٰ أتىٰ منزل ابن عمه الفزاري، والتقىٰ قيسًا هناك، وأقسم عليه أن يقيم أيامًا عنده، فأبىٰ الفزاريُ حتىٰ يقضي حق ضيفه ثلاثة أيامٍ، ثم يسمح له باستضافة قيس، وبعد انقضاء المدة ينزل قيسٌ ضيفًا علىٰ أخي ليلىٰ، ويطلب منه أن يقيم أيامًا عديدة عنده، لكن ابن ذريح يأبىٰ، فيقسم عليه أخو ليلىٰ، فيقول له قيس:

- لقد شققت عليّ يا أخا العرب، ولكن سأتبع هواك، وأنزل عليك ضيفًا لأيام قليلة.

- والله ما شققت عليك، وودت لو أقمت عندنا العمر كلَّه يا أديب العرب وشاعرهم، فقد أخبرني ابن أبي عتيق خبرك، ووالله إن فيه لعجبًا، وإني أجمع شعرك في لُبْنىٰ، ولو شئت تلوته عليك بيتًا بيتًا.

- أوتعرف لُبْنىٰ؟

- ومَن من أهل الحجاز لا يعرف خبر لُبْنىٰ، وقيس بن ذريح، ولكن لم طلقتها يا قيس؟.

- ما تقول في رجل غلب حمقه عقله؟ ليتني رحلت بها بعيدًا! ليتني نزلت بأي حي من أحياء كرام العرب، وما طلقتها!

- ارفق بنفسك قيس، واستحلفك بالله أن تنشدني ما استجد من شعرك، فإني أريد أن أسمعه من مصدره؛ حتىٰ إذا دوّنتُ كتابي، قلت: أنشدني قيس بن ذريح دون سندٍ، ولا عنعنةٍ.



ثم راح قيس ينشده من رقيق شعره، وأخو ليلىٰ يزداد إعجابًا بقيس وباكتمال عقله، وحسن روايته، حتىٰ تمنىٰ أن يصهر إلىٰ قيس ويزوجه ليلىٰ أخته، فحدث أخته برغبته، فلم ترغب عن قيس، حتىٰ كان اليوم الرابع من استضافة قيس، قال له أخو ليلي:

- يا قيس إن لي في صهرك رغبة.

فيرد عليه قيس في يأس:

- ولكني في شغل لا يُنتفع بي معه، ولا أصلح للزواج.

- مثلك يصلح لكل شيء، فأنت مكتمل العقل، سليم الرواية، ذو حسب ونسب، ولا يرغب عنك أحد.

ولا زال به يرغّبه في الزواج من أخته ليلىٰ، في كل وقت، وفي كل حين، حتىٰ وهم مجتمعون للسمر، حتىٰ لامه بعض الفتية الفزاريين، وقالا له:

- اكفف عن قيس، حتىٰ لا يصير فعلك سبّة علينا بين العرب.

- دعوني ففي مثل هذا الفتىٰ يرغب الكرام.

فمازال به أيضًا، حتىٰ يجيبه قيس إلىٰ رغبته، ويصهر إليه علىٰ أخته ليلي، ثم يقول له:

- أنا أسوق عنك صداقها.

- أنا والله أكثر قومي مالا، فلا تكلف نفسك ذلك، ولكني سأرحل إلىٰ أهلي، وأسوق إليك المهر.

- سمعًا لك وطاعة يا قيس.



يرحل قيس إلىٰ أهله، وأخبر أباه، فسُرَّ سرورًا عظيمًا، وسُرَّت رمسة بذلك الخبر، وهنّأت قيسًا، ودعتْ له، وساق أبوه عنه المهر إلىٰ الفزاريين، وأهدىٰ له عبدين يقوما علىٰ خدمته، حتىٰ يرجع إليهم، ونصحاه بأن يكرم زوجه، فأجابهم قيس إلىٰ ذلك، وأخبر ذريح قومه، فسُرّوا جميعًا به، ثم رحل قيس مبكرًا إلىٰ الفزاريين، وساق إليهم مهر ليلىٰ، وكان مهرًا عظيمًا، ارتجّت له أرض الفزاريين، وعلموا صدق قول أخي ليلىٰ: إن قيسًا لا يرغب في صهره إلا الكرام.

ثم إن قيسًا تزوج ليلىٰ، ولم يدخل بها، وطلب منهم أن يرحل وزوجه إلىٰ أهله، فأذنوا له بذلك، وفي الطريق لم يهشّ إليها، ولم يأنس بها، حتىٰ لم يخاطبها إلا بكلماتٍ قليلات، وليلىٰ تصبّر نفسها، حتىٰ يصل إلىٰ أهله، فلعله يستحي من العبدين.

يصل قيسٌ إلىٰ أهله، فهشّوا إلىٰ لقائه ولقاء عروسه الفزارية، وأولم ذريح وليمة دعا فيها أهله، الذين هنّأوا قيسًا، الذىٰ بدا متبلدًا، لا يهش لشيء أبدًا.

استأذن قيس عروسه ليلىٰ في الذهاب خارج مضاربهم في حاجة له، وهىٰ لا تزال بكرًا، لم يدخل بها بعد، فتأذن له علىٰ مضض، وتصبّر نفسها، وتلتمس العذر له، ثم لا تريد أن تبدأ حياتها بنزاع معه، فأذنت له، حتىٰ إذا رجع كان لها معه شأن.

خرج قيس لا يلوي علىٰ شيء، ويسير بناقته علىٰ غير هدىٰ، فيلتقي في طريقه بصديق له من هؤلاء الذين يدونون شعره، ويتتبعون حياته، فأخبره أن خبر زواجه وصل إلىٰ لُبْنىٰ بنت الحباب، فحزنت



حزنًا عظيمًا، وقالت عنك أنك غدار وخائن، وكانت تأبىٰ الزواج، وتردّ كلَّ مَن يرغب في الزواج منها، أما الآن فلن ترد أحدًا يريد خطبتها، فجزع قيس لذلك جزعًا شديدًا، وأخذ ينتحب بشدة، ثم ركب من فوره إلىٰ ديار لُبْنىٰ، وليحدث ما يحدث...وفي الطريق رأينه بعض الجواري، وكانت فيهن جارية للحباب، فعرفت قيسًا، وفطنت إلىٰ وجهته، فمالت عليه قائلة:

- ما تصنع يا قيس هاهنا، وقد رحلتْ لُبْنىٰ؟!!!.

❊❊❊❊



(٩)

يأسٌ وأمل

كأنّ سهمًا مسمومًا انغرسَ في كبدِ قيس، أعجزه عن فعل أي شيء ذي قيمة، وذلك عندما علم بزواج لُبْنىٰ من رجل آخر بعيد، حتىٰ صار كفاقد عقله تمامًا، فقد ازداد همّه همًا، وغمّه غمًا، ومكث عند صاحبه أيامًا لا يبرح، ولا يتكلم، ولا يمد إلىٰ طعامٍ يدًا، إلا بقدر لقمةٍ أو لقيمتين، حتىٰ خشي صاحبه عليه الموت، وأيقن أن قيسًا أمره قد يودي به إلىٰ الجنون الكامل حتمًا، فاحتال عليه بأن يرحل إلىٰ داره، حيث عروسه الجديد، ويأبىٰ قيس، ويزداد حاله سوءًا، فلازال به صديقه حتىٰ أقنعه بأن يرحل اليوم إلىٰ عروسه الجديد.

يرحل قيس وهو موشك علىٰ الموت، فيشفق عليه صاحبه، ويرحل معه، حتىٰ إذا وصل إلىٰ دياره التقىٰ بالشيخ ذريح، وأخبره خبر قيس، وأخبره أن لُبْنىٰ قد تزوجتْ، وعليه أن يعتني بقيس، فهو شارد اللب والعقل، فحزن ذريح حزنًا شديدًا علىٰ قيس، فقد كان عازمًا علىٰ أن يرد عليه لُبْنىٰ، فيعيش مع لُبْنىٰ وليلىٰ، علّه يسلو بواحدة، ويرزقه الله من الأخرىٰ ولدًا، أما الآن فقد تعقّدت الأمور، وصار الخطبُ جللا، وقد قدّر ذريح ما ستؤول إليه الأمور القادمة، فازداد همّه.





ثم رأىٰ الشيخ ذريح أن يقصد ليلىٰ زوج قيس، فيخبرها خبره، ويطلب منها أن تعين قيسا، وتجتهد في إخراجه من الحالة التي هو فيها، وأن تنحي غيرة النساء الآن جانبًا، وتتعامل مع قيس علىٰ أنه مريض بداء العشق، فهي الآن أقرب الناس إليه، وألصقهم به، وأقدرهم علىٰ المساعدة في تمام شفائه.

يطرق ذريح باب ليلىٰ، ومعه قيس، تستقبلهم ليلىٰ فرحة بقدوم قيس، وهو لا ينتبه إليها، تتجاهل الأمر، وتتحامل علىٰ نفسها، يدخل قيس الدار، ثم يضجع علىٰ أقرب أريكة، ويتمدد مرهقًا شاردًا، أما ذريح فينادي ليلىٰ، وينفرد بها:

- كيف الحال يا بُنيتي؟ لقد عاد قيس، وهو كما ترين ساهمًا شاردًا خائر العزم، ضعيف الجسد.

- أدرك يا عم ما فيه قيس.

- دعيني يا ابنتي أحدثك حديث أب لابنته.

- سمعًا وطاعة يا عم، كلي آذان صاغية.

- إنه لا يخفىٰ عليك ما فيه قيس، وأنه مصاب بداء العشق، وأنا مَن عزمت عليه أن يتزوج؛ حتىٰ يساعد ذلك في شفائه، ونسيانه زوجه الأولىٰ، وأنا مَن عزمت عليه أن يخرج إلىٰ أي حي من أحياء العرب الكرام، علّه يجد فتاة مليحة تتزوجه، فتخرجه مما هو فيه، وتنسيه زوجه الأولىٰ، ولعل الله أن يرزقه منها بالولد، فتقر عينه وأعيننا، وقد نزل إلىٰ حي من بني فزارة، والتقىٰ بك بُنيتي، ويعلم الله كم كنت سعيدًا حينما أبلغني بعزمه علىٰ الزواج



بك، وقد سُقت المهر إلىٰ أخيك، ذلك الرجل الشهم الكريم، وأنا في غاية الرضا عن الأمر، ولكن حدث ما قلَبَ شأنه، وغيّر حاله، وأوصله إلىٰ ما أنت ترين، فقد أخبره صديق له بأن زوجه الأولىٰ بنت الحباب قد تزوجت، فازدادت حاله سوءًا علىٰ سوئه، وأصابه الإعياء، وما أنت تشهدين، وأنا أعلم أنك امرأة يعتريك ما يعتري النساء من غَيرة، ولكن هذا زوجك، وحينما تزوجك لم يكن حاله يخفىٰ علىٰ أحد ولا عليك، فالعون العون والمساعدة المساعدة في الرفق به، والاستحواذ علىٰ عقله وقلبه، واحتسبي ذلك عند الله...

- كنت أعلم يا عم أن قيسًا يعشق لُبْنىٰ، فقصته لا تخفىٰ علىٰ أحد، وقد استشارني أخي في المصاهرة إلىٰ قيس، فرضيت ذلك، وكنت أحسب أن الأمر سرعان ما سيزول من قلبه وعقله، ويثوب قيس إلىٰ رشده، وينتبه إليّ، فاستطيع أن أمحو ما في قلبه، وأحل محل بنت الحباب، ونحيا كغيرنا من الأزواج، فأكون أنا زوجة قيس بن ذريح، ويذكرني في شعره، وأسكن في كتب الأدباء، والرواة، والمؤرخين، لكن يبدو أن الخطب جَلَل، وأن محل بنت الحباب ليس في قلب قيس فقط، بل في كل جانحةٍ من جوانحه، وفي كل قطرة من قطرات دمه، وما فيه قيس لم يكن عشقًا أبدًا، بل هو الداء العضال بعينه، الداء الذىٰ لا يُرجىٰ شفاؤه، فأي زوج تلك التي تقوىٰ علىٰ أن يفعل زوجها ما يفعله



قيس؟ وأي زوج تلك التي لا ينتبه إليها زوجها يوم أن دخل عليها...

- أدرك ذلك يا بُنيتي، ولكن هذا زوجك، فاصبري، واحتسبي ذلك عند الله، لعل الله أن يجعل الفرج قريبًا.

- ليكن ذلك يا عم، سأستحضر كل ما خلق الله في النساء من حِيل مكر، لعل الله يريد خيرًا...

ينصرف ذريح، وهو يدرك أن ليلىٰ صادقة مخلصة محبة، ولكن هو علىٰ يقين أنها مهما أُوتيت من حِيل النساء، فلن تقوىٰ علىٰ نزع بنت الحباب من قلب قيس.

وتنصرف ليلىٰ إلىٰ قيس، فتجده قابعًا منزويًا علىٰ أريكته، كأنه سقط متاع، تقترب منه دون أن تحدثه، ثم برفق ترفع رأسه وتضعها علىٰ فخذها، وتمسح بيدها اللينة علىٰ وجهه وشعره بكل رقة وحنان، ينتبه قيس مما هو فيه، فتخاطبه ليلىٰ:

- أي قيس، أي زوجي الحبيب، ألا تنظر إليّ؟

- أنا لست بحاجة إلىٰ ذلك.

بإغراء وتغنج، تقول:

- انظر إلىٰ تلك الفتاة البكر، ذات الغنج والدلال التي بجوارك، وقد بذلتْ نفسها وجسدها إليك، قم يا قيس، قم يا زوجي الحبيب، فالأمر أبسط مما تفعله بنفسك، قم وانتبه إلىٰ حالك، وارفق بي وبأبويك.





- دعوني وشأني فإنّي ميت، وأبىٰ هو مَن جنىٰ عليّ، وأنتِ لك أن تلحقي بدار أخيك أنَّىٰ شئت، أو ابق هنا، فأمرك بيدك.

تحرق هذه الكلمات قلب ليلىٰ، ويكاد الندم يتسرب إلىٰ قلبها، ولكن وعدت الشيخ، ونفسها -أيضًا- أن تصبر، وتنتزعه مما هو فيه، ولابد أن تجرب معه كل حِيل النساء كما وعدت، وذلك قبل أن تيأس منه، فتواصل الحديث معه، وقد زاد تغنّجها:

- ألا تتوق نفسك يا قيس إلىٰ ما يشد الرجالَ إلىٰ النساء؟

- نعم، تتوق.

فترد ليلىٰ بقوة واندفاع:

- إذن هيا، ما يمنعك؟ إني مبذولة لك.

- تتوق نفسي إلىٰ شيء واحد، تتوق إلىٰ...، تقاطعه ليلىٰ سريعًا بكلمات مبهمات، حتىٰ لا يكمل قوله، فمن المؤكد أن نفسه تتوق إلىٰ رؤية لُبْنىٰ الآن.

لم تعد تتحمل بلادته، وشتات ذهنه، تجرب معه حِيلة أخرىٰ، تحاول فيها أن تثير غرائزه، فتكشف له عن مفاتن جسدها التي تحرك جلاميد الصخر، وتلامس بفمها فمه، ثم تُسقِط ثدييها النافرين علىٰ صدره، فيتراقصان أمام عينيه ببطء، لا يتحرك إلا قليلا محاولا أن يبعدهما عن صدره، يُظهر من البلادة ما ينبئ عن أنه لا طائل منه، تنفذّ آخر حِيلة لديها، تتعرّىٰ له كاملة، وتكشف عن جسد لينٍ ناعمٍ أبيض، كأنه قطعة من البلور، كل ذرة فيه تستعر فيها نار الشهوة التي لا تنطفئ، يظل هذا الجسد المتقد ينادي قيسًا؛ ليتمتع به، فالنظر إليه ينسي كل



شيء، فما بالك بملامسته والاندماج فيه؟ لكن لا تبتدر من قيس أي بادرة، كل ما يفعله أن يطلب منها أن تغطي جسدها، فكل الأجساد محرمة عليه بعد لُبْنىٰ، وجسده لن يلامس جسدًا بعدها مهما كان.

ترتدي ثيابها، وقلبها يغلي من الغيظ والندم أن تزوجت من ذلك الأبله المجنون، فاقد كل شيء، وتشعر أنها سلعة بخسة الثمن، علىٰ الرغم من أن ما فعلته حق وواجب عليها لزوجها، لكنه يجرح شعورها وكرامتها، وتعزم هي داخل نفسها أنه لن يمسها ولو كان في هذا شفاؤه، وما كانت تدرك أن حالته كذلك، وأنه مريض، وليس عاشقًا، ثم تتركه وتذهب إلىٰ خارج دارها، حيث تقابل رمسة التي تسألها عن حال قيس، وهي تتمنىٰ أن يكون قد قضىٰ معها حاجته؛ لتنجب ذلك الطفل الذىٰ ينتظرون قدومه، تخاطبها رمسة:

- أي ليلىٰ، كيف حالك مع قيس يا بُنيتي؟

- علىٰ غير ما يرام يا عمه.

اغتمَّتْ رمسةٌ من إجابة ليلىٰ، وإن كانت تدرك ذلك تمامًا، فقيس ساء حاله منذ بضعة أيام.

- ولم يا بُنيتي؟

تحكي ليلىٰ كل شيء لرمسة، بدءًا من زواجه بها، حتىٰ تلك اللحظة سالفة الذكر، ورمسة لا تجد ما تقوله لليلىٰ سوىٰ دموع غزار يتساقطن علىٰ خديها، فتشفق ليلىٰ علىٰ رمسة، كما أشفقت علىٰ الشيخ ذريح من قبل، فهي تدرك أنهما لا حيلة لهما، وإنهما عجزا عن فعل أي شيء مع هذا الأبله، وهما قد عقدا الأمل علىٰ ليلىٰ، علّه





يثوب إلىٰ رشده معها، فتهدّئ ليلىٰ من روع رمسة، وتعدها أن تصبر علىٰ أذىٰ قيس، حتىٰ يقضىٰ الله أمرًا، وتمر الأيام والحال كما هي، أما ليلىٰ فلم يبق لها في قوس الصبر منزع، والشيخان لا حيلة لهما سوىٰ الصبر، وعقد الأمل علىٰ عروسه الجديد، التي استسلمت، وتنتظر اللحظة التي ترحل فيها إلىٰ ديار بني فزارة قومها، وقد حانت تلك اللحظة.

استيقظ قيس مبكرًا، وطلب من أبيه أنه سيعينه في تجارته، فاستبشر ذريح خيرًا، وفرح بابنه الذىٰ طلب منه بعض النوق؛ ليبيعها في سوق المدينة المنورة، ويمتار لأهله ببعض ثمنها، لكن ذريح يأبىٰ، فتحديد سوق المدينة هذا معناه مسكن لُبْنىٰ وزوجها، وهذا يعني إهدار دمه إن تعرض لها في دارها أو في شعره، فيجلب عليه المسبة والفضيحة، فيسأله الشيخ:

- ألا يوجد غير سوق المدينة يا قيس؟

- إن لي فيه أعوان يا أبت، وأنا علىٰ دراية بأهله وطرق مساومتهم.

- أتقصد السوق يا بُني؟ أم تراك تقصد غرضًا آخر؟

- وهل في المدينة المنورة سوىٰ السوق يُقصد لبيع الإبل؟!

فيجيبه ذريح بصوت قوي، وفي لهجة صارمة، ويحمل في طياته التحذير:





- نعم يا قيس فيها دار بنت الحباب، وزوجها الجديد، وأيم الله لو تعرضت لها في شعرك، فستجلب لنا ولقومك ما لا طاقة لنا به، فأنت تعلم أنك مُهدرُ الدم.

ويذكِّر ذريح نفسه بتلك الكلمات، فيأبىٰ علىٰ قيس أن يذهب إلىٰ سوق المدينة، لكنه يلحّ علىٰ أبيه الذىٰ يتردد، وفي نفس الوقت يريد أن يدفع بقيس إلىٰ مخالطة الناس.

تشجع رمسة ذريحًا علىٰ ذهاب قيس إلىٰ سوق المدينة، فيوافق الشيخ، ويذهب قيس.

يدخل السوق، ويعرض نوقه للبيع، يسأل كلَ مَن يقترب من نوقه عن نسبه، وعن محل داره لعل أحدًا يعرف لُبْنىٰ فيحدثه عن أخبارها، يأتي إليه رجل يبتاع منه ناقة ثمينة، يساومه في السعر فيجد قيسًا سمحًا في المساومة، فيبتاعها منه دون مساومة تُذكر، ثم يقول له:

- غدًا أتني في مكان كذا، واقبض الثمن.

- نعم، ومَن أنت؟

- أنا من آل كثير بن الصلت الكِنْدي، حليف قريش، وهو زوج لُبْنىٰ عينه، ولكنهما لا يعرفان بعضهما البعض.

- نعم سآتيك يا أخا العرب بعد أن أفرغ من بيع النوق، وسأمرّ عليك غدًا وأنا في طريقي.

يذهب الرجل، وقد وجد من سماحة قيس ما وجد، ويخبر لُبْنىٰ أنه ابتاع ناقة من رجل من البادية سمح كريم، وغدًا سيأتي ليقبض ثمن الناقة، فأعدي له طعامًا، فلمَّا كان الغد وفرغ قيس من نوقه، عرَّج في



طريقه علىٰ ديار آل كثير بن الصلت، فلما رآه مَن يعرفه، سأله عن وجهته، فهو يعرف أن قيسًا يسلك الطريق التي تؤدي به إلىٰ دار لُبْنىٰ، فيخبره قيس أن رجلا من آل كثير بن الصلت قد ابتاع منه ناقة، وواعده بقبض ثمنها، وهو ذاهب إليه، فتركه الرجل بين مكذب لخبره ومصدقه، لكنه ظل يرقبه من بعيد، حتىٰ وجده يقترب من ديار لُبْنىٰ، فأشفق عليه من إهدار دمه، فلحق به، وهو يساوره الشك، ثم سأله:

- أصدقني يا قيس أين وجهتك؟ فإني لك من الناصحين، فلم يزد علىٰ ما قاله له، فأخبره أن آل كثير بن الصلت منهم زوج لُبْنىٰ، فلو وجدوه هنا فلن يكون خيرًا له ولقومه، فأبىٰ قيس إلا أن يفعل، وهو لا يشك لحظة أن مَن ابتاع منه الناقة ليس زوج لُبْنىٰ، فتركه الرجل، وهو عليه مشفق، ثم توارىٰ قيسٌ عنه، وقد أيقن أنه قريب من ديار لُبْنىٰ، وإن سأله سائل منهم، فسيخبره أن له مالا عند القوم، وهىٰ حجةٌ قوية، لا ينكرها عليه أحد... وصل قيسٌ إلىٰ دار الرجل، وهو بين الأمل والرجاء، من أن يكون قريبًا من دار لُبْنىٰ، أو أن هذا الرجل يعرف عنها شيئًا، ثم نادىٰ بصوت خفيض، فخرج الخادم، فقال له قيس:

- اخبر سيدك أن صاحب الناقة بالباب، ويريد ثمنها الآن، وكانت لُبْنىٰ قريبة من الباب، فسمعتْ صوت قيس فعرفته، وهىٰ لا تصدق، فلم تتكلم، ولم تفعل شيئًا، فقد سُمِّرت رجليها إلىٰ الأرض، وانخلع قلبها، ودار في خلدها أن قيسًا سيُهْدر دمه اليوم إن أحدًا عرفه، فأمرت الخادم أن يدخله حتىٰ يحضر زوجها، ولا



يـراه أحـد مـن قومـه فيخـبره عنـه، ثـم نظـرتْ إليـه لُبْنـىٰ خلسـة، وانقبض قلبها عليه، فقد صار أشعث أغبر، نحيل الجسد، هزيل، يحمل فوق رأسه همَّ الدنيا بأسره، فرقّت لـه لُبْنىٰ، وحبستْ في عينيها دموعًا منهمرة كسيل عَرِم، ثم أمرت الخادم، أن يسأله: لم هو أشعث أغبر؟ فقال قيس بعد أن تنفس الصعداء:

- إني علىٰ سفر، وهذا حال مَن علىٰ سفر.

- أصدقني يـا أخـا العـرب، فسـفرك لـيس بعيـدًا، فأنـت مـن أهـل البادية، وتبدو مريضًا. فلم يجد قيس بدًا من إخباره، لعلـه يعـرف منه شيئًا عن لُبْنىٰ، فقال له:

- هكـذا تكـون حـال مـن فـارق الأحبـة، واختـار المـوت علـىٰ الحياة، ثم دمعت عيناه.

فأمرت لُبْنىٰ الخـادم أن يقـول لـه: اخبرنـا خـبرك، فلمَّـا بـدأ قـيس يقص خبره، وقفت لُبْنىٰ خلف الستار، وكلها شـوق إليـه، ولـم يمنعهـا من الخروج إليه إلا تقاليد العرب وأعرافهم، فقالت له:

- حسـبك قـد عرفنـا حـديثك! وعرفنـاك يـا قـيس، وإنَّـا لنخشـىٰ عليك، ولا نريد لك الهلاك، فاقبض ثمن ناقتك، وارحـل سـالمًا غانمًا، ولا تخبر عن نفسك فيصيبك أذىٰ.

فبُهـت لحظـةً، وظـل واجمًـا شـاردًا لا يقـوىٰ علـىٰ الكـلام، فقـد عرف لُبْنىٰ وسمع صوتها، فانفجر باكيًا، وخرج ورجلاه لا تقوىٰ علـىٰ حمل جسده، لا خوفًا علىٰ نفسه، ولكن طاعة للُبْنـىٰ، وحتـىٰ لا يعرفـه زوجها، فربما تحين فرصة للقاء آخر.





يقدم زوج لُبْنىٰ، ويسأل الخادم عن صاحب الناقة، فيخبره الخادم أنه ما رأىٰ رجلا أغرب منه، فقد ترك الدار، وخرج فجأة، فيخرج زوج لُبْنىٰ خلفه، فيجده قد امتطىٰ دابته ورحل، فينادي عليه:

- يا أخا العرب... يا أخا العرب...لا يلوي قيس علىٰ شيء، ولا يلتفت حتىٰ خلفه، وكأنه قد ارتكب جرمًا، يفر منه، ينادي زوج لُبْنىٰ عليه:

- يا أخا البادية، ارجع...

- ارجع اقبض ثمن ناقتك، ارجع وإن شئت زدناك...

لا يلتفت إليه قيس، فيأمر زوج لُبْنىٰ خادمه بأن يلحق بقيس، ولا يدعه حتىٰ يلحق به، فأهل البادية طباعهم غريبة، وأفعالهم أغرب، وهو لا يشك أن قيسًا ترك ثمن ناقته؛ لأنه تأخر في الخروج إليه، أو ربما ظن أنه لا يملك مالا، فتركها كرمًا وجودًا، فقد كان سمحًا في بيعه وشرائه، فيقول لخادمه أن يخبر صاحب الناقة: إنَّا وجدناه سمحًا كريمًا، وما نحن بالذين نبخس حق أحد، لكن الخادم لم يلحق قيسًا الذىٰ غذَّ السير إلىٰ بادية الحجاز، ولم يلحقه إلا قرب داره، فناداه مرارًا، لكن قيسًا كان شارد اللب، مغيب العقل، لم ينتبه له، ودخل قيس داره، فعرف الخادم الدار، فانتظر حتىٰ يسلم قيس علىٰ أهله، واستراح هو بعض الوقت.

كان ذريح أول مَن قابل قيسًا، فسأله عن حاله، وماذا فعل في النوق في سوق المدينة، وكان يبدو عليه كل علامات الجهد، فلم يشأ يخبر أباه بشيء، فقال له ذريح:





- أين ثمن النوق يا قيس؟ مَن ابتاعها منك؟

يرد عليه قيس باقتضاب شديد:

- السوق نافقة اليوم، ولم أجمع من ثمنها إلا بضع مئات من الدراهم، وبعضها آجل.

- وتعرف مَن ابتاعها منك بثمن آجل يا قيس؟!!!

- نعم.

- أي نعم!!! والله ما كان قصدك بيع نوق، ولا أن تمير أهلك، إنما هي بنت الحباب، التي ابتلاك الله بها.

أخذ ذريح منه ما تبقىٰ من المال، وقال له: اذهب إلىٰ زوجك، فهي بانتظارك، يدخل قيس علىٰ زوجه، فتهش إليه، أما هو فلم يأبه بها، وكأنه لا يرىٰ شيئًا، ثم تمدد علىٰ أريكته وراح ينشد أبياتًا في وصف ما حدث له مع لُبْنىٰ وزوجها.

طرق الخادم الدار، فقابله ذريح، فسأله الخادم عن صاحب الناقة الأشعث الأغبر، فأخبره ذريح أنه ابنه، فسلمه ثمن الناقة، وقص عليه ما كان من قيس، ورحل دون استضافة، فزوده ذريح بماء وزاد وشكره، وقد فطن ذريح أن الذىٰ رأىٰ قيس هو زوج لُبْنىٰ، فحمد الله علىٰ أن الأمر انتهىٰ إلىٰ هذا الحد، ثم خرجت ليلىٰ من دارها غضبىٰ، فوجدت ذريحًا أمامها، فقصَّتْ له خبر قيس وشعره في لُبْنىٰ، وعزمت ألا تظل ساعة أخرىٰ مع قيس، وستلحق بأهلها الليلة، فلم يجد الشيخ لبقائها سببًا، ولم يجد قولا يمكن أن يقال لها سوىٰ:





- فلترحلي يا بُنيتي، فلك ألف عذر، وأمر قيس بطلاقها، وأمر العبدان بتجهيز ليلىٰ ومرافقتها، وأجزل لها في الصداق والعطاء، وقبل رحيلها قالت للشيخ:

- أشهدك يا عماه أن قيسًا ما مد لي يدًا، ولا رفع لي ثوبًا، فلا تزوجه من أخرىٰ، فَتُبْتَلي به مثل ما بُليت.

❊❊❊❊



(١٠)

قيسٌ والأميرُ يزيد

رحلتْ ليلىٰ عن قيس، وعن ديار الكنانيين، إلىٰ قومها بني فزارة، وكان أخوها غائبًا في بعض شأنه، فلمَّا قدم وجد أخته ليلىٰ بالدار غضبىٰ، تندب حظها، فتعجب من وجودها، وكيف قطعت تلك المسافة وحدها، وكيف لم ترسل إليه رسولا يخبره؛ ليأتي إليها، وكأنها قدمت علىٰ جناح الطير؟ فيسألها:

- ماذا حدث؟

فتجيبه بحنق شديد:

- لقد زوجتني برجل فاقد العقل.

- قيس! إنه زين الرجال، وكامل العقل والفضل، وحسن الرواية، أنت مَن لم تحسني عشرة الرجل.

- أنت تنظر إلىٰ أدبه وشعره الرقيق، أنت وابن أبي عتيق وفتيان الحي، مَن أفسدتم عليه عقله.

- ويحك! كيف؟

- تعجبون بشعره، وتروونه وتتناقلونه، ولا تكادون تعرفون حاله، إنه جسد لا عقل فيه، وقطعة لحم بلا إحساس.

- أنت مَن لم تفلحي في أن تحلّي محل لُبْنىٰ، أنت مَن لم تقو علىٰ الاستئثار بقلبه.





- صدّق ما أقوله لك، إنه لم يرفع إليّ طرف عين، ولم يمد عليّ يدًا، ولم يكشف لي عن ساق.
- ألهذا تركتيه؟
- وما يبقىٰ للمرأة في الرجل بعد هذا، إني تركته، وسئمت كل رجل يأتي بعده.
- وصداقك؟
- أعطانيه أبوه مضاعفًا، وأكرمني كبنتٍ له، أرجو أن تُطوىٰ سيرة هذه الفعلة إلىٰ الأبد...

يخرج أخوها ويتمتم: «حمقاء، تركت قيسًا أشعر الرجال وأرقَّهم»

أما قيس فلم يعد يفكر في شيءٍ سوىٰ لُبْنىٰ، خاصة بعد أن رآها مصادفة، ولو أنه رتّب لهذا اللقاء، ربما كان دمه قد سُفك، ولا حيلة له الآن في الوصول إليها، فالوالي قد أهدر دمه، ولُبْنىٰ الآن زوجًا لرجل من آل كثير، ماذا عساه أن يفعل؟ إن قلبه يتحرّق علىٰ لُبْنىٰ، وعلىٰ المكان الذىٰ تقطن فيه، ويود لو ذهب إليه مرارًا، لكن الأمر معقّد، ولا حيلة له في فعل شيء، فيزوره أحد أصدقائه، من فتية البادية، ويشكو إليه قيس، فيشير عليه برأي، ويرجو له أن يفعله، يقول له:

- إن الأمير يزيد بن معاوية شاعر رشيق الكلمات، يحب الشعر ويتغنىٰ به، ولا يحتجب عن أحد أبدًا، وقريب من قلب أبيه الخليفة؛ لأنه يعدّه للخلافة من بعده، ويقدمه للناس؛ ليقضي حوائجهم، فاذهب إليه ولن يردك خائبًا.





يقلّب قيس الفكرة في ذهنه، ويسأل صديقه:

- وماذا عساني أقول له؟

- أن يرسل لوالي الحجاز فيعفو عنك، ولا يهدر دمك إذا ذكرت أحدًا في شعرك، فالشعراء في كل واد يهيمون، ولا يتبعهم سوىٰ الغاوين.

لا يقنع قيس برأي صديقه، وماذا يمكن أن يقول لابن الخليفة، أيطلق لُبْنىٰ من زوجها؟ أو أن يقرِّب له مزارها؟ ماذا عساه أن يقول؟ وماذا يمكن أن يقال؟ تكرُّ الأيام وقيس يوشك أن ينفجر قلبه بين ضلوعه، فتختمر في ذهنه فكرة الذهاب إلىٰ الأمير يزيد بن معاوية، ثم تكرُّ الأيام والفكرة تنضج حتىٰ تستوي، ثم تؤتي أُكُلها...

يعزم قيس علىٰ الذهاب إلىٰ دمشق؛ لمقابلة الأمير، لكن المسافة طويلة ما بين الحجاز ومقر الخلافة في دمشق، والذهاب والإياب سيستغرق مدة طويلة، ماذا يمكن أن يقول لذريح ورمسة؟ أيتسلل لواذًا؟ لا يمكن، فسيفتقدانه، ويظنان به الظنون، لكن في نهاية الأمر هو يدرك أن ذريحًا ورمسة قد يئسا منه، فلا يهم ما يفعل، فيعرض علىٰ أبيه أنه يريد السفر بعيدًا؛ ليسيح في بلاد الله؛ عسىٰ الله أن يفرج عنه، لا يمانع ذريح، بل لا يهتم به، فيعد قيسٌ العدة، ويصطحب خادمًا يعد له زاده، وشرابه.

يرحل قيس إلىٰ مقر الخلافة، حيث مدينة دمشق التي ارتدت حُلَّة أنيقة مزخرفة، بعد أن نعمت بمقر الخلافة، وأصابها الخير العميم، في شتىٰ مناحي الحياة، ينبهر قيس مما يراه في دمشق من أشياء



لم يعتد على رؤيتها في البادية، وقد امتلأت دمشق بأحواض المياه، والنواعير والسّقّايات التي كانت منثورة على أطراف الشوارع، وعلى أبواب المباني العامّة، وفي الأسواق والسّاحات، وعند أبواب المدينة، ونتيجة لهذا الازدهار استقر على ضفاف نهر "بردى" عدد من القبائل، وشقّ نهر "يزيد" من نهر "بردى"؛ لتأمين الريّ لمساحة أكبر من الأراضي؛ كما اهتمّ الخليفة بالطرقات وربط المدن بعضها ببعض سيّما بين دمشق والبادية، حيث شُيدت القصور للتنزه وممارسة الرياضات المختلفة.

يرى قيسٌ كل ذلك، فيشعر أنه في مدينة من مدن الروم، فيزيده جمالها رهبة، وتراوده نفسه بالرجوع إلى باديته، حيث الهواء الطلق، والرمال الصفراء، ورغاء الإبل، وشجر الغضا، ونبات الخزامي، وفوق كل ذلك سيصبح قريب الدار من لُبْنى، يدفع تلك المراودة، وينزع من قلبه الرهبة، وييمم وجهه مباشرة نحو قصر يزيد، وهل قطع كل تلك المسافات إلا لأجل لُبْنى؟ يقترب قيس من قصر "الخضراء"، وهو القصر الذي يحكم منه الخليفة، وفيه سيقابل الأمير يزيد، فيرى قيس القصر تحفّ به حدائق غنَّاء، ويطل على سهل مخصب نضر، يمتد مد البصر، توقظ في نفسه تلك المناظر، وتستثيره فينشد شعرًا في لُبْنى، في عقر دار الخلافة، وكأنه يتحدى بأبياته الخليفة نفسه، وبمجرد أن خطرت لُبْنى على باله، يحنّ سريعًا إلى بادية لُبْنى التي هي أحب إليه من ألف قصر، كقصر الخضراء، وألف مدينة كدمشق، ويتمثل ببيت ميسون زوج الخليفة:



لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه   أحبُّ إليَّ مــن قصرٍ منيفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عــيني   أحب إليَّ من لبسِ الشّفوفِ

يصل إلىٰ أبواب القصر، يوقفه الحراس، ويتندرون من هيئته، وزيّه البدوي، ثم يسألونه نسبه وحاجته، فيخبرهم أنه قيس بن ذريح الكناني، وأنه أتىٰ من بادية الحجاز ليقابل الأمير يزيد، يهشّ له الحراس، ويعانقه أحدهم، ويسأله الآخرون:

- أأنت قيس بن ذريح؟

- أأنت صاحب لُبْنىٰ بنت الحباب؟

- أأنت الذىٰ تقول في لُبْنىٰ:...، وينشدونه من شعره أبياتًا، يطرب لها قيس، وكأنه يسمعها لأول مرة.

- وأيم الله إنك لأشعر أهل الحجاز، وأصدق من ابن أبي ربيعة، ذلك الشاعر العابث اللاهي، الذىٰ لا يكف عن ملاحقة النساء.

يشكرهم قيس، ويستفسر منهم إن كان بإمكانه مقابلة الأمير، فيجيبه أحدهم ضاحكًا هامسًا:

- بل لو شئت، لأتينا به إلىٰ عندك.

يبتسم له قيس فرحًا.

يرافقه اثنان منهم، ويدخِلونه قصر الخلافة، ويستأذنون له الحُجَّاب في مقابلة الأمير.

يسأله الحاجب:

- مَن أنت؟ ومن أي العرب تكون؟

- قيس بن ذريح.





- ويلك! أأنت قيس الذىٰ يتغنّىٰ الركبان بشعره في لُبْنىٰ؟ كيف حالك مع لُبْنىٰ يا فتىٰ، وقد صرت شاعر الحجاز العاشق؟
- هو ما أتىٰ بي إلىٰ باب الأمير.
- كيف؟
- قد أهدر والي الحجاز دمي، من أجل لُبْنىٰ.
- ولمه؟ أتتعرض لها؟ أم تذكرها بفحش في شعرك؟
- معاذ الله أن أفعل ذلك!!
- فلماذا إذن؟

يتبرم قيس، ويقول له:

- ناشدتك الله، أدخلني علىٰ الأمير، هل يمكن ذلك؟.
- الأمير لا يمانع من مقابلة أحد، فبابه مفتوح ليل نهار، يقضي حوائج الناس، ولكني ناصحك يا قيس، إن الأمير شاعر، ويحب الشعر، فقدم له مدائحك قبل طلبك.

يستأذن الحاجب لقيس بن ذريح في الدخول، فيدخل قيس علىٰ يزيد، وكلّه وجلٌ من أن يرده الأمير مكسور الخاطر، لكنه يجد الأمير متبسّط غير متعالٍ، ولا متكبر، بالرغم من التجهّم الذىٰ يظهر علىٰ وجهه، بيد أن قيسًا وجد بعض علامات الرضا والقبول علىٰ وجه يزيد، فاطمأن قلبه، يعرفه قيس بنسبه، وأنه من بني كنانة، ثم يمدحه قيس بأبيات قليلات، ولا يكثر حتىٰ لا يفطن الأمير أن قيسًا يقدم له رشوة بمديحه، فهو شاعر، ويدرك، فيعتدل يزيد في جلسته، وقد أطربته أبيات قيس، ثم ينظر إليه، ويقول له:



- أحسنت يا فتىٰ؟ لكنك لا تجيد المدح كما تجيد الغزل، ألا تسمعنا ما قلت في لُبْنىٰ؟

يذهل قيس من طلب الأمير، فيبادره:

- أو شعر قيس بن ذريح في لُبْنىٰ بنت الحباب ذُكِر في قصر مولاي الأمير؟!!!

يبتسم يزيد، ثم يقول له:

- إن شعرك يا كناني ينفذ إلىٰ القلوب فيعلق بها، فكيف لا ينفذ إلىٰ قصور الأمراء؟! يطرب قيس من سماعه هذا الثناء من الأمير، فينشده أرق أبياته في لُبْنىٰ، حتىٰ بدأت تتساقط دموعه، فيقول له الأمير:

- حسبك يا فتىٰ، حسبك، ثم يتغافل عنه مدة، ثم يسأله:

- لم طرقت أبوابنا؟

يشكو قيس حاله إلىٰ الأمير، شكاية نابعة من سويداء قلبه، شكاية حارة صادقة، من لوعة العشق، وفرقة المحب، وأن شعره الذىٰ ينفث فيه ما في صدره قد حُرِّم عليه، فيرق له يزيد، بالرغم من طبعه الجافي الغليظ، فيقول له:

- سل حاجتك يا فتىٰ، إن شئت أن أكتب إلىٰ زوجها؛ ليطلقها فتدخل بها، فعلت.

- لا أريد ذلك أيها الأمير.

- ماذا تريد إذن، قل ما شئت، فحاجتك مقضيَّة.





- أحب أن أقيم حيث تقيم من البلاد، أعرف أخبارها، وأتنسّم ريحها، وأنشد شعري فيها بغير تعدٍ، من غير أن يهدر دمي.

- لو سألت هذا من والي الحجاز، من غير أن ترحل إلينا فيه لأُعطيته يا قيس.

ثم يستأذن يزيد أباه الخليفة، ويكتب لقيس كتابًا في أن يقيم في أي البلاد شاء، ولا يعترض عليه أحد، وأزال ما في الكتاب الأول من أن يُهدر دمه، ثم أمر له بمال يعينه علىٰ سفره، فيأبىٰ قيس، ويخبر الأمير أن أباه من أكثر أهل الحجاز مالا، لكن الأمير ينظر إليه، ويقول له:

- مال الأمراءِ لا يرد.

- نعم، لا يرد يا مولاي، زادك الله بسطةً في كل شيء.

خرج قيس من عند الأمير وهو من أسعد الناس، فقد زالت عنه كل القيود، وصار حرًا يذهب أينما شاء، ويقول في لُبْنىٰ ما يشاء أن يقول، لا يمسك لسانه أحد، وعندما خرج أحصىٰ المال، فوجده خمسة آلاف درهم، فرّقها علىٰ حرس القصر كلها، ولم يبق منها شيئًا، ثم عاد قيس إلىٰ أبيه فرحًا مستبشرًا، وقد أخبره بما فعل، فيفرح ذريح بأن الأمير قد أزال الكتاب الذىٰ أهدر فيه دم قيس، لكن القلق يستبدّ به من جرَّاء ما قد يحدث، فقيس يتكبد كل ذلك الجهد، ويقطع كل تلك المسافات، ويتجشم كل تلك الصعاب لمقابلة الأمير يزيد، ولا شك أن كل ذلك لأمرٍ من المؤكد أنه لن يكون فيه خير له ولقومه.

صار قيس منذ اليوم حرا طليقا، ينطلق إلىٰ أي بلاد تسكنها لُبْنىٰ، وينشد من الشعر فيها ما يشاء، وهو الآن متلهف لرؤيتها، أو حتىٰ



يحـوم حـول مضـاربها، يتنسـم رائحتهـا الزكيـة، ثـم يسـتأذن أبـاه في أن يقضي حاجة له في المدينة المنورة، لكن ذريحا يـأبىٰ عليـه أن يـذهب، فهو يدرك أن قيسًا إنما أراد لُبْنىٰ، وسيجر عليه ذلـك عواقـب وخيمـة، فيمنعه من الذهاب إلىٰ هنـاك، ويـأبىٰ عليـه، وقـيس يلـح عليـه إلحاحًـا شديدًا، وذريح يأبىٰ، فيؤلـم ذلـك قيسـا جـدًا، ويعـز علـىٰ نفسـه أن أبـاه الذىٰ أجبره علىٰ طلاق لُبْنىٰ فأهلكه، يأبىٰ عليه اليوم رؤية لُبْنىٰ، فسيتم هلاكه.

ينطـوي قـيس علـىٰ نفسـه، ويصـاب بحالـة شـديدة مـن الاكتئـاب والضيق، ولا تطيب نفسه لشيء حتىٰ إلىٰ الأكـل، فـأقلق ذلـك رمسـة، حتـىٰ أتتـه مخدعـه، تطلـب منـه أن يخـرج، ويأكـل طعامـا تحملـه إليـه بنفسها، يضطر قيس إلـىٰ أن يأكـل لقيمـاتٍ قليلاتٍ بـأطراف أصـابعه، ويلح علىٰ أمه أن تدع أباه يتركه يرحل إلىٰ المدينة، فتتردد رمسة، لكن تحت وطأة إلحاح قيس تستجيب، فتكلم ذريحًا أن يدعه يـذهب، فقـد عفا عنه الخليفة، فيستدعيه ذريح إليه، ويقول له:

– كفاك يا قيس، أشقيتني، وأشقيت أمك، وحملت نفسـك مـا لا طاقة لك به، ماذا تريد من المدينة؟!

– أريد رؤية لُبْنىٰ، ولن أتعرض لها بشيء قد يسوء أحدا.

– ألا تدري أنها الآن زوجًـا لرجـل؟ مـاذا دهـاك؟ مـاذا تقـول عنّـا العرب؟ وما يفعل بـك زوجهـا إن رآك تحـوم حـول ديـارهم؟ أم تراه يرحب بك، ويشكرك؟!

– إنه لا يعرفني.





فيرد عليه ذريح بأسلوب ساخر:

- إن الحصىٰ في بلاد الحجاز يعرفك يا قيس، ألا تدري أنك صرت في شهرة الملوك والأمراء.

تتساقط دموع قيس، ولا يجد ما يقوله لأبيه، فينظر إليه ذريح في يأس، ويقول له:

- اذهب يا بُني أينما شئت، فإني أدرك أن شفاء نفسك في ذهابك إلىٰ المدينة، قرب بنت الحباب، اذهب وافعل ما تشاء، فقد والله نذرتك لله، وليقدر الله ما يشاء، فأنا من جنيت عليك من البداية.

ينطلق قيس إلىٰ المدينة، لا يلوي علىٰ شيء، ولا يعزم علىٰ أمر، فقط يريد الذهاب قرب أرض لُبْنىٰ، فيصل إلىٰ المدينة، ويجوب في شوارعها، يلتقيه الفتية العابثون فيسألونه عن وجهته، ويستنشدونه شعرًا، يسجل بعضهم قول قيس، ويقارنه البعض الآخر بشعر عمر بن أبي ربيعة، ويعرض أحدهم عليه ضيافته، وأحدهم يجعل عبدانه يحملون متاعه إلىٰ داره؛ ليجبره علىٰ ضيافته، لكن قيسًا يعتذر إليهم جميعًا، ويجوب في شوارع المدينة، علىٰ غير هدىٰ، حتىٰ يلتقىٰ بابن أبي عتيق، صديقه القديم، فيرحب به، ويستضيفه، لكن قيسا يأبىٰ، فيذكره بأمرٍ يخص لُبْنىٰ، فيجده قد لان وأفرخ روعه، وانساق معه، فيستضيفه ابن أبي عتيق، ويسأله:

- ألك حاجة في المدينة، فنقضيها لك؟

- لا شيء.





- إنك تريد أرضًا قريبة من لُبْنىٰ يا قيس، ولا أقرب لك من المدينة، أصحيح هذا؟ إن امرأً لا يعرف حاجة قيس بن ذريح في المدينة المنورة، هو امرؤ أحمق.

- فأعني إذن يا ابن أبي عتيق.

- انشدني ما استجد من شعرك يا قيس في لُبْنىٰ، وسأتدبر لك أمرك بما يسرك.

ينشده قيس، ويذكر لُبْنىٰ وشوقه إليها، وندمه علىٰ طلاقها في شعره دون خوف، ولا وجل، فيدرك ابن أبي عتيق أن أمرًا استجد في حياة قيس، فكيف له أن يشبب بلُبْنىٰ وهو مهدر الدم؟ فيسأله:

- ألا تخشىٰ يا قيس من ذكرك لُبْنىٰ، وذكر شوقك إليها؟

يقص له قيس خبره، فيزداد إعجاب ابن أبي عتيق به، ويشفق عليه في نفس الوقت، ويعزم في قرارة نفسه علىٰ أمرٍ، سيعمل جاهدًا علىٰ تحقيقه، ثم يواصل حديثه مع قيس:

- نعم، فأنت لعمري أرق الناس شعرًا، وأحسنهم رواية، وأصدقهم عاطفة، ومصيبتك في لُبْنىٰ لهي الخير كله للأدب، وهىٰ الخلود في الدنيا لقيس، فسيظل شعرك هذا يُقرأ لقرون بعد قرون، وتُروىٰ قصة عشقك أيضًا لأزمنةٍ طويلة، بل سيتخذها العشاق مثلا، وسيتخذونك إمامًا.

أتدرىٰ يا قيس أن كل مَن سيعينك في قربك من بنت الحباب، سيُؤرخ له؟ مثله مثلك، أنشدني من شعرك في لُبْنىٰ وزد، وسترىٰ مني





لاحقًا ما يثلج صدرك، وما يضطر به الرواة أن يذكروني معك، زدني يا قيس زدني يا فتىٰ...

ينشد قيس ما يشفي به غُلَّة نفسه أولا، ثم غُلَّة ابن أبي عتيق ثانيًا، وابن أبي عتيق يدوِّن في دفتر صغير ما يقول قيس...، وبعد أن يسمع منه، يقول له:

- اسمع يا قيس، عليك أن تذهب الآن إلىٰ دار ضيافة الفهر بن عامر، وهو شيخ من بني زهرة، فتقيم عنده ضيفًا، وتقابل بريكة زوجه، ثم تقص عليها خبرك، وأنت معروف في المدينة، بل في بلاد العرب كلها، وستدبر لك أمرك.

- ومَن بريكة هذه؟

- هي زوجة الفهر بن عامر الزهري، أظرف النساء وأكرمهن، وهي امرأة برزة – أي من اللواتي يبرزن للرجال، ويتحدثون معهم في عفة وأدب، ولم يكن ذلك عيبًا عند العرب- وتسعىٰ لقضاء حوائج الناس، ولا ترد أحدًا عن حاجة يطلبها.

ينطلق قيس إلىٰ دار ضيافة الفهر، حتىٰ إذا رآه الخدم وثبوا إلىٰ رحله، يريدون حمله، وإدخاله دار الضيافة، فمَن يجلب منهم ضيفًا إلىٰ دار الضيافة، يجد من سيده الفهر بن عامر الخير العميم، وإن أكثر العبد من جلب الضيفان فهو حر، يمتنع قيس عن النزول، ويرفق بالعبيد الذين يتنافسون علىٰ حمل رحله، ويقول لهم:

- لست بنازل حتىٰ ألق بريكة، فإن لي عندها حاجة، فإن قضتها فإني ضيفكم، وإلا رحلت.





يخبر العبيد بريكة بأمر هذا الضيف الذى يشترط، فتخرج إليه مسرعة، وهي لا تعرفه، فتناديه:

- تفضل يا أخا العرب، فقد نزلت سهلا، فدارنا دارك، وحاجتك مقضيَّة كائنة ما كانت.

- أنا قيس بن ذريح الكناني يا كريمة العرب، ولي عندك حاجة.

- قيس!!! صاحب لُبْنىٰ بنت الحباب.

- نعم، أنا قيس الذىٰ كان صاحبها.

- حياك الله يا قيس، إنَّ ذكرك لجديد عندنا كل يوم، بل كل ساعة، ومَن مِن أهل الحجاز لا يعرف قيس بن ذريح عاشق لُبْنىٰ بنت الحباب؟ بل مَن لا يعرفه من العرب قاطبة؟ عمرتْ بك الدار يا قيس، انزل وحاجتك مقضية كائنة ما كانت.

يتواثب العبدان علىٰ حاجة قيس، ويعدون له مكانًا في دار الضيافة، وتأبىٰ بريكة أن تسمع منه شيئًا، أو تقضي له حاجة حتىٰ تكرم وفادته، ويستريح من سفره.

يقبل قيس علىٰ بريكة متوسلا:

- أقاضية أنت حاجتي يا خالة؟

- قل يا قيس.

- لا أريد شيئًا سوىٰ أن أرىٰ لُبْنىٰ، وإني لا أريد أن أذهب قرب دارها؛ فيفتضح أمرها مع زوجها، وإني والله لا أخشي هلاكي، فهلاكي في سبيل رؤية لُبْنىٰ ليسير.

- إن هذا الأمر يحتاج إلىٰ حيلة يا قيس.





- احتالي لي يا خالة، فوالله لن تسدي لأحد معروفا مثل ما ستسديه إليّ، فقلبي يتحرق شوقًا إلىٰ لُبْنىٰ...

- لك هذا يا قيس، ولكن دعني أتدبر الأمر.

ثم شرع قيس في الإقامة في دار ضيافة الفهر بن عامر، وأخفت بريكة أمره عن الناس، وعن الأضياف الذين ينزلون دار الضيافة، وأمرت العبدان بإخفاء أمر قيس، الذىٰ أعد نفسه لإقامة طويلة المدىٰ عند بريكة، لن تنتهىٰ إلا برؤية لُبْنىٰ.

أعدت بريكة بعض الهدايا للُبْنىٰ ولزوجها، وعزمت علىٰ زيارتهم، وفي صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة لُبْنىٰ، وقدمت الهدايا لها ولزوجها، ولم تفعل أو تقل شيئًا، ثم كررت الزيارة أكثر من مرة، كل بضعة أيام تزورهم زورة، ولم يكن ذلك غريبًا عليها، فهي امرأة برزة، ومشهور عنها الظرف والكرم وقضاء الحوائج، حتىٰ كانت الزيارة الثالثة لهم، وفيها قابلت زوج لُبْنىٰ، فقالت له معاتبة إياه:

- أأنت خير من زوجي؟

- لا.

- ألُبْنىٰ خيرٌ مني؟

- لا.

- فما بالي أزورها ولا تزورني.

- ذلك إليها، لتفعل ما تشاء.

تنفرد بريكة بلُبْنىٰ ويتحدثان في شؤون الحياة، وفي عرض الحديث تسألها عن قيس، فتبهت لُبْنىٰ، وكأن سهمًا انغرس في كبدها،



فتفطن بريكة بحدس النساء أن لُبْنىٰ بها مثل ما بقيس من العشق والوله، فيسهل عليها ذلك الأمر، فلا زالت تلاطفها وتداعبها حتىٰ لانت لها لُبْنىٰ، وباحت لها أن قلبها يتفطر علىٰ قيس، وأنها لا زالت تعشقه، ولكن لا سبيل إليه، وهىٰ امرأة متزوجة، لا تريد أن تفضح نفسها، ولا زوجها، وتخبرها أنها تخشي علىٰ قيس من إهدار دمه، ولولا ذلك لوصلته.

تخبرها بريكة بأمر قيس كلّه، وأنه ذهب إلىٰ دمشق؛ ليقابل الأمير يزيد، والذىٰ كتب له كتابًا بأن يذهب إلىٰ أي بلاد الله شاء، ولا حرج عليه، ولا سبيل لأحد إلىٰ إهدار دمه، وتخبرها أن قيسًا تجشم الأهوال في سبيل ذلك، وأنه في المدينة منذ أيام، يتحرىٰ سبل الوصول إليك، وكان بمقدرته بعد أن عفا عنه الخليفة أن يأتيك دارك، لكنه خشي عليك، وخشي أن يؤذيك زوجك، وهو الآن في دار ضيافة الفهر بن عامر، ويتحرق شوقًا إلىٰ رؤيتك وإلىٰ الحديث معك، وما فعلت كل ذلك إلا لأجل أن أجمع بينكما عندي، دون أن يعلم أحد، فقد أخفيت أمره عن الناس، حتىٰ عن زوجي الفهر، ثم تسألها بلطف:

- ما رأيك يا لُبْنىٰ أن تزوريني في بيتي، وتلقي قيسًا؟ فيراك وترينه، ولا يشعر بكم أحد، وقد أذن لك زوجك بزيارتي.

تتردد لُبْنىٰ، وتخشىٰ الفضيحة إن رآها أحد، لكن بريكة تطمئنها، أن لا أحد يعلم شيئًا، فتقول لُبْنىٰ:

- والله إن قلبي يا خالة لأشد حرقة ولوعة من قلبه، فقد طال بنا العهد، وإن شئت يا خالة فالآن.





- فإنا علىٰ موعد إذن، وليكن ظهر غدٍ.

جاء ظهر الغد، وجاءتْ معه لُبْنىٰ، فالتقتْ بقيس بن ذريح، ولولا الحياء لضمّها إلىٰ صدره ضمّة يسترد فيها كل عذابات الأيام، ولأخذها بين ذراعيه، وذاق رضابها العذب، الذي هو أحلىٰ من الخمر المعتقة، وأرق من الماء الزلال، وَلَلَمس بيده شعرها الحريري، ووجهها المشرق، ولداعب بأطراف أنامله ثغرها الباسم، وخدها المتورّد، ولداعب كل شيء رقيق فيها، وليهلك بعدها، لا يهم، لكنه يلتقي بها، ولا يمس لها يدًا، إنما هو النظر والحديث فقط، ولا يمتد نظره إلا إلىٰ عيني لُبْنىٰ، بالرغم من شدة شوقه إلىٰ جسدها الغض الطري، ينظر قيس في عيني لُبْنىٰ نظرة أدرك أولها، ولم يدرك آخرها، نظرة عبرت عن كل مكنونات نفسه، فالحب عندما يسمو فوق الشهوة لا يضاهيه خلق، وعندما يقتصر علىٰ حب الذات بمعانيها التي جُبلت عليها لا تضاهيه لذة، فالحب أسمىٰ معنىٰ، وأرق لفظ في الحياة بأسرها، يعبر قيس عن مكنونات نفسه العاشقة الولهىٰ، التي بلغت أعلىٰ غاية من غايات الحب، والتي لا غاية بعدها، يهمس قيس:

- لم تركتني يا لُبْنىٰ؟ كيف هان عليك ذلك؟

- والله ما تركتك، أنت مَن فعل إرضاء لأبويه، وما تزوجت إلا بعد أن تزوجت أنت، وقد أشعرتني أنك غدرت بي، فشمت في الشامتون، وكنت قد تمنعت عن الزواج، عسىٰ الله أن يجمع بيني وبينك مرة أخرىٰ، ولكن لا حيلة لي أمام الحباب يا قيس...



- وأيم الله يا لُبْنىٰ ما كلمتها، ولا شعرت بها، ولا مددت لها يدًا، ولا كشفت لها ثوبًا، ووالله ما تزوجتها إلا لأنها قريبة الشبه منك، واسمها يشبه اسمك، وقد رحلتْ إلىٰ أخيها في بني فزارة، فلا أحد يملأ قلبي بعد لُبْنىٰ، ولا أحد يشغل فراغًا تركته لُبْنىٰ.

- وأيم الله أنا كذلك يا قيس، أحيا مع آل كثير بجسدي فقط، ولكن قلبي وروحي وتهيامي لم يبرحوا مكانهم الأول، ولولا قول العرب، لتركته ولرحلت الآن معك إلىٰ أي بلاد الله شئت.

- سيجمع الله بين الشتيتين يا لُبْنىٰ، وستعود الأيام الخوالي.

- ما ذلك علىٰ الله ببعيد يا قيس.

ينتابهما صمتٌ، يتأمل كلٌ في صاحبه، ثم تنتبه لُبْنىٰ، وتقول:

- حدثني عن حالك يا قيس.

- أحبك يا لُبْنىٰ حبًا لو وزعوه علىٰ عشاق الأرض لوسعهم، إني أموت كل يوم يمر عليّ لا أراك فيه، رحلت عني يا لُبْنىٰ، وخلّفت لي الهمَّ والغمَّ والعذاب...يظل قيس يشكو للُبْنىٰ، ويشكو، حتىٰ ينتحبان، ويذرفان دمعًا أحر من الجمر.

يمر الوقت سريعًا علىٰ العاشقيْن، فتنبههما بريكة لذلك، وتطلب من لُبْنىٰ أن تعجل في الرحيل، حتىٰ لا يفتضح أمرهما، فتطلب لُبْنىٰ من قيس أن ينشد ما قال فيها من شعر، فيقول قيس:

أَلا لَيتَ أَيّامَ مَضَينَ تَعودُ فَإِن عُدنَ يَومـًا إِنَّني لَسَعيدُ

ثم يفترقا، وقد ذاب كل منهما عشقًا، وتواعدا بعد أيام، ثم تذهب لُبْنىٰ إلىٰ دار زوجها، ويظل قيس في دار الضيافة علىٰ موعده،





وقد شكر بريكة علىٰ جزيل عطائها، لكن بريكة تطلب من قيس أن يرحل؛ حتىٰ لا يفتضح أمره، حتىٰ إذا مرت أيامٌ كُثُرٌ يأتي ليلا، ويرسل جارية إلىٰ لُبْنىٰ فتأتيه، يطيع قيسٌ، ويكرُّ راجعًا إلىٰ داره.

❋❋❋❋



(١١)

تجدُّدُ الأمل

يعود قيسٌ أدراجه، فيصل إلىٰ بادية الحجاز، وقد أقبل الليلُ، وقومه يتسامرون في أنديتهم، ويتبادلون الأشعار والطرائف، فيعرِّج عليهم، ويلمحونه قادمًا، فيتواثبون عليه، ويدعونه ليشاركهم سمرهم، ويسمعون منه آخر ما نظم من شعر، وقد أحاطوا به كالإسورة حول المعصم، فرحين بما سينشدهم، فيبدأ أول ما يبدأ بالحديث عن لُبْنىٰ، والشوق إليها:

أُحِبُّ مِنَ الأَسْمَاءِ ما وَافَقَ اسْمَهَا ... وأشبَهه أو كــان مِنهُ مُدانِيـا
وقَدْ يَجمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعدَمــا ... يَظُنَّان كُلَّ الظَّنِّ أنْ لا تلاقيا
وإني لاستغشىٰ ومــا بين نعسةٌ ... لعلّ خيالاً منكِ يلقىٰ خيـاليا

فيبهت الجميع عند سماع تلك الأبيات الجديدة، وما كان ظنّهم إلا أن ينشدهم قيس مما قال سلفًا، أي قبل أن يهدر الوالي دمه، فكيف لقيس المهدر دمه أن يتحدث عن لُبْنىٰ هكذا؟ فيستوقفه بعضهم؛ خوفًا عليه، وقيس يأبىٰ إلا أن يتم شعره، وينشدهم بثقةٍ؛ وهو لا يقصد إلا أن تطير الأبياتُ إلىٰ لُبْنىٰ، ثم يخبرهم بعفو الوالي عنه، وأنه سمح له أن يقيم في أي أرض الله شاء، ثم ينهي الفتية سمرهم، ويعود قيس إلىٰ داره، وقد انتعش حاله بمقابلة لُبْنىٰ، وإنشاد أشعاره فيها علىٰ الملأ، فلم يعد بعد اليوم مكبل الرجل أو اللسان، كما كان سلفًا، أما أبياته في لُبْنىٰ فتطير علىٰ أسرع جناح، حتىٰ تصل إلىٰ زوج لُبْنىٰ، الذىٰ يتجاهل

الأمر، وفي ظنه أنها أبيات قديمة من شعر قيس، يتناقلها الركبان، فقيس لا يجرؤ أن يخالف رأي الوالي الذىٰ أهدر دمه إن فعل ذلك، ولم يكن يعلم بعفو الوالي عنه، أما قيس فقد مرَّتْ مدةٌ علىٰ لقائه بلُبْنىٰ، وبدأ شوقه يزيد، فيعزم علىٰ الذهاب إلىٰ المدينة المنورة، حيث ابن أبي عتيق، وبريكة، وهما طريقاه إلىٰ لُبْنىٰ، فيصل في الظهيرة إلىٰ ابن أبي عتيق مباشرة، وقد جاءه هذه المرة محملا بالهدايا، له ولبريكة، التي ستحمل بعضها إلىٰ لُبْنىٰ، فيرحب به صديقه:

- مرحبًا بفتىٰ الحجاز، مرحبًا بقيس.
- استبدّ بي الشوق للُبْنىٰ، وأريد رؤيتها.
- وإلىٰ متىٰ يا قيس سيظل الأمر هكذا؟ فقد يصل الخبر إلىٰ زوج لُبْنىٰ فيحدث من الأمر مالا يحمد عقباه، اذهب قيس إلىٰ بريكة، ودعني أتدبر الأمر، فإني مُرْضِيك.

يذهب قيس إلىٰ بريكة، فتكرم وفادته، وترسل إلىٰ لُبْنىٰ جارية من الجواري، تعلمها بمجيء قيس، فتضرب لهم لُبْنىٰ موعدًا، ستحضر فيه عند بريكة، ثم يلتقيان، ويحدث كما حدث في المرة السابقة، في أن يبث كلٌ لواعجه للآخر، ثم يتناجيان، ثم يفترقان، لكن بريكة تخبر قيسًا أن الأمر يجب أن يُحسم، وأنه إن زاد علىٰ حده، فستكون عواقبه وخيمة، وأنها ترحب به ضيفًا متىٰ نزل المدينة، لكنها تنصحه بألا يرسل إلىٰ لُبْنىٰ مرة ثانية؛ حفاظًا عليها من الفضيحة، وعلىٰ نفسه أيضًا من العواقب، تلمّح بريكة إلىٰ قيس، أن عليك يا ابن أبي عتيق وسيجد لك حلا، قد يصل إلىٰ طلاق لُبْنىٰ من زوجها،



ورجوعها إليك، تختمر الفكرة في رأس قيس، فيخرج من عند بريكة، ويعرِّج علىٰ ابن أبي عتيق.

وكان ما استجد من شعر قيس قد ملأ الأرجاء كلها، فلم يبق محب للشعر إلا وتغنىٰ به، وانشرتْ قصة العفو عنه في كل الأرجاء، فلم يبق عاشق إلا واتخذه إمامًا، وتتبع أخباره الكُتَّاب والمؤرخون؛ ليسطّروا صفحة جديدة من قصة العشق هذه، لكن الأهم من كل هذا أن شعره وصل إلىٰ أشهر رجلين اشتهرا بالغناء في مكة والمدينة، بل وفي بلاد الحجاز كلها، وهما: غريض ومعبد، وكان ذلك بمثابة القشَّة التي قصمت ظهر البعير، أما غريض المغنّي فقد كان أحذق أهل زمانه في الغناء، وقد ملأ الأرجاء بغنائه، الذىٰ وصل إلىٰ الحكام والأمراء، فقد كان غريض وأصحابه يضربون بالعود والدف، ويغنون قصائد قيس برقتها وعذوبتها، وما تحمله من حديث عن لُبْنىٰ، وعشقها والشوق إليها، وعدم نسيانها، والندم علىٰ فرقتها، ويجتمع حوله الفتية اللاهون والعابثون، كأنهم سكارىٰ بغير خمرٍ، وبعد انتهاء مجلسهم، يظل يتردد غناؤه في كل مكان، حتىٰ لم يبق شريفٌ ولا وضيع سمع بذلك إلا ورقَّ لقيس، وتمنىٰ في نفسه أن تُطلَّق لُبْنىٰ من زوجها، وترجع إلىٰ قيس الجريح، حتىٰ ذريح نفسه، كان إذا أسمعوه غناء الغريض، يشعر بالندم علىٰ ما فرَّط في لُبْنىٰ، بل إن البعض كان يلوم زوج لُبْنىٰ علىٰ إمساكه إياها، وحرمان قيس منها، وكان غريض لا يتخير من شعر قيس إلا أرقّه وأعذبه وأفتنه، حتىٰ يصلح للغناء،



وضرب العود، وحتىٰ يسهل علىٰ الناس ترديده، وكان مما غنَّىٰ مطلع قصيدة قيس في لُبْنىٰ:

إِنّي لَأَهوىٰ النَومَ في غَيرِ حينِهِ   لَعَلَّ لِقاءً في المَنامِ يَكونُ
تُحَدِّثُني الأَحلامُ إِنّي أَراكُمُ   فَيا لَيتَ أَحلامَ المَنامِ يَقينُ

وقد انتشرت هذه القصيدة بين الناس كالنار في الهشيم، حتىٰ وصلت ديار آل كثير بن الصلت، وطرقت أول ما طرقت آذان لُبْنىٰ، التي كانت تبكي بكاء حارقًا، كلما نُقل إليها غناء الغريض من شعر قيس، وتظل تتأوه مدة، وتخفي ذلك عن زوجها، بل كانت ترسل الخدم إلىٰ مجلس الغريض؛ لينقلوا إليها ما غنَّىٰ، ثم كان لابد – بعد ذلك– أن يطرق غناء الغريض مسامع زوج لُبْنىٰ، الذىٰ علم بخبر قيس عن آخره، فتألم كثيرًا، وعتب علىٰ لُبْنىٰ عتابًا شديدًا، فقد جاءها ذات يوم غاضبًا، وقد نقل إليه بعض قومه خبر قيس، وغناء الغريض بشعره، فقال لها:

– قد فُضحت بذكرك في أشعار هذا الفتىٰ الضائع، ماذا سيقول عني القوم؟ وقد تغنىٰ بذكرك كل اللاهون والعابثون، وصرت فاكهة كل مجلس، ولم يبق شريف ولا وضيع إلا وتحدث عنك.

– وإن كان حدث كل ذلك، فما ذنبي؟

– أنتِ مُلهِمته.

– وما ذنبي أيضًا؟ أتراني أبادله نفس الأشعار؟ أم تراني أطلب من الغريض ومعبد أن يغنيا أشعاره في مجالس القوم ونواديهم؟



- أنتِ سبب كل ما يحدث، أترضين لزوجك أن يلومه قومه، أوترضين لنفسك أن يذكرك الناس في غنائهم؟

- وما عليّ أن أفعل؟ قل لي.

- ما كان لي أن أتزوجك، وهذا الفتىٰ يشبب بك.

وإذا لُبْنىٰ تستشيط غضبًا، وترد عليه ردًا عنيفًا، فهو يطالبها بما لا تملك له يدًا، وإن كان ذلك في ظاهر الأمر:

- يا هذا، إني والله ما تزوجتك رغبةً فيك، ولا فيما عندك، ولا دُلّس أمري عليك، ولقد علمت أني كنت زوجته قبلك، وأنه أُكره علىٰ طلاقي، ووالله ما قبلت الزواج حتىٰ أُهدر دمه إن ألَمَّ بحيينا، فخشيت أن يحمله ما يجد علىٰ المخاطرة فيُقتل، فتزوجتك...

يُصدم زوجها بردها العنيف، الذي يستشيط له غيظًا أحلمُ الناس، ولا يجد ما يقوله، فيلملمُ أشتاته ويخرج مغضبًا، ويضمر في نفسه أمرًا، لكن ليس أوانه الآن.

أما قيس فيلتقي بابن أبي عتيق، وكان علىٰ زهده وورعه يحب الخلاعة والمجون -كما ذكر المؤرخون- وعلىٰ ما فيه من نُسُكٍ أيضًا، فيشتكي إليه قيس ما به من شوقٍ إلىٰ لُبْنىٰ، ويلمّح له تلميحًا دون أن يصرِّح، بأن يلتقي بزوج لُبْنىٰ ويطلقها منه؛ ليتزوجها هو، ويرجع إلىٰ ما عُهد عنه من إنعامه بحب لُبْنىٰ.

وكان هذا ما يعزم عليه ابن أبي عتيق من غير أن يلمّح له قيس، فبعد أن انتشرت أخبار قيس ولُبْنىٰ، وغنّىٰ الغريض بشعر قيس، وردده





كل شريف ووضيع، استقر في نفس ابن أبي عتيق وغيره من اللاهين والعابثين والمجَّان أن يسعوا في طلاق لُبْنىٰ من أجل قيس، الذىٰ رقّ له معظم الناس، فيحتال ابن أبي عتيق حتىٰ يلتقىٰ بزوج لُبْنىٰ في نحوٍ من أنْحاء المدينة المنورة، ويسأله عن حاله، وعن أمور الحياة، حتىٰ يجرجره إلىٰ الحديث عن قيس بن ذريح، ويحاول أن يستفزّه، ويثير غضبه علىٰ لُبْنىٰ، فيقول له:

- أتعلم يا ابن أبي الصلت أن قيس بن ذريح قد عفا عنه الوالي، بعد أن أهدر دمه، إن ألَمَّ بحيٍّ تقطن فيه زوجك لُبْنىٰ، أو ذكرها في شعرٍ له؟

- نعم أعلم.

- أتدري أن المشكلة ليست في شعر قيس، ولكن في غناء الغريض ومعبد بشعره، فهذا يشيعه بين الشريف والوضيع.

يمتعض زوج لُبْنىٰ من حديث ابن أبي عتيق، وتنتفخ أوداجه، لكنه لا يظهر ذلك، ويكتم في نفسه، ويسمع من ابن أبي عتيق؛ حتىٰ يلم بما يقوله الناس عن ذكر قيس للُبْنىٰ، وغناء غريض بذلك، فهو يعلم أن ابن أبي عتيق علىٰ نسكه وزهده، يميل إلىٰ الخلاعة والمجون، ويلم بمجالس الخلعاء، وأخبارهم.

- قد علمت.

- ألا يعرضك هذا للقيل والقال، وقد ذكر قيس لُبْنىٰ في شعره، وغنّىٰ غريض بذلك، ولا يخشىٰ أي منهما سطوة أحد، بعد أن عفا الوالي عن قيس بن ذريح.



- إن هذا ما يؤرقني يا ابن أبي عتيق، فقد علمت ذلك بالأمس، وإنّ لي لشأن مع قيس هذا، وغريض المغنّي، فقد فضحاني في قومي، بل وفي الناس جميعًا.

- أتراك يا أَخي إن فعلت ما تبترد به نفسك، أتاركوك قومهم؟

- فهو القتال والثأر إذن.

- وما يحملك علىٰ هذا؟

- الشرف والعرض، أويخفي عليك؟

- أوخير من ذلك؟

- ما هو؟

- إنك تعلم يا أُخيّ أن السهم قد خرج من كنانته وأُطلق، ولا رجعة له إليها، فقد قال قيس الشعر، وغنّىٰ غريض به، وتناقله الركبان، وعلم كل العرب بقصة قيس، وستسمع كل ذلك في كل مجلس، في غدوك ورواحك، ولن تقوىٰ نفسك علىٰ التحمّل، وليس بعيدًا أن تصبح مرمىً للسخرية والتندر، ثم فوق كل ذلك، لا طاقة لك بمعاداة كل الناس، أليس كل ذلك قد صار حقيقة لا تخفىٰ علىٰ أحد؟.

لا يجد ما يقوله زوج لُبْنىٰ، فاستنصح ابن أبي عتيق، وقد شعر أنه يرشده إلىٰ الحل، فيسأله:

- وما ترىٰ يا ابن أبي عتيق؟

- أن تطلق لُبْنىٰ، وتخلص من كل ذلك، ولُبْنىٰ لا ولد لها، وأنت بحاجة إلىٰ امرأة ولود.





- وماذا يقول عني القوم، قد طلقتها لأني لا أستطيع حمايتها؟

- بل سيقولون: إنك طلقتها كرمًا وجودًا منك، ألم يعرض رجال الأنصار وشرفاؤهم علىٰ رجال المهاجرين، أن يتنازلوا لهم عن بعض أزواجهم، تكرما؟

- دعني أصارحك يا ابن أبي عتيق، إني تيقنت أن جسد لُبْنىٰ معي، وقلبها مع قيس، وقد حدث بالأمس القريب منها حدثٌ جعلني أُضمر في نفسي ما أنت تراه اليوم.

- وماذا حدث؟

يسأله ابن أبي عتيق بخبث، فيخبره زوج لُبْنىٰ بما حدث، فيلتقط ابن أبي عتيق الخيط، ويقول:

- والله، إن لم تفارقها، لتسمعن منها أكثر من ذلك، منها ومن قيس ومن غريض، ومن معبد.

- هي الفرقة إذن.

- ولا أرىٰ لك غيرها.

أفلح ابن أبي عتيق في أن يوغر صدر زوج لُبْنىٰ عليها، ويوسع الفجوة بينها وبين وزوجها، حتىٰ لم يطق زوجها أن يسمع من أحد شيئًا يتعلق بشأن قيس، واختلطتْ كل الهواجس في ذهنه، واحمرَّت حدقتا عينه من السهر والفكر، وصارتْ بينه وبين لُبْنىٰ فجوة واضحة، فكفّا عن الحديث مع بعضهما البعض، ولم يعد يقبل عليها أو يهش لها كعادته، وزاد الأمر حتىٰ وصل إلىٰ أن افترقا في المضاجع...



كرَّت الأيام والفجوة تتسع بينهما، حتىٰ سمع ذات يوم جارية لِلُبْنىٰ تغني شعر قيس بصوت غريض:

إِذا ذُكِرَتْ لُبْنىٰ تَأَوَّهَ وَاِشتكىٰ تَأَوُّهَ مَحموم عَلَيهِ البَلابِلُ
قَتيلٌ لِلُبْنىٰ صَدَّعَ الحُبُّ قَلبَهُ وَفي الحُبِّ شَغلٌ لِلمُحِبّينَ شَاغِلُ

وأول ما رأته الجارية ارتاعتْ وهربتْ، فيستشيط غضبًا، وينادي عليها، ويسألها عن ذلك، فتخبره أنها سمعته من سيدتها لُبْنىٰ، ينادي علىٰ لُبْنىٰ مقهورًا، ويسألها عن ذلك:

- ما الذي أسمع في داري؟

- وما سمعت؟

- غناء الجارية التي تردد ما سمعته منك، أحقًا هذا؟

- نعم.

- واعِرْضاه، وأيم الله لأهدرن دمكم جميعًا.

ترد عليه لُبْنىٰ في حزم وغلظة، وقد أدركت أن الحياة قد استحالت بينهما:

- أوخير من هذا؟

- وأي خير بعد هذا؟

- فارقني فلا حاجة بي إليك، فتريحني وتريح نفسك.

- وأنا وأيم الله لا حاجة لي بك، الحقي بأهلك، فقد انتهىٰ أمرك، وليرزقني الله بخير منك.

❊❊❊❊





(١٢)

قد يجمعُ اللّه الشتيتين

تنطوي بذلك صفحةٌ من حياة لُبْنىٰ، لتبدأ صفحة جديدة، فترسل إلىٰ أبيها الحباب، ليرسل إليها مَن يأخذها من ديار آل كثير بن الصلت، وأخبرته الخبر، وأنها الآن طالق من زوجها، فيرسل إليها الحباب مَن يأتي بها وبأثاثها وبصداقها إلىٰ داره، وتراوده شكوك كثيرة في نفسه أن سبب الطلاق ربما مرجعه قيس، فما من ذلك شك، فيستقدم لُبْنىٰ إليه، ويسألها عن السبب:

- أي بُنيتي، ألم يكن بينكما مودة ووئام؟ فما عهدنا علىٰ زوجك، ولا علىٰ قومه سوءًا.

- نعم يا أبت كان كذلك، ثم صار غيورًا لا يطاق.

يتيقن الحباب من ظنّه، فبعد غناء غريض ومعبد بشعر قيس، كان لابد أن حدثًا سيحدث، لكنه يواصل الحديث مع لُبْنىٰ:

- وكيف ذلك؟ وغيورًا عليك ممن؟

- من قيس بن ذريح.

- مِن قيس؟!! باستنكار، وهو يدرك.

- قُصِّي علىٰ بُنيتي ماذا حدث؟

- منذ أن عفا الوالي عن قيس، وهو يذكرني في شعره بلا خوف ولا وجل من إراقة دمه، وقد غنَّىٰ الغريض بشعره في مجالس





غنائه، فلم يبق شريفٌ ولا وضيع إلا وتغنّىٰ بشعره، وذكرني فيه، فجاء يلومني علىٰ ذلك، وأنا لا ذنب لي.

- فلم يا بُنيتي لم ترفقي به، فلم نعهد منه إلا خيرا؟ والرجل غيور، والغيرة من شيم الرجال، أذكرت له قيسًا؟

- نعم، فهو زوجي الأول وقد طلقني مُكرها، وأنت تعلم أن ما يفعله إنّما هو ندمٌ، واستعطاف.

- أترغبين في قيس؟

لا تجيب لُبْنىٰ، وتنسكب من عينيها دموعٌ غزار، فيصد عنها أبوها الحباب، وقد تحير في أمره، وأمرها، وأمر قيس.

يصل خبر طلاق لُبْنىٰ إلىٰ قيس كأسرع من الريح الهوجاء، وينتشر في بلاد الحجاز قاطبة، وكأنّ الريح حملته إلىٰ كل شخص علىٰ حده، فتشرأب عنق الفتية اللاهون العابثون، الذين يتندَّرون بقصة قيس ولُبْنىٰ، ويتابعون أحداثها، ويرددون أشعاره فيها، في أنديتهم وأسمارهم، من باب التسلية، وإزجاء وقت الفراغ.

أيضًا المغنون كغريض وصحبه، الذين ينتظرون من قيس أرق شعر وأعذبه، من الممكن أن ينظمه بعد تلك الحادثة، التي حدثت في حياته هو ولُبْنىٰ، فيلحّنونه ويذيعونه في الناس، بل في بلاد العرب كلها، كذلك العشاق الوالهون الذين يتخذون من قيس إمامًا لهم، وكيف ضحّىٰ في سبيل لُبْنىٰ بكل غالٍ ونفيس، حتىٰ صار الآن بمقدوره أن يردها إليه، ويجتمع شملهم بعد فُرقةٍ طويلة، والمؤرخون من الرواة



والكُتَّاب، الذين يسجلون بأقلامهم كل حدث عن قيس ولُبْنىٰ، وهم أهم فئة في هؤلاء جميعًا.

استبشر قيس بطلاق لُبْنىٰ، وعادت له صحته وعافيته، التي دائمًا ما كانت تفارقه، وصار يحدّث الناس ويحدثونه، وينشدهم شعره، ويحنو علىٰ رمسة وذريح، ويبرهما كسابق عهده بهما، فلم يبق سوىٰ أن تتم لُبْنىٰ عدتها، لتعود إليه، وينعم بحبها، ولذيذ العيش معها، واستبشرتْ رمسة بذلك، فقد عاد إليها قيس أو عاد إليه عقله، ولم يعد هزيلا ضعيفًا شارد اللب كما كان سلفًا، لكنه كان يخشىٰ أن يزوج الحبابُ لُبْنىٰ ابنته من آخر غيره؛ لذا كان لابد أن يضمن عودتها إليه بعد انتهاء عدتها، وأن يأخذ العهود والمواثيق من أبويه، ومن أبيها الحباب، فلم يجد بدًا من أن يفاتح والده بذلك، الذىٰ شعر أنه فقد ابنه، وأنه عرَّضه للهلاك والعذاب، وأنه مَن جنىٰ عليه قبل ذلك، وأيقن أن قيسا لا علاج له سوىٰ القرب من بنت الحباب، فقد فشلت كل رؤاه وأحلامه في أن يتزوج قيس بأخرىٰ، وأن ينجب له حفيدًا، يلاعبه ويلاطفه، واكتفىٰ بأن قيسًا عاد إليه عقله ورشده، وصار يعي القول والفعل، بل قيس الآن صار شاعرًا ينشد شعره الركبان، ويسجله الكُتَّاب والمؤرخون في دفاترهم.

أضف إلىٰ ذلك أن الشيخ قد كبر سنه، واعتلّت صحته، وعافت نفسه الدنيا، التي لن تمهل في عمره كثيرًا، فهو في حاجة إلىٰ الراحة، لذلك اضمر في نفسه، إن فاتحه قيس في أن يرد إليه لُبْنىٰ سيجده هينًا لينا، لا يمانع شيئًا رضيه قيس، الذىٰ عزم أن يطلب من أبيه أن يخطب



له لُبْنىٰ من أبيها؛ خشية أن يسبقه إليها أحد من الخُطَّاب، وإن كان هذا أمر مستبعد، فقد علم الجميع ما بين قيس ولُبْنىٰ من عشق مُمِيت، إلا أن يكون عابثًا أو ماجنًا مَن يفعل ذلك.

أما الحباب فهو الآن أكثر الناس قلقًا، وأشدهم خشية، وقد حل محل زوج لُبْنىٰ، في ضرورة الدفاع عنها، دفاعًا لا يشفي النفس إلا بالقتل والثأر، لكن زوج لُبْنىٰ أراح نفسه بطلاقها، وكف عنه ألسنة الناس، ولوم قومه له، أما هو فكيف سيتخلّص الآن من قول الناس؟ ومن ذكر قيس للُبْنىٰ، ومن غناء غريض، ومن أشياء كثيرة تعد سبّة في عرف العرب، وقد عفا عنه الوالي، وأذن له في قول ما يريد، وفي التنقل كيفما شاء، فمن المؤكد أن قيسًا لن يكف عن ذكر لُبْنىٰ، وغريض لن يكف عن الغناء بشعر قيس، وقومه لن يكفوا عن ملامته، أو يقتل قيسًا.

كل ذلك كان يدور في خلد الحباب، حتىٰ أوشك أن يفقد عقله؛ لذا اضمر في نفسه أمرًا أن يرسل خفية إلىٰ قيس مَن يشجعه علىٰ الذهاب إلىٰ خطبة لُبْنىٰ من أبيها، وليكن الزواج بعد انقضاء عدتها مباشرة، ولن يجد في ذلك مشقة، فقيسٌ لا يحتاج إلىٰ ذلك، فهو يذوب في عشق لُبْنىٰ، وقد خاض المنايا في سبيل ذلك، لكن الحباب يريد أن يخفف من وطأة الأحداث، وأن يجعلها مخطوبة لقيس، حتىٰ اكتمال العدة.

ثم ما لمحه من حبٍ دفين في قلب لُبْنىٰ، طُلّقت بسببه، ويوشك أن يفتك بها، أضف إلىٰ ذلك أن الشيخ قد كبر سنَّه أيضا، واعتلّت



صحته كذريح، ولا يقوىٰ الآن علىٰ ما كان يقوىٰ عليه قديمًا، ثم إن بعض الساعين سعىٰ إليه بقول قيس:

تُبَاكِرُ أمْ تَرُوحُ غدًا رَوَاحًا وَلَنْ يَسْتطِيعَ مُرْتَهَنٌ بَرَاحَا
سقيمٌ لا يُصَابُ لـه دواءٌ أصَابَ الْحبُّ مُقْتلَهُ فَنَاحَا

فأغضبه قول قيس: "تُبَاكِرُ أمْ تَرُوحُ غدًا رَوَاحا"، فهو دليل علىٰ أن قيسًا لن يكف عن فعل أي شيء في سبيل رؤية لُبْنىٰ، ولو عرضه هذا للمهالك، صارتْ الآن كل السبل ميسرة أمام قيس، وكل الآباء يودون لو أن قيسًا يخطب لُبْنىٰ الآن قبل الغد، فما عليه إلا أن يبدأ، ويفاتح ذريحا ورمسة في خطبة لُبْنىٰ، وهذا ما فعله قيس، فقد خلا ذات مساءٍ بأبيه وأمه، وقال لهما في رفقٍ ولينٍ:

- لي عندكما حاجة، فهل هي مقضية لقيس في يسر، أم أن العسر سيلحق بركابنا؟

- قل يا بُني، فليكن اليسر حليفك.

- أود مراجعة لُبْنىٰ بنت الحباب إلىٰ داري، فأنتما تعلمان أن لا طاقة لي علىٰ فرقتها.

- لكن عدتها لم تنته بعد بُني.

- أخشىٰ أن يسبقني إليها السابقون.

- وماذا عساني أن أقول لأبيها إن أرجأني حتىٰ تنهي ابنته عدتها، وهي لم يمر منها كثير؟ وهو محق، فقد تقول العرب: إن أباها طلقها من زوجها؛ ليردها إلىٰ قيس.

فيرد قيس في انفعال وغضب:



- لن يقول أحدٌ ذلك يا أبت، أرجو ألا تزيد همّي همًا، ولا تكلفني الذهاب إلىٰ أحد من علية القوم؛ ليفعل ما أتمنىٰ أن تفعله أنت، إن أبيت فسأذهب إلىٰ ابن أبي عتيق أقيم عنده، وأرسل إلىٰ الحباب أحدًا من كبار قريش، يكلم الحباب فيها.

- ابن أبي عتيق؟! يقفز في ذهن ذريح أمر ما شك فيه.

- نعم.

- أوكان لابن أبي عتيق يد في طلاق لُبْنىٰ من زوجها؟ أو فعل ذلك إرضاء لك يا قيس؟.

- نعم.

- فوالله لا يفعل ذلك إلا هو، وما فعل ذلك إرضاء لك، لكن إرضاء للتسلية وإزجاء وقت الفراغ، ثم ينفعل ذريح، وتبدو عليه سيما الغضب، لكنه يكظم غيظه ما استطاع، وتشير إليه رمسة أن يهدأ، ويدرك هو أن لا حل سوي أن يرضىٰ، فيهدأ، ويقول لقيس:

- اليوم أو غد، أنا ذاهب إلىٰ الحباب الكعبي، ولن أعود من عنده إلا بما يرضيك.

يأتي غدٌ فيذهب ذريح إلىٰ الحباب، الذىٰ كان جالسًا أمام داره، فلما لمح ذريحًا أوشك أن يفقد صوابه، فقد أزاح عنه كل ما كان يشغله، يرحب به ترحيبًا شديدًا، وكلاهما حريص علىٰ إرضاء صاحبه، وكلاهما يضمر في نفسه أن يقضي حاجة صاحبه مهما كانت، فذريح سيقبل بكل شروط الحباب، والحباب لن يدع ذريحًا يخرج



من داره، إلا وقد أرضىٰ نفسه منه أولا، ثم يرضيه هو ثانيًا، يدخل ذريح، وبعد أن يكرم الحباب وفادته، يقول بكل لين:

- أنا لن أطيل عليك يا حباب في الحديث، وسأتخطىٰ كل المسافات التي بيننا، فإنك تعلم ما بين قيس وابنتك من ود وعهد قديم، وتعلم أن ابني تزوج بأخرىٰ، وأنا مَن أكرهته علىٰ ذلك، ووالله ما هذا لأني كرهت لُبْنىٰ، لكن لسبب أنت تعلمه، وما أكرهته علىٰ طلاقها أبدًا، إلا بعد أن ارتأىٰ لي أنه لن يفعل ما آمره إلا أن يسلو لُبْنىٰ، لكن الذىٰ لا تعلمه أن قيسًا لم يمد إلىٰ زوجه الثانية يدًا، ولم يكشف لها ثوبًا، أسفًا علىٰ لُبْنىٰ، فقد عافتْ نفسه كل نساء الدنيا سواها، وقد طلق زوجه، أو قل طُلِقت هي، فما جئتك إلا لنجمع بين الشتيتين، فنرح أنفسنا، ونريحهما، ونرفع عنا اللوم، فقد صار الحجاز كله مشفقًا عليهما، فما رأيك؟

- إني أصدقك في كل ما تقول يا ذريح، لكن أنت وقيس قد جرحتما نفسي، ومن قبل قد آذيتما لُبْنىٰ بطلاقها، وكان علىٰ قيس أن يبقي عليها، ويتزوج ما قسم الله له.

- القول ما قلت، وقد أسلفت لك في الحديث يا حباب، وأخبرتك أنّ أنا مَن فعل ذلك، ومَن أجبر قيسًا علىٰ الطلاق، حتىٰ لا ينشغل بغيرها، فينجب لنا طفلا، فأنت تعرف أني رجل موسر، وما كان أحب إلي من حفيد ألاطفه، ويبقىٰ به نسلي.



- لقد ظلمت قيسًا ولُبْنىٰ يا ذريح، لقد ظلمتهما، وإن حاولت أن تجد لذلك مبررًا، فكان من نتيجة ذلك ما أنت به أدرىٰ.

- أما هذا فنعم، فلامجال للمكابرة، فقد صدقت يا حباب، وما أعانني علىٰ ذلك إلا الشيطان، ورمسة زوجي، وكان عاقبة ذلك ضياع قيس مني لسنوات عديدات، فلعلي بمجيئ هذا إليك، أكون قد كفَّرت عن جناية في حق لُبْنىٰ وقيس، وقد جئتك اليوم، وودت لو ترضىٰ برجوع لُبْنىٰ إلي قيس، فما بقي من العمر شيء.

- أوتراني رادك يا ذريح؟ وقد جئت إليّ في خيرٍ للُبْنىٰ وقيس، ولكن أشترط عليك شرطًا، لا أظنك لا تجيبني عليه.

- قل ما شئت يا حباب، إن أردت مهرًا لم تُمهر به حرّة في الحجاز من قبل ذلك، فعلت.

- لا، لا أريد مهرًا، إلا ما عُرف عند العرب، فإني أعلم أنك كريم جواد، وأنت تعلم أني زاهد، غير طامع فيما عند الناس، أنا أريد ألا يذكر قيس لُبْنىٰ في شعره حتىٰ يردها إليه، ويكفيني بذلك لوم اللائمين، وشماتة الشامتين، وفتنة الفتَّانين، ثم لا يحوم حول مضاربنا يتصيد رؤية لُبْنىٰ، من قريب أو بعيد، وأيم الله لو أخلَّ بشرط من هذين، فليس له عندي إلا السيف، فأنت رجل حرّ وتعي ما أقول.



- صدقت، وهذا حقك، ولكن لا أعدك به، حتىٰ أرسل لقيس وأعلمه، فأنت تعرف أن حتىٰ وقت إهدار دمه ما كف عن ذلك، لكن أعدك أن سيفعل من أجل ابنتك.

- إذن قُضي بذلك الأمر يا ذريح.

يخرج ذريح من عند الحباب، وقد ساهمت الخواطر التي تضطرب في نفس الشيخين من إزالة كل العوائق، وأجبرتْ الحوادثُ الشيخين علىٰ الخضوع والاستسلام لإرادة الحب والعشق، واعترفا داخل نفسيهما أنهما خسرا المعركة أمام حب صغارهما، وقد عرقلاه كثيرًا، وأضاعا من عمرهما سنينًا، لكن كل ذلك لا يهم، فقدرُ الله مُحققٌ لا محالة، المهم هو سعادة الأبناء، التي هي أهم وأعظم عند الآباء من سعادة أنفسهم.

يستدعي ذريح قيسًا إلىٰ مخدعه، ويخبره بخبر الحباب، وبشرطيه، وأن لُبْنىٰ له ما التزم الشرطين، ولن يمنعه عنها مانع إلا استكمال عدتها، ويخبره أنه وافق علىٰ شرطيّ الحباب، وعلىٰ قيس أن يلتزم به، ولا يصغّر أباه أمام الحباب، ولا يرهقه من أمره عسرا.

يهشُ قيسٌ لتلك الأخبار، ويعد أباه بذلك، وإن ذكر لُبْنىٰ، فبينه وبين نفسه، فهو لا يقوىٰ علىٰ عدم ذكرها علىٰ لسانه، أو البوح بما تجيش به نفسه.

يخبر الحباب قومه بخبر ذريح، وأنه جاء يرد لُبْنىٰ إلىٰ قيس، وقد أبدىٰ أسفه وندمه علىٰ ما فعل، فرحب القوم بما فعل الحباب، كذلك



تعمد الحباب نشر خطبة قيس للُبْنىٰ، حتىٰ يخفف من وطأةِ أي قول أو فعل يصدر عن قيس، بعمدٍ أو بغير عمد.

ولما رأىٰ الحبابُ من قومه ما أسعده وأسره، أخبر لُبْنىٰ بقدوم ذريح، وأنه خطبها مرة أخرىٰ لقيس ابنه، فأصابها من وقع الخبر ما عقد لسانها عن الكلام، فقد كانت تخشىٰ أن يرفض أباه وأمه تلك الزيجة، فما كانت تتوقع أن يطيع ذريح قيسًا بهذه السهولة، ويوافق علىٰ رد لُبْنىٰ إليه ثانية، وهو مَن أكرهه سابقًا علىٰ طلاقها، ولا كانت تتوقع من رمسة تلك الموافقة السهلة اللينة، وهي من أججت النيران في قلب ذريح علىٰ قيس وعليها، فما كانت تحسبه لُبْنىٰ أن تلك الموافقات لن تتأتّىٰ إلا بتضحيات وخسائر، قد تنهي علىٰ ما تبقىٰ من فضلة عقل في قيس.

كما كانتْ تخشىٰ من أبيها أن يرفض طلب ذريح، فما رآه قبل ذلك من إصراره علىٰ طلاقها، وإجبار قيس علي ذلك، يجعله يرفض حتىٰ قدوم ذريح عليه، لكنها لم تشغل بالها بمثل تلك الأفكار والهواجس، ولم تشغل بالها كيف تم تدارك كل تلك الأمور، واجتياز كل تلك العقبات، فالمهم هو الرجوع إلىٰ أحضان قيس ودفئه، وأن تشفي صدرها بحديثه العذب، الذىٰ ما سمعت مثله من أحد.

ذاع الخبر في كل أرجاء الحجاز، خبر طلاق لُبْنىٰ من زوجها، وخطبتها لقيس، وكعادة أي خبر يخص قيس، لا يقف عند حد، وتهتم به طوائف كثيرة من طوائف المجتمع الحجازي آنذاك، بين لاهٍ





وعابث، وبين جادٍ، وبين مؤرخ ومسجل للأحداث، وقد ترقب كلٌّ قدوم الأحداث، وما يمكن أن ينشده قيس من شعر جديد في لبناه.

أما قيس فقد ثاب إليه جزءٌ كبيرٌ من عقله ووعيه، وعادت له بعض نضارة جسده، وظل يعدّ الأيام التي ستجمعه ولُبْنىٰ، حيث الحديث العذب، والوجه المشرق، والجسد البضّ، والأحضان الدافئة، وينشد سرًا أعذب الأبيات في لبناه.

وصل الخبر إلىٰ ابن أبي عتيق، بأن زوج لُبْنىٰ قد طلقها وردَّها إلىٰ أهلها، وأنها الآن تقضي شهور العدة في دار الحباب، وأن ذريحا قد خطبها لقيس، وقد ازعجتْ كل تلك الأخبار ابن أبي عتيق، ولام علىٰ قيس أنه لم يخبره بكل ذلك، وهو صاحب الفضل في طلاق زوج لُبْنىٰ للُبْنىٰ، فأرسل إلىٰ قيس معاتبًا، وما كان من قيس إلا أن ركب إلىٰ المدينة معتذرًا لصديقه ابن أبي عتيق، وقد نزل عليه ضيفًا، فرحب به ابن أبي عتيق، وعاتبه عتاب محب:

- كيف لقيس أن يفعل كل ذلك ولا يخبرنا؟ ونحن مَن سعىٰ إلىٰ ردّ لُبْنىٰ بنت الحباب إليه.

يجيب قيس معترفًا معتذرًا:

- أهل الفضل لا ينكرون الفضل، لكن يا ابن أبي عتيق، الأحداث كانت كعقد انفرط أوله، وتوالت حباتُه، ولم أفق إلا وقد أرسلت إلي، وما مثلي يخفي فضل مثلك.



- هذا والله عهدنا بقيس...لكن من المؤكد أن قيسًا أنشد في لُبْنىٰ شعرًا، لا يشتكي فيه هذه المرة شكاية مَن أضناه البعد، بل يصف قرب الحبيب، وقد دنا منه دنو الظل من الجسم.

يخبره قيسٌ بشرطيّ الحباب، وأنه ما نظم إلا بينه وبين نفسه، وليس هو مَن يخون عهد أبيه.

- لا ضير يا قيس، ولكن قد تطرَّق إلىٰ سمعي - ولهذا أرسلت إليك معاتبًا- أن زوج لُبْنىٰ قد تضغَّن قلبُه علىٰ لُبْنىٰ، وامتلأ غيظًا وحنقًا، وظن بها الظنون، وأنها ما طُلِقت إلا لتتزوج بك، ولا بد من أن ننزع كل تلك السخائم من قلبه، حتىٰ لا يعكر صفوك أحد، فقد أقبلتْ عليك الدنيا بعد إعراض يا صاح.

- وماذا ترىٰ؟

- ستعلم، أما الآن فاسترح يا قيس في دار ضيافتك...

خرج ابن أبي عتيق من داره، وواعد بعضًا من عِلية القوم علىٰ معاد ضربه لهم في داره، فلما قدموا إليه، قال لهم: إني مستعينٌ بكم علىٰ أمر ما، فإنّ لي عند رجلٍ حاجة، وأخشىٰ أن يردني عنها وحدي، فاسعوا إليه معي، قالو: لبيكً، ما دامت تسعىٰ في خير، فذهبوا إلىٰ زوج لُبْنىٰ، فلما رآهم أكبرهم، فقال له ابن أبي عتيق:

- إن لنا عندك حاجة، وقد جئت إليك مع مَن ترىٰ من علية القوم، فلا تردنا خائبين.

- إنّ حاجتكم مقضيّة كائنة ما كانت.





- نعم، وهذا عهدي بك، أن تهب لنا ما في قلبك تجاه لُبْنىٰ، وتجاه قيس إن كان، وتدعهما وشأنهما دون سخيمة منك.

يتردد زوج لُبْنىٰ، ولكن تذكر عهده معهم، فكظم غيظًا شديدًا، وقال: قد فعلت.

- نعم، تهب لنا رضا نفس سخيَّة، تبذل الخير والمعروف، وتبارك زواجهما إن تم.

- قد فعلت إرضاء لكما.

- أنت والله الرجل، أنت والله الرجل صاحب الفضل، الذىٰ لا يرد ذا حاجة مهما كانت.

لم يبق إلا شيئًا واحدًا في نفس ذريح، أن ينجب له قيس حفيدًا، وهذا لن يتسنّىٰ له من لُبْنىٰ، فهي عقيم، ويخشىٰ ذريح أن يحدِّث قيسا في ذلك، فتنقلب كل الموازين، فيبوح لأحدٍ من قومه، فيشير عليه، بأن يرحل لابن أبي عتيق، ويخبره ليخبر قيسًا، فتروق الفكرة لذريح، ويذهب إلىٰ ابن أبي عتيق بنفسه، ويطرق عليه داره، فيراه ابن أبي عتيق، ويكبر الشيخ عن المجيء بنفسه، فيثب إلىٰ الشيخ، يعينه علىٰ النزول من دابته، ويكرم وفادته، ويقول له:

- أما كان للشيخ الجليل أن يرسل إلينا، فنأتيه؟ وحاجته مقضية كائنة ما كانت.

- إنك تعلم يا حفيد الصديق، أنني شيخ عجوز، ولا ولد لي غير قيس، وأنت أعلم بحاله، وأرجو من الله ألا ينقطع نسلي، وبنت





الحباب امرأة عقيم لا تلد، فأرجو أن يتزوج قيس أو حتىٰ يتسرَّىٰ بالإماء، فلو انشغل بلُبْنىٰ لن يقبل من أحد شيئًا، فأرجو أن تأخذ عليه عهد الله وميثاقه أن يتزوج أو يتسرَّىٰ بالإماء، فيلبي حاجتي ورمسة.

- قد فعلت، فهل للشيخ من حاجة أخرىٰ نقضيها.

- غير ذلك، لا.

يبلغ ابن أبىٰ عتيق قيسًا، ويأخذ عليه عهد الله وميثاقه أن يفعل، فيأبىٰ قيس إباءً شديدًا، فيذكره ما فعل أبوه لأجله، ويذكره ما فعل قبل ذلك، وأنه يستطيع أن يرفض الأمر كلَّه، فلا يلومه لائم، فلايزال به ابن أبي عتيق حتىٰ يرضىٰ بأن يتسرَّىٰ بالإماء، ولا يدخل إلا علىٰ واحدةٍ فقط، وبعد الدخول علىٰ لُبْنىٰ ببضعة أشهر، علَّها تنجب منه ولدًا يرضىٰ به الشيخ.

استطاع بذلك ابن أبي عتيق أن يزيل كل العقبات أمام قيس، وأن يمهد له طريق حياة سعيدة، فقد رضىٰ زوج لُبْنىٰ، ورضىٰ أبو لُبْنىٰ، ورضىٰ أبو قيس، ورضيت أم قيس، وكلٌ بارك الزيجة، وكلٌ في انتظارها، فلم يجد قيس شكرًا لابن أبي عتيق سوىٰ أن يمدحه في قصيدة خالدة، يقول في مطلعها:

جَزَىٰ الرَّحْمنُ أَفْضَلَ ما يُجَازِي ... علىٰ الإحسانِ خَيرًا مِنْ صَديقِ

فَقَد جَرَّبتُ إخـــواني جميـعًا ... فما أَلْفَيْتُ كـابْنِ أبـــي عَتِيقِ

سَعَىٰ في جَمعِ شَملي بَعدَ صَدعٍ ... وَرَأْيٍ حِـدْتُ فيهِ عَنِ الطَّرِيقِ

****





(١٣)

قبران مُتجاوران

كرَّتْ الشهورُ سراعًا كعادتها، لكنها كانت ثقيلة علىٰ قيس ولُبْنىٰ، ثقل جمال تحمل صخرًا، والآن لم يبق سوىٰ نيف وعشرين يومًا وتكمل لُبْنىٰ عدتها، وقد صارت حياة قيس كالسهم في الزبد، فقد أظهرت له الدنيا كل جميل، ولم تتنكّر له كعادتها معه، فلم يبق سوىٰ أيامٍ ويدخل فردوس لُبْنىٰ الذىٰ حُرم منه كثيرًا، ودخول الفردوس هذه المرة سيكون لذيذًا لا تعكّره العراقيل، ولا تقف في وجههِ العقبات، وقيس قد استردّ عافيته ونضارته، وثاب إليه عقله؛ احتفاءً بلُبْنىٰ، واستعاد أيامه الأُول، وبدأ يمارس هوايته القديمة في الصيد في بادية الحجاز.

يمتطي قيسٌ فرسه، وييمم وجهه نحو البادية كعادته، ومعه جُعْبة سهامه، فينطلق انطلاق سهمٍ شُدّ وتره بقوة، حتىٰ إذا وصل إلىٰ البادية وجد روضات كثيرات، تلمع مياهُها في ضوء الشمس، فيتخير إحداهنّ، ويتجه إليها بفرسه، ينزل من علىٰ فرسه، ثم يظل يتأمل الطبيعة التي تسلب العقول والقلوب، ويدخل إحدىٰ الروضات الصافيات التي كوّنها المطر قديمًا، فيمشي في طرقاتها، ينظر إلىٰ زهورها الخلابة، وألوانها البراقة، ويميل إلىٰ كل زهرةٍ حمراء نديَّة يراها، فيتأملها ويشمها، ثم يداعبها بأنامله، وكأنه يداعب شفاه لُبْنىٰ





الحمراء، ثم يمضي عنها فاترًا، ويمدّ يدَه إلىٰ الفروع المتدلِّية لاهيًا بأوراقها حينًا، ونازعًا بعض أوراقها حينًا آخر، ثم مازال يسير في الروضة ببطء شديد، حتىٰ بلغ مكانًا قد ظلَّلتْه أشجارٌ كثيفة، وغصونٌ متشابكة، فلم يصبه بلل المطر مثل ما أصاب غيره، أو تركت فيه قطرات الندىٰ أثرًا، وقد سقطتْ عليه الأوراق الكثيرة، فصارتْ كأنها فُرُشٌ ملونة، فساوىٰ الورق بسهمه، ثم ألقىٰ السهم إلىٰ جانب، وجُعْبته إلىٰ جانب آخر، وتمدد بظهره علي تلك الأوراق، وجعل يتأمل السماء من فتحات الغصون المُتدلية، ويتلقّىٰ شعاع الشمس النافذ إليه من بين تلك الجذوع والفروع، وراح يتأمل ما حوله من جمال، ويستمتع بالهدوء، وخادمه بجواره ينتظر إشارة منه.

شرد قيس بخياله بعيدًا، فقفز إلىٰ ذهنه سريعًا أول لقاء معه بلُبْنىٰ، وكيف سقته ماءً باردًا، ثم طعنته طعنة نافذة في قلبه، وأخذته أسيرًا موثقًا، ولم تفك وثاقه حتىٰ الآن، ثم زواجه بها، وما تبع ذلك من عقبات، وتذكر اللحظة الأولىٰ التي خلا فيها بلُبْنىٰ، وتذكّر أول قُبلةٍ عذبةٍ مسكرة، وأول حضنٍ دافئ، ولازالتْ تتوالىٰ الأحداث في ذهنه سريعًا حتىٰ وردتْ في ذهنه لحظة طلاقها، فانقبض قلبه، وارتسمتْ علىٰ وجهه بعضُ علامات الضيق والعبوس، وقاوم دمعات قليلات وددن لو انهمرن من عينيه، ثم راح يسأل نفسه معاتبًا إياها: كيف طلقها؟ وأي قوة تلك التي سلبت إرادته، وجعلته يفعل ذلك؟ لمَ لمْ يرحل بها في أي بلاد العرب شاء؟ تتكاثر الأسئلة في ذهنه وتتزاحم،



يستسلم لهذا السيل المنهمر من الأسئلة والخواطر والأفكار، ولم يستطع له دفعًا.

بعد لأيٍ، دفع قيسٌ عن خياله كل تلك الأفكار والخواطر والهواجس، وراح يتأمل لحظة لقائه القادمة بلُبْنىٰ، وكيف ستكون بعد تلك المدة الطويلة من البعد والحرمان، وها هي الدنيا قد صفتْ له، فيسترخي قيس، ويمدد جسده علىٰ آخره في خمول وفتور، ويغمض عينيه مستسلمًا، يفكر في تلك اللحظات الفارقة في حياته، حتىٰ تأخذه سنةٌ من النوم، يستيقظ منها علىٰ صوت قطيع من الحُمُر الوحشية، يتدافع نحو جداول المياه الرقراقة، القريبة منه، يداخله فجأة شعور بالحيوية والنشاط، فيتنكّب قوسه، ويحمل جُعْبته، ويثب علىٰ فرسه، فيهمزها، وينطلق كالقذيفة وراء صيده الثمين، الذىٰ ما إن راه حتىٰ تفرَّق يمنة ويسرة، فتخير أتانًا ثمينةً، وراح يطاردها...

أما لُبْنىٰ، فبالرغم من اقتراب الأيام، لكنها تشعر بما يشعر به قيس، من ثقلها، وأنها تمر ببطء شديد، وتنتظر تلك اللحظة التي ستجمعها وقيسا، وهي لا شك ستكون اللحظة الفارقة بالنسبة لها، ولم لا؟ وسيجمع الله بينها وبين قيس بعد أيام، فتنعم بقربه ووصله، ورقيق شعره.

كانت لُبْنىٰ لا تكفّ عن التفكير في تلك اللحظة، التي سيلتئم فيها الجمع، والتي ستخلو بها مع قيس، بالرغم مما كانت تشعر به من صداعٍ دائم، يصحبه ألمٌ شديد، يلم برأسها منذ أيام، لكن لا تبالي به، فهو يظهر ويختفي، لكن مع مرور الوقت ظل يعاودها هذا الصداع



الـذىٰ أصـبح مسـتمرًا، ونـتج عنـه حمـىٰ شـديدة تملّكـت جسـد لُبْنـىٰ، وانتشرتْ في أرجائه، بلا رحمة، وظلت تقاوم الألم، وإرهاق الجسد، وارتفاع حرارته، حتىٰ لـم تعـد تقـوىٰ علىٰ الحركـة والسير، فلازمـتْ الفراش.

لُبْنـىٰ الآن مريضـة بـالحمىٰ، وملازمـة للفـراش، لا تقـوىٰ علـىٰ الحركة، وأمها لا تفارقها، كذلك جاريتها، والألـم بمرور الوقت يزداد، والحمىٰ تشتد، ولُبْنىٰ تفقد كل مقاومة لهذا المرض العضال.

كان الحبابُ غائبًا في بعـض شـأنه، وعنـد عودتـه، رأىٰ مـا أصـاب لُبْنىٰ، فهاله ذلك، وجزع عليها جزعًا شديدًا، فاتجه إلىٰ الباديـة يلـتقط لها بعض أعشاب البراري، كالشيح والقيصوم، وغيـره مـن الأعشـاب التي يستطبّ بها أهـل الباديـة، ويقبـل سـريعًا إلـىٰ لُبْنـىٰ، فتعـالج أمهـا وجاريتها تلك الأعشاب، بالغلي تارةً، وبالطبخ تـارةً أخرىٰ، فتخفـف عن لُبْنىٰ بعض الآلام، لكن بمضيّ الوقت يخف تأثير تلك الأعشاب، وتزداد الحمـىٰ شـدة، فتُصيّر لُبْنـىٰ كـالفرخ الصـغير، الـذىٰ أغرقـه مـاءُ المطر، والأبوان يشتد قلقهما عليها، لكن لا حيلة لهمـا، والحبـاب لـم يبق عشبةً يعرفها في البادية، أو دُلّ عليها، إلا أتىٰ بها، لكنّ لا طائل مـن ذلك، فالحمىٰ تشتدّ وتشتدّ علىٰ جسد لُبْنىٰ، فأشار القوم علىٰ الحباب بأن يستدعي طبيبًا حاذقًا مشهورًا بين العرب، وأشـار عليـه بعضـهم أن يستدعي طبيبًا يسكن الطائف من بلاد الحجاز، وهو من أحفـاد طبيـب العرب المشهور الحارث بن كَلَدَة، أو يستدعي أحد تلاميـذ ابـن أثـال،



طبيب الخليفة معاوية بن أبىٰ سفيان الخاص، والمعروف عند العرب جميعهم.

يتجشّم الحبابُ الأهوال في سبيل استقدام حفيد الحارث بن كَلَدَة، طبيب العرب، ولولا استعانة الحباب بأحد أبناء الصحابة الكرام، بما له من مكانة ومنزلة، ما استطاع أن يستقدم هذا الطبيب المعروف، والذىٰ لا يستقدمه إلا علية القوم.

يدخل الطبيب علىٰ لُبْنىٰ، فيلقي عليها نظرة متفحّصة، فترتسم علىٰ وجهه علامات اليأس، التي يحاول أن يتداركها، ويخفيها عن الحباب، يقترب من لُبْنىٰ، فيفتح عينيها المغلقة، ويفحصها فحصًا دقيقًا، ثم يسجل في دفتره بعض الحروف، ثم يأخذ الطبيب في فحص جسد لُبْنىٰ فحصًا دقيقًا، ينم عن حذق ومهارة، ويسأل الحباب:

- منذ متىٰ ألمَّ بها هذا الداء؟

- منذ عشرة أيام.

- وأي الأعشاب تجرعتها؟

- الشيخ والقيصوم، و...

- هذا حسنٌ، لكن هل خففت هذه الأعشاب عنها شيئًا؟

- أوقات قليلات.

يهز الطبيب رأسه، ويمط شفتيه، وكأنه تيقّن من أمر ما، ثم يقول للحباب:

- ولكن اسمع أيها الشيخ، إن ابنتك مريضة مرضًا عضالا، فقد تمكّنت الحمىٰ من جسدها، فأتلفتْ بعض أعضاء الجسم،





فكفت مقاومتها للمرض، كما أن عينها تنبئ أن الحمىٰ مهلكة، وسأدلك علىٰ نبتةٍ ستجدها في أرض معشبةٍ من أراضي بادية الحجاز، تُيبَّس أوراقها، وتُغلىٰ في الماء، أما جذوعها فتدهن وهيٰ لينة بدهن ساخن، ويُلف فيها الجسد يومين كاملين، ثم تنتظر يومين أو ثلاثة، فإن أتىٰ كل ذلك بخير، وبدأتْ الحمىٰ في الزوال، فهو الخير، وإن لا، فلا تسأل عن دواء بعد ذلك.

تصدم العبارة الأخيرة الحباب، فيكتسي وجهه بمسحة حزن لن تفارقه بعد ذلك أبدًا، ويكتم دموعًا غزارًا، ليس وقتها الآن.

يصطحب الحبابُ خادميه، ويتجه بهما إلىٰ البادية؛ بحثًا عن تلك العشبة التي دلّ عليها الطبيب، فيتنقلون في الروضات والأودية المُعشبة لساعات طوال، لكن لا أثر لتلك العشبة الشافية، حتىٰ إذا يئسوا، استراحوا قليلا تحت ظل شجرة من أشجار الطّلح، فلمحوا من بعيدٍ أحدَ الأعرابِ الجُفاة الغلاظ، يرعىٰ غُنيْماتٍ له في بطن الوادي، فيرسل الحبابُ إليه خادمًا من خدمه، يسأله عن العشبة ومكانها، فيسأل الأعرابي الخادم:

- لم تبحث عنها أيها الأسود؟

- لنستطبّ بها.

- نعمَ العشبة هي، ولا يدل عليها سوىٰ حاذق، وهي لا تصلح إلا للحمىٰ، وإن لم تأت بالشفاء، فلا تسأل عن شيء بعدها، ثم يدله علىٰ مكانها، وأنها في تلك الأرض المعشبة، وأشار له إليها.





يذهب الخادم إلىٰ سيده، ويخبره بخبر الأعرابي وما قال، فينطلق الحباب ويأتي بالعشبة، ويعرّج علىٰ الأعرابي يشكره، فيسأله الأعرابي:

- مَن دلّك علىٰ تلك العشبة يا رجل؟
- طبيب من أحفاد الحارث بن كَلَدَة.
- ومَن يكون هذا؟
- من أشهر أطباء العرب.
- نعم هو كذلك، والوصف ما وصف، والقول ما قال، ولكن اعلم يا رجل أن آخر الدواء الكيّ، ويقصد الأعرابي أن هذه العشبة لا يتجرعها إلا مَن يئس أصحابه من علاجه، فإما الشفاء بعدها وإما الموت، فينطلق الحباب بخادميه إلىٰ لُبْنىٰ، وقد امتلأ قلبه حزنًا وضيقًا، فلُبْنىٰ الآن بين قاب قوسين أو أدنىٰ من الموت، يصل إلىٰ داره، فيطمئن علىٰ لُبْنىٰ وإذا حالتها تزداد سوءًا، والحمىٰ تشتد، ولُبْنىٰ مغيبة تمامًا عن الواقع، يفعل ما قاله له الطبيب تمامًا، وينتظر يومين أو ثلاثة أيام...

بكَّر ذريح إلىٰ سوق النخاسة في الحجاز، وقد اصطحب خادم قيس معه، والذىٰ كان مكلفًا بخدمة قيس، بعد تحرير جرول المخلص من عبوديته؛ ليعينه في شراء جارية جميلة، تكون عربية النسب، قد جُلبت إلىٰ سوق النخاسة عنوةً، بعد غارة حدثت، أو سرقة تمت، ولا تكون روميَّة أو حبشيَّة أو غير ذلك من الأجناس الأخرىٰ؛ حتىٰ يكون الولد عربي النسب، كأهله.



يصلُ ذريح إلىٰ سوق النِخاسة، وهىٰ المرة الأولىٰ التي يدخله منذ عشرين عامًا مضتْ، وقد تغيّرت ملامحه، وكثرتْ الجواري المعروضة فيه، نتيجة كثرة الفتوحات الإسلامية في البلدان المجاورة، من روميات وحبشيات وفارسيات، وجميع الأجناس المختلفة، وقد عرَّىٰ النخّاسون بعض أذرعهنّ، أو بعض سوقهنّ، أو بعض صدورهنّ، وهناك جاريات كن معروضات شبه عاريات.

ينادي النخّاسون علىٰ ذريح؛ ليعرضوا عليه بضاعتهم، ويسألونه عن مواصفات ما يريد، وهو يدور بين الحِلقِ يبحث عن بغيته، حتىٰ عثر في النهاية علىٰ جاريةٍ صغيرة، حلوة الملامح، متناسقة الجسد، أخبره النخَّاس أنها عربيَّة، ومن قبيلة طيء، وقد جلبها إليه بعض قطَّاع الطرق، وأنها فصيحةٌ وأديبةٌ، وتتقن فنونًا كثيرة، يحدثها ذريح؛ ليختبر عربيتها، فإذا هي ماهرة في اللغة العربية الفصيحة، حافظة للشعر والأدب، فتعجبه، ويساوم علىٰ ثمنها، حتىٰ يقضيه النخّاس، وهو يظن أنه وقع علىٰ صيدٍ ثمين، سيقدمه لقيس علىٰ حسب ما وعده ابن أبي عتيق، وهذه الجارية عربية، ومن صميم العرب، ولها دراية بالشعر وروايته، فستقع ولا شك موقعًا حسنًا من قيس، وقد يرد عليها حريتها، فتصبح امرأة عربية حرَّة من قبيلة طيء، ينجب منها ما يحفظ عليه ذريته، ويسألها ذريح بعد أن يصل إلىٰ داره:

- من أي طيء أنت يا جارية؟
- من كهلان.
- نعم النسب!





- وكيف رمتْ بك المقادير إلىٰ سوق النخاسة؟

- خرجتُ لبعض حاجتي، فهجم عليّ قطَّاعُ طرقٍ، وشروني بثمنٍ بخسٍ، لأحد هؤلاء الأنجاس.

- نعم، إنهم أنجاسٌ يا بُنيتي.

- وما اسمك؟

- هتَّان.

- فألٌ حسن، فاسمك يدل علىٰ المطر الكثير، وهذا يصحبه خير عميم، اسمعي يا جارية، لقد اشتريتك لولدي قيس، وسيدخل عليك بعد بضعة أشهر، وقد لا تجدي منه قبولا كثيرًا، فقلبه معلّق بأخرىٰ.

- أأنت الشيخ ذريح الكناني؟ وابنك قيس، صاحب لُبْنىٰ؟

- ومَن أدراك، أتعرفين قيس بن ذريح؟

- مَن له دراية بالشعر والأدب، يعرف قيسًا صاحب لُبْنىٰ.

- وهل وصل خبر قيس إلىٰ بلاد اليمن؟

- إن خبره يسير مع الركبان، أينما حلّوا.

فيتعجب ذريح، ويخاطب نفسه في صوتٍ خفيض: لله درّك يا قيس! لعمري لو تزوجت وأنجبت، وعشت كغيرك من الفتيان، ما عرفك غير قومك، أما الآن فمثلك مثل الملوك، كل العرب يعرفونك، وها هي جارية صغيرة من اليمن، تعرف قيسًا!!! إنه والله الشعر، وما نظمت شعرك إلا بابنة الحباب، ثم ينظر إلي هتَّان، ويقول:



- لله درك يا هتَّان، ستصبحين عندنا حرّة، إن أنجبت منه، وقد تزورين أهلك في طيء.

- إن مسلوب العقل لا فضلة فيه لغير معشوقه، فهو لا يرىٰ غيره، وإن رأىٰ، فهو يضنّ عليه بكل شيء.

يُصدم ذريح من رد هتَّان، لكنه يتغافل عن قولها، ولم يعره اهتمامًا، فيقول:

- وما أنت فاعلة معه يا هتَّان؟ وقد سبقتك مَن هي أجمل منك، فلم يمد لها يدًا، أو يرفع لها ثوبًا.

- وماذا تريد يا سيدي من فتىٰ قد أغلق قلبه إلا لمعشوقه، وحبس شعره إلا عليه؟ فلُبْنىٰ سالبة قوله وعقله، ومن قبلهما قلبه، ولم تبق فيه فضلة من شيء ذي قيمة.

- نعم، هو كذلك، ولكن اسمعي يا هتَّان: لو أنجب قيسٌ منك ولدًا، فأنت حرَّةٌ طليقة، وستصبحين سيدة هذا المنزل بلا منازع...

يدخل قيس الدار، ويرىٰ هتَّان، فلم يعرها اهتمامًا، ويلقي علىٰ أبيه وأمه تحيّات طيبات مباركات، ثم ييمم وجهه نحو مخدعه، فيستوقفه ذريح، ويخبره:

- هذه يا قيس جارية عربيّة، شريفة النسب، إنها من طيء، وماهرة في الشعر والأدب.

يدرك قيس ما يرنو إليه أبوه، وأنه ما اشتراها إلا ليتسرَّىٰ بها، كما وعده ابن أبي عتيق، ولا يريد أن يغضبه، والأمور تسير علىٰ خير





ما يرام، فيبتسم له قيس، فيشرق وجه ذريح لابتسامة قيس، فيتشجع، ويسأله في لين:

- ما رأيك بُني في هتَّان؟

لا ينظر إليها قيس:

- حسنًا يا أبت، فالموعد الموعد.

ينقبضُ قلب ذريح، من إجابة قيس المقتضبة والحازمة، بعدما انشرح من ابتسامته، ويقولُ لقيس في صوت خفيض يشوبه اليأس والغيظ في نفس الوقت:

- نعم، الموعد يا قيس، الموعد.

يدخل قيس مخدعه، وينظر ذريح إلىٰ هتَّان، ويسألها:

- ها هو قيس، ما تراك فاعلة معه؟ إنه ما نظر حتىٰ إليك، وهذا شأنه مع كل النسوة.

- أدرك يا عم، فالوفاءُ طريقٌ يسلكه العشَّاقُ المخلصون، ولا يقوىٰ عليه سوىٰ المحبين الصادقين، الذين فهموا شعور بعضهم الصادق، فيعيشون معًا بنفس هذا الشعور، علىٰ ما بينهم من بُعد، وتطير قلوبهم علىٰ أجنحة الطير سراعًا؛ لتلتقي ليلا ونهارًا في بؤر الأحلام والرؤىٰ، ما دام اللقاء في الواقع مستحيلا...

يقاطعها ذريح ساخرًا:

- ما أراني اشتريت إلا فيلسوفة العرب، مَن علمك هذا الكلام يا جارية؟!





- أسمع يا سيدي، رُوي عند أحد العشَّاق...، يقاطعها غاضبًا، عندما سمع سيرة العشق:

- أغربي عن وجهي يا جارية، كفانا قيسًا، ألا قبح الله العشق، ما جنينا منه غير الخسارة.

كعادة قيس في أوقات فراغه يُيمم وجهه نحو البادية، فيمتطي صهوة جواده وينطلق، وقلبه يمتلئ ببهجة الحياة التي تتحرك فيه، فيقضي يومه في المطاردة واللهو، ثم يعود مُمتلئ القلب بالبِشر، ويشعر أن أيام لقائه بلُبْنىٰ قد نقصت يومًا، ولكنه اليوم كان علىٰ غير عهده بنفسه، فمنذ أن لاحت أمامه بادية الحجاز، وكأنّ نفسه قد عادت به إلىٰ سابق عهدها، حينما كانت لُبْنىٰ متزوجة، وبعيدة عنه، والوالي مُهدر دمه، وقد خرج إلىٰ رياضه اليوم وحيدًا، بغير خادمه الأسود، يحسّ في قلبه حزنًا كامنًا لا يتبين مبعثه، وخُيل إليه أن كل ما حوله من رياضٍ وأودية وزهور خلابة، تشع حزنًا وكآبة لا تُطاق، وأن خلف هذه السماء الصافية التي فوقه، تُخفي عنه أسرارًا غامضة، حتىٰ الصحراء الشاسعة حوله، والتي اعتاد أن يراها ممتدة الأفق، جميلة المنظر، يراها اليوم كئيبة، ضيقة الأفق، وأن ذلك النسيم الذىٰ كان يدخل صدره فينعشه، ويحبب إليه الحياة، بما ينقله من روائح لُبْنىٰ إليه، قد جاء محملا بالقلق الذىٰ يضرم النار في قلبه وأحشائه، ويختلج فيه اختلاجًا، يوشك أن يخنقه.

يدور قيس يمنةً ويسرةً بفرسه، ويدنو من التلاع تارة، ويسمع لخرير المياه تارة أخرىٰ، حتىٰ يجد في جمالهما ما يأنس إليه، وينفرج





به قلبه المقبوض، لكن لا شيء يتغير، ثم يحاول أن يضّجع تحت الظلال المتشابكة كعادته، ويسترجع صور لُبْنىٰ، وإشراقة وجهها، فيشعر أن مكانه الهادئ الجميل، مضطرب ومزدحم، ويبعث علىٰ الوحشة والكآبة، فتضيق نفسه من كل شيء، وتمر في خياله سراعًا كلُ الصور المؤلمة في حياته، فيطرد كل هذا من خياله، وينطلق بفرسه سريعًا في الصحراء الممتدة أمامه علىٰ غير هدىٰ، فيلمح من بعيدٍ في أحد الأراضي المعشبة التي يرتادها خيالا يتحرك، فيهمز فرسه، وينطلق نحوه، وإذا هو خادم أسود يبحث عن عُشْبة معينة من بين الأعشاب، ويجمعها في حرص وعناية فائقتين، يقترب منه قيس، ويسأله:

- مَن أنت؟

- أنا عبدٌ لِبَنِي كعب.

- وماذا تفعل أيها العبد في حمانا؟

- اجمع عُشْبةً للاستطباب.

فلما سمع قيس ذلك، سأله باهتمام وشغف:

- ولمن أنت في بني كعب؟

- إني ملك سيدي الحباب الكعبي.

- الحباب! أنت عبدٌ للحباب؟! ومَن ذا الذىٰ يستطبّ في دار سيدك؟ أهو سيدك؟

- لا، بل سيدتي لُبْنىٰ، ابنة سيدي الحباب.





يشعر قيس أن الأرض تميد تحت قدميّ الفرس، وأن كل شيء حوله يضطرب، ويفقد توازنه، وأنه سيسقط مغشيًا عليه، ينزل من علىٰ فرسه، ويجلس علىٰ أقرب صخرة، لعله يستعيد توازنه، يظل مدة لا يقوىٰ علىٰ السيطرة علىٰ نفسه، ثم يقول للعبد:

- ممَ تشكو سيدتك لُبْنىٰ؟

ينظر العبد إلىٰ قيس، وقد ذهل، فيقول له:

- أنت والله سيدي قيس بن ذريح، وإن لم تكن هو فإني عبد سوء، لا أفهم شيئا.

- نعم أنا قيس بن ذريح، قيس الشقي، قيس الذىٰ حانت منيَّته، قيس الذىٰ لم يبق من أجله أجل، أخبرني يا غلام ماذا حدث لسيدتك؟ يقص عليه العبد القصة كاملة، ويخبره أن الطبيب قال: إن آخر الدواء الكي، وأن هذه العشبة هي آخر سلاح لمواجهة الموت.

تنزل كلمات العبد كالسهم النافذ في قلب قيس وكبده، فيفقد الشعور والإحساس، ويشعر أن الدنيا غائمة، وأن الكون يدور من حوله بسرعة رهيبة، لا يستوضح معها الأشياء، ثم يقع مغشيًا عليه.

يحاول العبد أن يستنهض همّة سيده، يقلّب جسده يمنة ويسرة، ثم ينضح علىٰ وجهه ماءً من قربته، ولكن لا يفتح عينيه إلا بعد أن يئس العبد، وظن أن قيسًا قد مات.





يتمالك قيسٌ نفسه، ويتحامل علىٰ فرسه، حتىٰ يقف علىٰ قدمه، وهو لا يقوىٰ علىٰ أن يثب كعادته علىٰ فرسه، فيتنحىٰ به مكانًا عاليًا يصعد عليه، ويركب فرسه، عائدًا إلىٰ داره وقد علاه الهمُّ والغمُّ، ويدخل مخدعه مباشرة، دون أن يلقي بالا لأبيه وأمه.

يتساءل ذريح:

- ماذا حدث لقيس؟ إنه لا يرانا، أعاودته همومه وأحزانه؟ ترد عليه رمسة:

- يبدو إنه شؤم تلك المرأة العقيم، قد عاوده.

- اذهبي إليه يا هتَّان، واسأليه شأنه.

تدخل هتَّان تسأله، لا يرد عليها، بل لا يكاد يشعر بها، تخبر ذريحًا، يزداد قلقه علىٰ قيس، يدخل بنفسه إليه مخدعه، ثم يسأله عن سبب ما هو فيه، لا يرد إلا بعد لأيٍ شديد، ويخبره أن لُبْنىٰ مريضة مرض الموت، فيخرج ذريح من عنده حائرًا ماذا يفعل، فيخبر رمسة علَّه يجد عندها حلا، ينشرح صدر رمسة، وتنبسط أساريرها، لكنها تحاول أن تخفي كل ذلك، حتىٰ عن نفسها، وتخبر ذريحًا أن لابد أن نمتثل إلىٰ قضاء الله، وننتظر ماذا سيحدث في الأيام القادمة.

تستأذن هتَّانُ سيدها في أن تقول شيئًا، فيأذن لها ذريح علىٰ مضض، فهو يعلم أن كلامها علىٰ قيمته لا يروق له كثيرًا، تتنهد هتَّان ثم تقول:

- إن أول مَن تكلم عن مثل حالة سيدي قيس هو أبقراط، طبيب الفرنجة، حيث قال: "العشق يتولد في القلب، وتجتمع فيه مواد





من الحس، فكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج، واللجاج وشدة القلق وكثرة السهر، وعند ذلك يكون احتراق الدم، واستحالته إلىٰ السوداء، ومن طغيان السوداء، وفساد الفكر، يكون نقصان العقل، ورجاء ما لم يكن، وتمنِي ما لم يتم، حتىٰ يؤدي ذلك إلىٰ الجنون، وأنت ترىٰ العاشق إذا سمع بذكر من يحب كيف يهرب دمه ويستحيل لونه، و..."، يقاطعها ذريح وقد تبلّد، وفغر فاه من غرابة قولها، ثم يصيح بها منفعلا:

- أغربي عن وجهي يا فيلسوفة العرب، ثم يخاطب نفسه قائلا: لا أدري أي بلاء وقعت فيه!! أغربي عن وجهي الآن أيتها البلهاء، وإلا حطمت فمك، لا تكترث به هتّان، لكنها تقول بثبات، وهي تغرب عن وجهه سريعًا:

- الوصال يا سيدي، قد يكون ناجعًا، إن لم يسبقه الموت، وهكذا قال أبقراط، طبيب الفرنجة، وقال أيضًا: العشـ...، يثبُ ذريحٌ من مكانه سريعًا، وينظر حوله منفعلا، يبحث عن شيء يقذفها به، لكنها تختفي من أمامه سريعًا، ويحاول أن يتبعها، لكن رمسة تمنعه، وتقول له:

- ألم تفكر في قول هذه الجارية؟ الوصال...فربما يكون ناجعًا كما يقول صاحبها، ما رأيك أن تأخذ قيسًا وتعودوا تلك المرأة، فلعل قيسًا يبرأ من النظر إليها؟ تروق الفكرة لذريح، فينهض إلىٰ قيس في مخدعه، ويعلمه، فيقفز قيس من مكانه كمن لسعته عقرب لتوّه.





يطرق ذريح وقيس دارَ الحباب، فيخرج الحباب نفسه، بعد أن سمع صوت ذريح، ويسرُّ سرورًا شديدًا، برؤية قيس، ظنًا منه أن لُبْنىٰ إن رأته قد يساعد ذلك في شفائها، وأنساه مرض لُبْنىٰ عادات العرب وأعرافهم، وأزال كل سخيمة في قلبه؛ لأجل لُبْنىٰ.

يلتقي قيس بلُبْنىٰ بعد زمن – في عرفه– طويل جدًا، وإذا بلُبْنىٰ قد أنهكتها الحمىٰ، وأذابتْ لحمها، فلم تبق في جسدها سوىٰ عظماتْ بارزاتْ ناتئاتْ، وأذهبتْ نضارتها وبريقها، وصيّرتْ جسدها البضّ الطّري، إلىٰ جسد معلول منهوك، والفتنة التي كانت كامنة في ذلك الجسد، ويسيل لها ريق أنسك خلق الله، صارت الآن مدعاة للنفور، أما ثغرها الشهي الذىٰ كان عذب مقبله، قد صار جافًا محفورًا، كبئر معطّلة.

لم يصدق قيس أن هذه لُبْنىٰ، وأوشك أن يفقد عقله، حتىٰ إنه سأل الجباب متعجبًا:

– يا عم، أهذه لُبْنىٰ؟ أم أنك تضنّ علينا برؤيتها؟

– بل هي لُبْنىٰ يا بُني، ويبدو أنها لم يبق لها في طيب الحياة نصيب، وهذا هو يومها الثالث، الذىٰ أخبر به الطبيب، فلا أظن أن شفاءً يعقبه، حدثها يا قيس، لعلها تأنس بحديثك، وتسترجع بعض عافيتها.

يقترب قيس من لُبْنىٰ، ويناديها يائسًا: يا مهجة القلب، ويا منية الروح...يا لبناي، أيا لبناي، يا أنسي، ويا وجودي، ويا كلّي، إني قيس يا حبيبة القلب، إنّي مَن يتحرّق قلبه لأجلك، وا لبنااااااه!!!





ولُبْنىٰ فاقدة الوعي تمامًا، بقايا جسد هامد ساكن سكون الموت، كانت تسكنه روح شفافة محبة، عرفت طريق العشق مبكرًا، فلازالت باقية عليه، حتىٰ نزْعِها منه، جسد فقدَ كل مقومات الحياة، إلا من أنفاس تخرج بعد لأيٍ شديد، وكأنها تُنزع من بين الضلوع نزعًا.

لا حيلة لقيس سوىٰ أن يجهش بالبكاء، ثم يجهش، ويجهش، حتىٰ لم يبق حول لُبْنىٰ أحدٌ، إلا وقد سقطتْ دموعه حارة صادقة، وأيقن الجميع في تلك اللحظة المعنىٰ الأمثل للحب، والذىٰ ينفذ عبر كل العوائق، كنفاذ شعاع الشمس في الأجواء، وفي تلك اللحظة تنازل الآباء عن كبريائهم؛ تجلَّتْ لهذا الحب، الذىٰ ما عرفوه ولا ذاقوا طعمه، وودوا لو أن الأيام تعود بهم، وما وضعوا عقبةً واحدةً أمام هذا التيار الدافق المتجدد، وود ذريح لو تنهض لُبْنىٰ لتغفر له ما جناه عليها، وتغفر له تلك العذابات التي قذفها بها، هي وقيس معًا، وكأنها حمم براكين حارقة، هما الوحيدان اللذان اكتويا بها...

أيقن الجميع بنهاية لُبْنىٰ إلا قيسًا، الذىٰ ظل يتعلق بأمل الحياة حتىٰ آخر لحظة، فاليوم هو اليوم الرابع ولُبْنىٰ مازالت حيَّة تتنفس، بالرغم من أن الطبيب أخبر أنها إن ظلت حالتها هكذا، فهي ميتة بعد ثلاث، وقد مرَّ اليوم الثالث علىٰ الجميع قاسيًا جدًا، وكان مرور هذا اليوم أشدهم قسوة علىٰ قيس، حتىٰ إنه لم يذق طعم نوم ولا أكل، وها هو اليوم الرابع يمر أيضًا بسلام، وإن كانت لُبْنىٰ حالتها كما هي، لكنها علىٰ الأقل لم تمت، وأن أنفاسها لازالت باقية في صدرها، أمن الممكن أن تحيا لُبْنىٰ؟ في عرف قيس من الممكن، يذهب قيس كل



يـوم إلـىٰ الأرض المعشـبة، ويـأتي بعشـرات مـن تلـك العشـبة؛ لتظـل نضـرة، ومـن ثـم فتأثيرهـا ربمـا يكـون أكثـر فاعليـة، يسـتيقظ مبكـرًا، ويذهب إلىٰ البادية، يأتي بالعشبة، ويعـود بها إلـىٰ دار الحباب، ويظل باقيًا هناك حتىٰ دنو الشـمس من الغـروب، ولا أحـد يمانع، لا ذريحًا ولا الحباب ولا حتىٰ رمسة، الحباب يتمنّىٰ شفاء لُبْنىٰ، ورمسة تتمنّىٰ شفاء قيس.

في منتصف ليل اليوم الثامن تتململ لُبْنىٰ، وبالكـاد تفتح عينيهـا، ثم تغمضهما ثانية، وتحاول أن تحرك شفتيها لتقول شيئًا، لكن ذلك لا يتأتّىٰ لها في سهولة، حتىٰ أنفاسها بدأت تنتظم قليلا، يستبشر الجميع، وينتشـر الخـبر في أرجـاء الـدار، فيقبلـون جميعًـا علـىٰ لُبْنـىٰ فـرحين ومكبرين، فهي لم تفعل ذلك منذ أحد عشر يومًا.

تفتح لُبْنىٰ عينيها، ولا تكاد تحركهما في محجريهما، وتدور بهما علىٰ الحاضـرين بكـل صـعوبة، وكأنهمـا حجـرا رحـىٰ، يبـدو أن لُبْنـىٰ تبحث عن شيء ما، لكنها لا تجده، بعد ساعة تفعل ما فعلتْ، فلا تجد ما تريد، الحباب الوحيد الذىٰ يفطن إلىٰ مأرب لُبْنىٰ، وهي علىٰ فراش الموت، إنها تريد أن ترىٰ قيسًا، الآن فهم الحباب ما هو الحب؟ ومـاذا يعني حتىٰ لهؤلاء الذين ينازعون الروح.

يرسل الحباب خادمه إلىٰ قيس، الذىٰ يـأتي علـىٰ جنـاح السـرعة، كأنه جاء علىٰ جناح نسر قوي، يهمس الحباب في أذن قيس بشـيء مـا، يتهلل وجه قيس كطفل صغير، ويظل حول لُبْنىٰ يناديها بأحب الأسماء إليها، يهمس لها بكلمات عـذباوات، لـو سـمعتهن لُبْنـىٰ لفاقـت، يظـل



هكـذا وعينـه مغرورقـة، لا تكـاد تجـف مُقَلِهـا، حتـىٰ إذا فتحـت لُبْنـىٰ عينيهـا في بـطء شـديد، ودارت بهمـا، وقعتـا علـىٰ قـيس، فتكـف عـن الدوران، وتثبتْ ثبوت الجبال الشمّ، إنها وجدت الآن مَن تبحث عنه، وجدت المعشوق.

تلتقي العينان لأول مرة منذ أن كانا عنـد بريكـةٍ، تبـذل لُبْنـىٰ مـا في وسعها حتىٰ تحرك شفتيها، لكنها لا تقوىٰ شفتيها علىٰ الحـراك، لكـن العيون قالتْ كل شيء، وباحـتْ بكـل شـيء، وعبَّـرتْ عـن كـل شـيء، تظل عينيها معلقة علىٰ قيس، لا تتحرك، ثم تغمضهما، بغير حول منها ولا قوة، يرتعد جسد قيس، وتعلوه قشعريرة، تجعـل جسـده يتفصَّـد عرقًا، يخشىٰ أن تكون لُبْنىٰ قد ماتتْ، فيهمس:

- لُبْنىٰ، لُبْنـىٰ، لبناه، يـا مهجة قلـب قـيس الشـقي، يـا روح قـيس التعيس، يا كـل شـيء عـذبٍ جميـل، يـا...، يغـرق في بكـاء حـاد، وبطريقة عصبية، يهدئ الحباب من رُوعه، ينادي لُبْنـىٰ، لا تجيبـه حتىٰ بمجـرد أن تفـتح عينيهـا، أماتـت لُبْنـىٰ؟ أماتـت وتركتـه؟! يلحظ أن أنفاسها لا زالت تختلج في صدرها، يهدئ قيس قلـيلا، إنهـا لازالـت حيَّـة، هـو يـوقن داخلـه أنهـا لـن تتركـه وحيـدًا، وإن تركته! فهو لن يتركها.

إنه فجر اليوم التاسع، ذلك الفجر الـذىٰ شـهد مـوت لُبْنـىٰ، شـهد موت أحد قطبيّ الحب في بادية الحجاز.

ماتتْ لُبْنىٰ، وعلَّمتْ النساء كيف يكون الحب في أجمـل صـوره، وكيف يكون الإخلاص فيه.





ماتتْ لُبْنىٰ، وعلَّمتْ النساء كيف تكون العفة في أرقىٰ صورها، وكيف يكون الحب شفافًا حتىٰ في أضيق أطواره.

ماتتْ لُبْنىٰ، وعلَّمت النساء كيف يعلو الحب حتىٰ علىٰ البنين والبنات، أليست تستحق أن يخلدها قيس في أشعاره؟

أما قيس فقد كان موقنًا أنه لن يظل بعد لُبْنىٰ كثيرًا، فإن كان فرَّط فيها قُبُلا فلن يفرّط فيها الآن، فقد كان يذهب إلىٰ قبر لُبْنىٰ ينوح ثم ينوح ثم ينوح، حتىٰ مرَّت عليه بضعةُ أيام، وهو علىٰ هذه الحال، حتىٰ مرض مرضًا شديدًا، واعتلّ جسمه، ليموت أسفًا وحسرة علي لُبْنىٰ، مات قيس، نعم مات... واتفق الناس علىٰ أن يدفنوه في قبر بجوار لُبْنىٰ، وقد حدث ذلك؛ حتىٰ صار القبران المجاوران، خير شاهدٍ علىٰ سمو العشق...

وكان آخر ما أنشده:

ماتَتْ لُبَيْنَىٰ فموْتُها موتُ ... هَلْ تَنْفَعَنْ حَسْرَةٌ علىٰ الفَوْتِ

وَسَوْفَ أبْكِي بُكَاءَ مُكْتَئِبٍ ... قَضَىٰ حياةً وجدًا علىٰ مَيْتِ

❋❋❋❋



انتهت بحمد الله وفضله



الفهرس